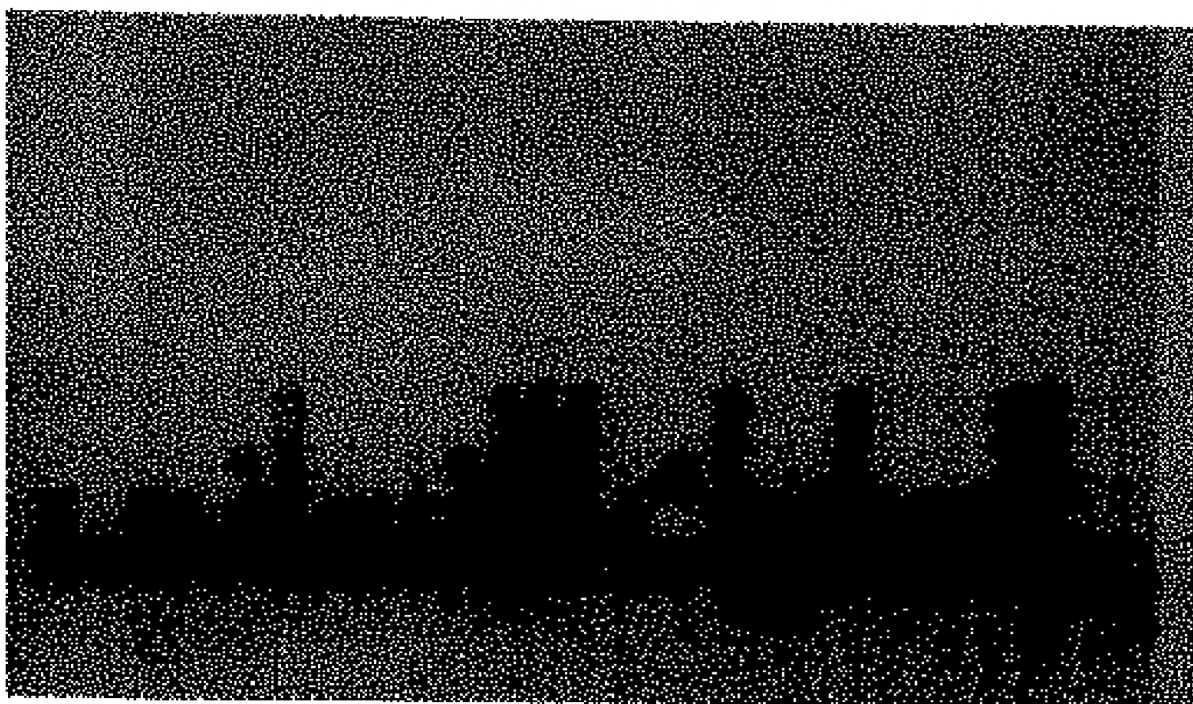
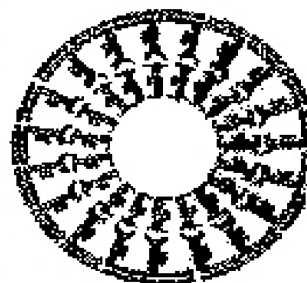


د. فخرى الدين شلح



الحقيقة والخيال !

الكتاب الثاني عشر
١٥ يوليو ١٩٨٦م



الكتاب

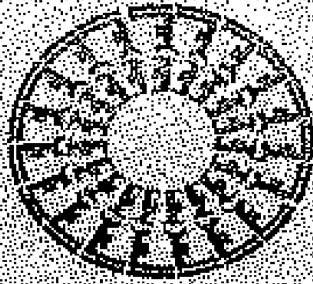
الكتاب

اهداءات ٢٠٠٢

د/ ابراهيم مصطفى ابراهيم

كلية الاداب - المنهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الصحف

رقعة

☆ مِشْرَاة الحَقِيقِ الصَّرَاحِيَّةِ ☆

رئيس التحرير :

الدكتور محمد الرميحي

مقّده السلسلة :

- تستدر عن مجلّة الصّريّ
- مؤقّتاً فصّلتها .
- تقدّم بمجموعة من المقالات والموضوعات نضكت وأحد أو موضوعاً واحداً تستأوله عبدة القتل .

السعر

الكتاب ٢٥٠ فلساً ، الصراف ٢٥٠ فلساً ،
السعودية ٥ ريالاً ، الأردن ٢٥٠ فلساً ، سوريا
٣ ليرات ، لبنان ٣ ليرات ، مصر ٢٥٠ فلساً ،
السودان ٢٥٠ فلساً ، المغرب ٥ دراهم ، قطر ٥
ريالات ، الامارات ٥ دراهم ، سلطنة عمان ١/٢
ريال ، اليمن الشمالي ٣ ريالات يمني (ش) ، اليمن
الجنوبي ٣٠٠ فلس يمني (ج) ، ليبيا ٣٥٠ درهما ،
تونس ٤٠٠ مليم ، الجزائر ٤ دينار ، البحرين
٣٠٠ فلس ، بريطانيا ١ جنيه ، فرنسا ١٥ فرنك ،
أوروبا ٢ دولار / كويت ١ دينار ، أمريكا
٢ دولار .

د. فخرى الدببغ

السلوك الإنساني

الحقيقة و الخيال !

- كتاب العربي
- سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي

الكتاب الثاني عشر
١٥ يوليو ١٩٨٦م

تقديم

بقلم : الدكتور محمد الرميحي

أعرف نفسك

لعل الحكمة القديمة الخاتمة على معرفة النفس كمدخل أساسي لمعرفة أحوال الإنسان وبيئته الاجتماعية ما تزال لها مصداقيتها المؤثرة .

فلا أعرف علما من العلوم ، يختلف فيه الناس ، وتزداد نسبة الخطأ في فهمهم له وتباين موضوعاته لديهم كموضوعات علم النفس ، زد على ذلك تنوعه وتشعبه في موضوعات متعددة .

لقد اختلط الفهم على الناس في موضوعات هذا العلم بين أمراض نفسية وأمراض عقلية ، وبين علم نفس اجتماعي وعلم نفس (اكلينكي) وتربوي وحسبي وصناعي . . الخ . بل اختلط كل ذلك بدراسة سمات الشخصية من ذكاء وإبداع وعبقرية وما ناقض ذلك من صفات .

رغم هذا الاختلاط على جمهور المثقفين ، فلا زالت موضوعات علم النفس المختلفة ومثل زمن طويل تجذب القاريء لارتباطها بنفسه وبيئته الاجتماعية .

ومن دراسة تاريخ هذا العلم وبذوره الأولية
نكتشف كم نحن محظوظون في هذا العصر لاقتراينا من فهم
ذواتنا بشكل أفضل مما فهم به أجدادنا الأولون ذواتهم .
فقد عولجت الأمراض النفسية في عصور التخلف
بطريقة تتفق والأسباب التي اعتقد بأنها تولد المرض ، فتم
استخدام مجموعة من الأساليب التي تبدو غريبة وعجيبة
علينا الآن مثل القيام ببعض الصلوات وصب المياه المقدسة
واستعمال بصاق الكهنة أو فضلاتهم لعلاج أولئك المساكين
الذين أصيبوا بنوع أو آخر من الأمراض النفسية! وعندما
ارتقى أسلوب العلاج عن ذلك ، ظن في تلك العصور
المتقدمة أن (الشيطان) هو الذي يسكن أجسام هؤلاء
المرضى فاستخدمت أقذع العبارات في الشتم بقصد
الإساءة إلى (كبرياء) الشيطان كي يترك جسم المريض
وينأى عنه ، وتطور الأمر بهذا الاتجاه إلى أن يعاقب
الشيطان المستوطن لجسم المريض بالضرب - ضرب
المريض - أو غمره في الماء البارد أو المغلي . . الخ . لقد
اتخذت كل هذه الخطوات حتى يتحول جسم المريض
« منزلا مزعجا » لذلك الشيطان فيتركه ويهرب !
ولعل بقايا هذا النوع من الاعتقادات ما تزال سارية
بأشكال مختلفة لدى بعض الفئات في مجتمعاتنا القريية إلى
الجهل .

هذه الأفكار غير العلمية المرتبطة بالفهم الخاطئ
لعلم النفس وتضرعاته ، هي التي مازالت تشير المخاوف
الباطنية عند بعض الأفراد في مواجهة كل أشكال
الاضطرابات النفسية . ومازالت أسر كثيرة تخفي أبناءها أو

بنسبتها العائلي الحظ الذين أصيبوا بنوع أو آخر من
الاضطرابات النفسية وكأن إصابتهم عار اجتماعي ،
فتوصد عليهم الأبواب لتحجبتهم عن الزائرين والغرباء .
وفي بعض تراثنا العربي الاسلامي معالجات نفسية لا
تخلو من طرافة ، كما نقل عن ابن سينا عندما مرض واحد
من أبناء الأمراء ، فنودي على ابن سينا لعلاجيه ، ودخل
الطبيب على المريض وبعد فحصه لم يجد في ظاهر جسمه
علة ، فأمسك نبضه وراح يردد على مسامعه أسماء الأحياء
في المدينة ، وعندما وصل الى اسم حي معين ، فان نبض
المريض ازدادت ضرباته ونبضاته ، وأعاد ابن سينا ترديد
أسماء بيوت الحي على المريض ، الى أن زاد نبضه عند ذكر
اسم بيت أسرة بعينها ، عندها أخذ الطبيب الحاذق يردد
أسماء من يسكنون ذلك البيت حتى وصل الى اسم معين من
فتيات الأسرة . . . عندها أخذ نبض المريض يذق بسرعة
وبزيادة ملحوظة ، صاح الطبيب عندها : زوجوا ابنكم
الشاب من تلك الفتاة فهي علاجه !

على بساطة هذه القصة وعوامل الشك العلمي فيها
الا أنها تقودنا الى حقيقة مفادها أن الأقدمين قد عرفوا -
بشيء من الدقة - أن ما يبدو على أنه أعراض لمرض عضوي
ليس بالضرورة أن تكون أسبابها أيضا عضوية ، الا أن هذه
الحقيقة اذا واكبها نقص في المعرفة العلمية وضعف في
الاطلاع والفهم ، فقد تقود الانسان الى الوقوع في شرك
الشعوذة والدجل ومن ثم ينحرف العلاج عن جادة
الصواب .

لقد أصبح فهم علم النفس ودراسته برؤية صحيحة
أمرا مجديا ليس للأفراد في علاقاتهم الأسرية فقط ، ولكن
أيضا للعاملين الاجتماعيين في قطاعات كثيرة في المجتمع ،
كالمشرفين في السجون والمدارس والمستشفيات الى جانب
القائمين على مؤسسات الصحة النفسية وكذلك الآباء
والأمهات .

وكلما تعقد المجتمع كلما اشتدت حاجتنا الى فهم أنفسنا
فهما صحيحا على شكل أوسع وأعمق . فالمجتمعات
الحديثة متقدمة كانت أو نامية تزخر بالأسباب والدوافع
العديدة للاضطراب النفسي ، مثل الضغوط الاجتماعية
والمعيشية وتغير القيم السريع وتنساقضها والتمسزق
والضياع ، كل ذلك يدفع الكثيرين الى الاستجابة لهذه
العوامل استجابة غير طبيعية ، فيتردون في هوة المرض
النفسي .

وحتى منجزات الحضارة الحديثة من التطور العلمي
والتقني والاختراعات الجديدة تترك آلافا من البشر نهبا
للبطالة ، كما أن المشاكل الاجتماعية والشخصية والسياسية
تخلق من الآلام والأزمات ما يجعل الناس تبحث عن منافذ
للخروج منها ، وقد يجدون الأبواب موصدة فيقعون في
أوهام الإدمان والمخدرات وتجرفهم مخاطرهما حتى يصل
الأمر إلى أن تتحطم الأسر ، كما أن معاناة الناشئة من مشاعر
الضياع والحرمان ورفضهم لواقعهم المجهف يقودهم إلى
دهاليز الأمراض النفسية المختلفة .

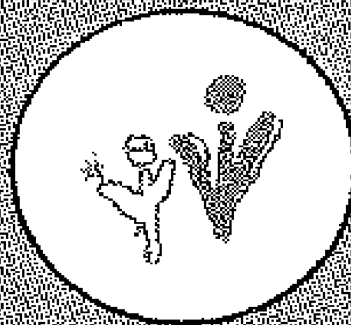
هذه الاستجابات الشاذة غير السوية أصبحت تعيش معنا كل يوم ، فلا يقرأ أحد منا جريدته اليومية أو مجلته الأسبوعية حتى يطالعها من بين سطورها خبر عن حالة قتل قد تكون لاقرب الاقربين للقاتل أو انتحار أو شذوذ جنسي أو تعاطي مخدرات أو بيعها . . . الخ . وهذه الحوادث الشاذة لا تقل أو تضعف بل إنها تستفحل وتزداد .

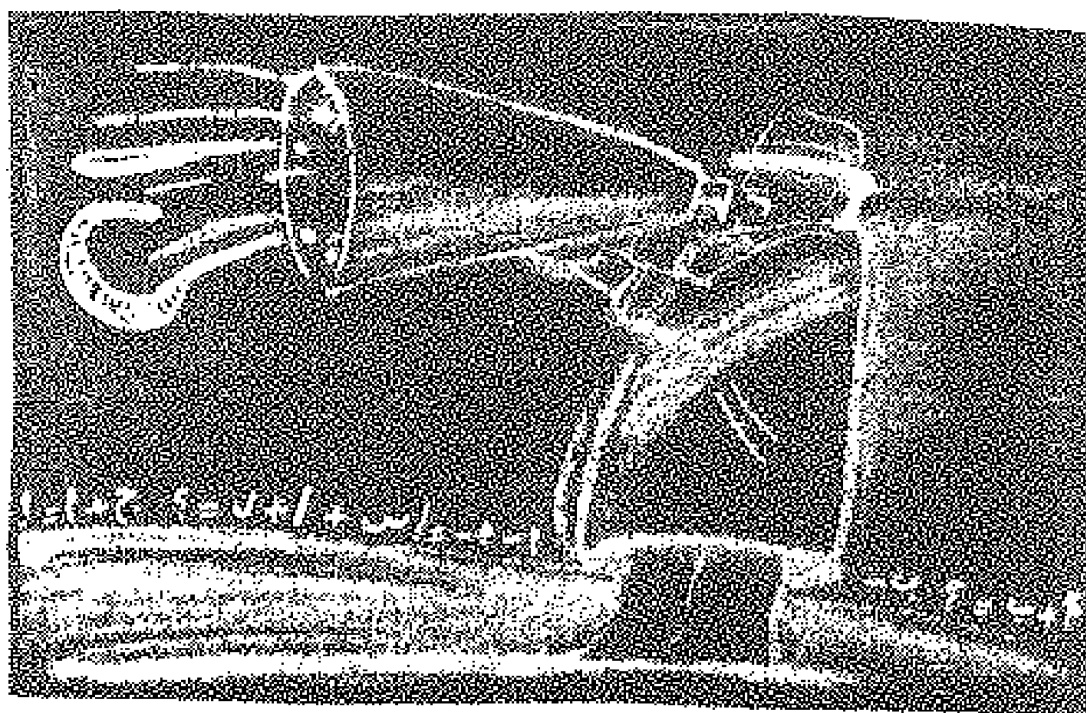
هذا القلق الاجتماعي الذي يمنع الأفراد من التكيف السليم مع بيئتهم ويبعدهم عن التفكير السليم في حل مشكلاتهم مما يسورطهم في ممارسة حلول خاطئة تؤدي بدورها الى مشكلات جديدة حتى تمتد سلسلة هذه المشكلات الاجتماعية المتراكمة المتشابكة لتوقع ضحيتها أو ضحاياها آخر الأمر في حياثل المرض النفسي المدمر . لذلك فإن الحياة الحديثة بكل ما تفرضه علينا من ضغوط وأعباء تسلمنا بطريقة أو بأخرى الى نوع من أنواع التكيف غير السوي ، ولكي نكتشف أسباب ذلك فإن علينا أن نكتشف أنفسنا أولاً ، وهذا ما حاوله الكاتب في هذا الكتاب الذي نقدمه الى القاريء كي نضعه في دائرة مضيئة يتحسس فيها نطاق نفسه وأغوارها ، وما يموج بها من مشاعر ونوازع ، وما يمكن أن يقدم لها من دواعي الاستقرار والأمن ، حتى يكون على بيئة من النفس الانسانية بعامة ، ونفسه التي بين جنبيه بخاصة .

محمد الرميحي

• الفصل الأول •

بَيْنَ الدِّمَى وَالْقُلُوبِ :

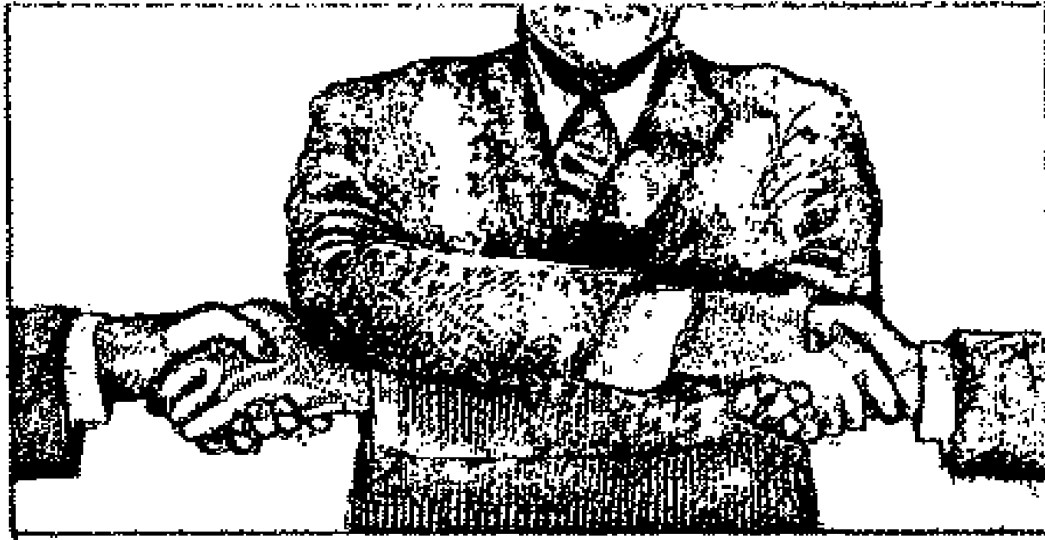




التمسك بالمسلم و الله أم سمة يقيمة ؟

رأى أعرابي ثعلبا يسول على رأس صنم كان يصحبه في أسفاره لغرض التمسك ، فما كان منه إلا أن قذف به بعيدا وهو يقول :
أرب يسول الشعلسان بسرأسه
لقد ذل من بالث عليه الشعالب
وهي حكاية تحمل أكثر من مغزى . . أهمها ان عقل الاعرابي على جهالة ووثنيته أدرك أن قطعة الخبث الآلهة حقيرة وضعيفة لأن حيوانا برياً استطاع أن يعلو عليها ويستهن بها كأهون ما تكون ، وهذا دليل على وجود ما يدعي بالحس العام لدى ذلك الاعرابي .
والحس العام اصطلاح غربي معاصر عرفه الجميع منذ غابر الأزمان بكلمات واصطلاحات أخرى مشابهة ومقاربة تدل على : استخدام العقل والفطنة في حل المشاكل وتسيير أمور الحياة ، والحس العام يعني أيضا : « الحكمة في إدارة الأمور » وبمعنى كذلك : « استخدام الفكر والخبرة لفك العقد والمعضلات الآنية . . » ويعني أيضا : « كيفية الربط وإيجاد الملاقات المختلفة لتجاوز الأزمات والمشاكل » ، وقد تعني أيضا : « الأسلوب المنطقي المعقول في استجابة الإنسان لحراقر الحياة ومؤثراتها » .

- العربي - العدد ٢٤٤ مارس - آذار ١٩٧٩ م



الحس العام . . غير عام :

وقد يبدو لأول وهلة أن من المفروض أو البدهة أن يمتلك كل انسان حسا عاما يلجأ اليه ويستعمله في تسيير أموره أو الابحار بسفينة ذاته واتباعه في المحيط والمجتمع . . لكن الوقائع والتجارب تؤكد للمتبع أنه لو لجأ الناس الى حسهم العام فعلا واستعانوا به ، لحبطت حدة المشاكل والاحتكاكات والمصادمات الى مستوى يثلج الصدور . . مما يدل على أن الحس العام قليل الاستعمال . ولا نجازف بالقول إنه نادر الوجود أو هو موجود فعلا مع ندرة اللجوء اليه . وفي هذا قال أحد الحكماء الساعرين : ان الحس العام ، غير عام ، ونادر الوجود .

وشاهدنا على صحة هذا الحكم ما نلمسه من مصاعب تنجم من جراء انتفاء الحس العام : كمجرد الروتين وتزمته . . والتمسك بحرفيات القوانين والتعليمات . فالاداري الممتاز والقاضي الناجع هو الذي يمتلك من المرونة وسعة العقل ورحابة الصدر ما يكفي لتكوين حس عام يطبق القوانين والأنظمة والتعليمات لا بحرفياتها بل بمدلولاتها . . لا بتصوصها بل بروحيتها دون المساس بها وبقوتها وحرمتها وتأثيرها .

الحس العام . . والذكاء :

والحس العام لا يعتمد على الذكاء الصرف ، أو بالأحرى إن وجود الذكاء ليس شرطاً أساسياً لوجود الحس العام ، لأن الذكاء أحياناً يقتصر إلى الحكمة ، والفرق بينهما شاسع .

والذكاء أنواع : ذكاء عام وذكاء خاص والذكاء العام هو المجموع والمحصلة للقابليات العقلية الفطرية للإنسان (عملية ولغوية . .) أما الذكاء الخاص فيدخل معه الذكاء العام ويزيد عليه بميزة أخرى هي الاختصاص والامتياز فيه ، مثل وجود قابلية خاصة في فن الموسيقى . . أو الغناء أو الرياضيات . أو الكلام أو المهارة اليدوية الميكانيكية . . أو الذاكرة أو الحفظ . الخ .

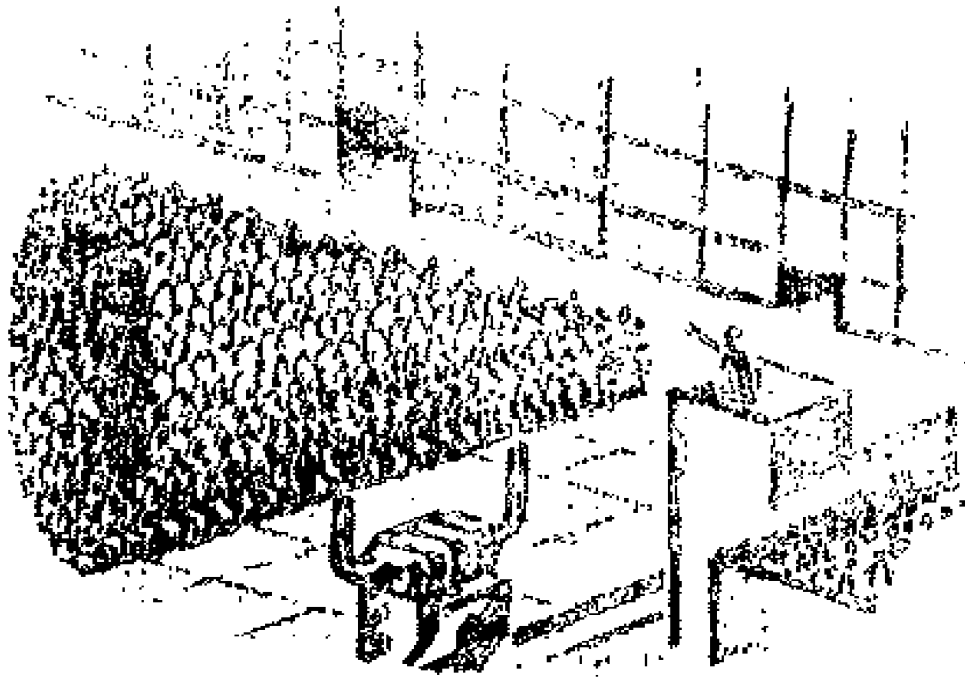
وما نود التأكيد عليه أننا قد نجد شخصاً ذكياً جداً أو عبقرياً في الفيزياء وذا منكة عقلية وذكاء عام فوق المتوسط ، ومع ذلك لمائه قد لا ينجح في حياته الأسرية أو في حل مشاكله الآتية أو أموره الاجتماعية ، أي تميزه تلك الحكمة والخبرة الخبوية العملية . فالحس العام إذن ليس ذكاء صرفاً بل قابلية على ربط الأشياء برباط جديلي واستنباط الحلول المناسبة والانبوية الشافية لها . .

وليس ثقافة :

كذلك فإن الحس العام لا يعتمد على التعلم في المدرسة والجامعة لأن حكماء البشر المشهورين كانت مدرستهم هي الحياة . . وكانت كتبهم وأقلامهم هي دقة ملاحظاتهم ورهافة أحاسيسهم .

« والعارفة » بين عشائر البدو العربية هم غير مثال على عقلاء الناس الذين يمتلكون ذلك الحس العام الذي يلهمه الآخرون فيستعينون بهم لحل نزاعاتهم ومشاكلهم ، وحكماء العرب في التاريخ هم الذين امتلكوا قدراً كبيراً من الحس العام جعلهم دائمي النصيحة وخالدين في تاريخ أمتهم مثل أكنم بن صيفي .

إذن ، فالحس العام قد يستند إلى المعرفة والثقافة ولكنه ليس المعرفة والثقافة حصراً ، وليس شهادة البكالوريوس أو الماجستير أو الدكتوراه ، لأنها شهادات في حقل معين من علوم الحياة وليست شهادات خبرة في الحياة أو فطنة في مجابهة الصعاب .



الحمق :

وإذا كان الشيء لا يعرف إلا بضده ، فإن الحمق هو أقرب الاضداد للحمس العام وأيسرها فالحمق علة طبيعية ، والأخرق متدفع وعنيد وسطحي ومكابر ، وكلها صفات تتناق مع الحمس العام .
يقول الشاعر :

لكل داء دواء يُستسطب به

أما المرض العقلي الذي هو أشد درجات الحمق الاعتيادي فهو السايكويائية (السلوك اللااجتماعي) وهو من الأمراض العقلية المهمة التي تعتبر الى الآن من معضلات الطب النفسي والطب الشرعي ، ومن آفات المجتمع الخطيرة . وهو مرض يصيب نسبة معينة من الناس لا يعرف له سبب معين ثابت الى الآن ، ولم يستقر تصنيفه في أحد من الأبواب وفصول الأمراض النفسية . وله خصائص كثيرة معروفة لدى علماء النفس أهمها :

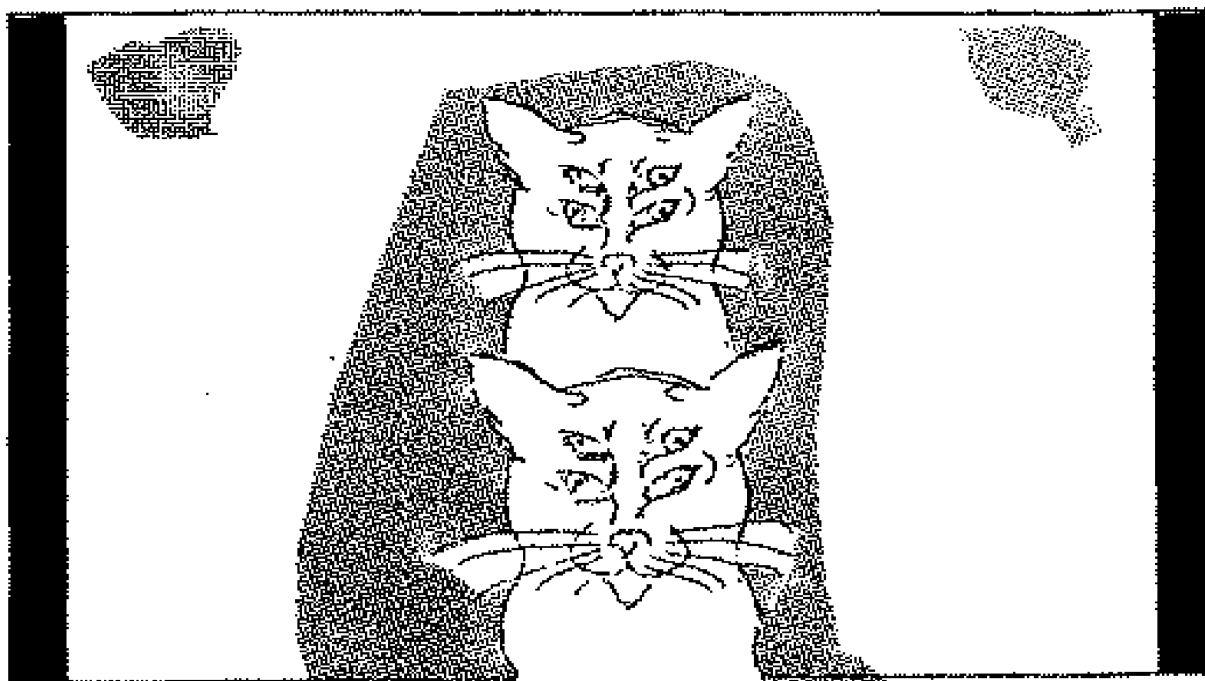
- انهم يتمتعون بذكاء طبيعي أو فوق المتوسط .
- انهم يقتلدون الحكمة والتجربة .
- انهم لا يتعلمون من تجاربهم السابقة فيظلوا على ما هم عليه .
- لا يروعههم العقاب ، ولا تشجعهم المكافأة والمديح ، فهم جامدون على وضعهم دون تحسن ، بل ربما يتراجعون الى تأخر وتدهور .
وهذه الصفات تتلخص بفقدان الحس العام . والسايكوباتية مرض بالطبع ولكنه يصور لنا أشد حالات انعدام الحس العام ، وهو سبب انحراف المصابين بالمرض نحو الشذوذ الجنسي والتشرد والاجرام وكذلك الاذعان على المخدرات . فكل سايكوبات هو أحق أخرق . . ولكن ليس كل أحق سايكوبات . والحمقى كثيرون والسايكوبات أقلية .

هل يمكن رعايته ؟

يتبين ربما تقدم أن الحس العام هو دون جدال موهبة عقلية تستند الى استعداد وقابلية فطرية مضافا اليها ذكاء مناسب وخبرة كافية وثقافة شافية تمتزج جميعها بمقايير ونسب ومعادلات متناسقة ومتوازنة لتجمل المرء انسانا يخوض غمار الحياة ، ومازقها بذهن جامع . . لامع . . قدير .
ولكن ، هل يمكن للتربية وعلم النفس والاجتماع أن تؤثر في هذه العوامل وتتدخل لتنمية الحس العام النادر وتعميمه ؟ . سؤال وجيه يطرحه المربون والمصلحون .

وللاجابة عنه نقول : نعم ، يمكن ذلك باتباع أساليب التوعية المستمرة للنشء والجيل الجديد . . والحث على مكارم الاخلاق وضرب الأمثال للناس وطلبة المدارس والجامعات . . والاستعانة بالتاريخ والتراث . . بالماضي والحاضر لادخال المثل والنماذج السليمة في السلوك وممارسة الرياضة العقلية في التعليم الثانوي والجامعي ، وهو التعليم الذي لا يعتمد على الاملاء والنسخ ، بل على البحث والتقصي والمناقشة والتحليل ، لأن المناقشة والحوار والتحليل تجلو الصدا عن العقول وتكسر القيود والسود . . وتتيح للانسان الكشف عن العلاقات المنطقية بين الأشياء والمفاهيم . . وربط النتائج بالأسباب . . والظواهر بالبوطن . . والنظرة الشمولية الى الامور .

وبذلك يصبح الحس العام ملكة عقلية ليست صعبة المنال بل أشبه بعادة
اجتماعية سائدة ، وأسلوباً في التعامل مع الحياة . . من أجل حياة أهدأ وأجمل
وأعقل .



زرقاء اليمامة وظاهرة الإعساس الخارق!



اشتهرت « زرقاء اليمامة » من عشيرة جديس في الجاهلية بحدة بصرها وقيل انها كانت تستطيع الرؤية بوضوح على بعد مسيرة ثلاثة ايام . وقيل انها رأت مرة علامم هزرو متجهة نحو قبيلتها . . . فلما حذرهم سخرها منها ولم يصدقوها - ولم يكونوا على علم او يقين بمقدرتها . . . ثم وقعت الواقعة وجاءهم الغزو . . . ولات ساعة مندم . . . »

هذه الحكاية يسميها أو يقرأها انسان القرن العشرين فيتسم اذا شعر بمبالغتها ، أو يميلها اذا اعتبرها اسطورة خرافية ، الا انها في نظر علم نفس الخوارق تعتبر واقعة محتملة ودليلا ايجابيا لما يتضمنه من مجالات البحث ، فما هو علم نفس الخوارق ؟ . . . متى بدأ . . . ؟ وأين موقعه من العلوم الانسانية والسلوكية الاخرى ؟ . . .

- العربي - العدد ٢٠٨ مارس - آذار ١٩٧٦ م

علم نفس الخوارق :

ولحكاية زرقاء اليمامة مئات الوقائع المشابهة حدثت على مر القرون ، فقد وجد أناس يستطيعون قراءة افكار غيرهم او رؤية المحتويات وأنواع المواد أو الحوادث الجارية والموجودة على بعد كبير منهم . . او التنبؤ بحوادث لم تقع بعد . . وهكذا ، وقد جاء ذكر مثل هذه القابليات في كتابات الفيلسوف (ديموقريطس) منذ عهد الحضارة الاغريقية .

وروى احد رؤساء الجامعات المعروفين في أمريكا في هذا القرن قصة حقيقية وهي انه كان عليه اداء مهمة صعبة وعسيرة وهي الذهاب الى دارزوجين من اصدقائه الاعزاء ليخبرهما بأن ابنيهما قد توفي فجأة في الصين ، فلما سمع الزوج النبأ الفاجع التفث الى زوجته بهدوء وهو يقول : « كنت على حق يا زوجتى . . . » وتبين ان الزوجة كانت قد اخبرت زوجها قبل أيام بأنها متأكدة ان ابنيها قد توفي .

وسادت في ريف انكلترا وايرلندا لفترة من الزمن قضية علاج بعض الماشية المصابة باورام جلدية تدعى (الثؤلؤل) من قبل اشخاص معينين يعالجونها دون عقاقير أو لمس بل بالارادة والمزائم .

هذه الامثلة ، وغيرها كثير ، لم نثر على بعض الباحثين مرورا عابرا بل دفعتهم الى دراستها وتحصيلها وتحليلها بالطرق العلمية وينظم المنهج العلمي الحديث وأصوله ، ولما كانت تلك الدراسات تتعلق بالسلوك البشرى وبالعقل والنفس (والروح) فانها اصبحت اقرب المواضيع الى علم النفس بل محاذية له مع بعض الاختلاف ، لذلك اطلق عليها اصطلاح ، « علم نفس الخوارق » وهو ذلك النوع من المعرفة الذى يبحث في الظواهر الحسية الغريبة . واداة التصدير في أول الكلمة Para تعني باليونانية « محاذى » « أو مجاور » « او جنيب » فعلم النفس الجنيب يعنى العلم الذى يدرس الظواهر السلوكية التي تقع خارج نطاق علم النفس الاعتيادى او التي تتميز عن الظواهر الاعتيادية وتشذ عنها ، وهكذا اخترنا اصطلاح علم نفس الخوارق للدلالة عليها .

والظواهر الحسية الخارقة التي هي موضوع علم النفس هذا سميت كذلك بالقابليات الحسية الخارقة للمألوف .



شيء من التاريخ

قلنا ان الحكايات والوقائع المتفرقة التي كانت تثير الدهشة والاستغراب وربما الوجع والحيرة ظلت مستمرة منذ عشرات القرون ، وكانت جزءا من حكايات الاساطير والحرفافات أو من الأدب الديني أو من معجزات الاولياء والقديسين ولم يتمكن احد من تفسيرها . . . بل كان الاهون على بعض العلماء مهاجمتها أو الطعن فيها دون دليل . . .

الا ان بعض علماء النفس والفلاسفة نظروا الى تلك الحوادث بجد واهتمام اذ رأوا في بعضها حقائق دامغة لا يمكن تجاهلها فآثروا سلوك الدرب الوعر وبدأوا يدرسون بصمت ظواهر الاحساس الخارق منذ اواخر القرن التاسع عشر . وشرح البروفسور (وليم باريت) استاذ الفيزياء في كلية العلوم الملكية في دبلن عام ١٨٧٦م يعلن عن تجاربه حول قضايا تواصل الافكار وقراءتها ثم تأسست في لندن عام ١٨٨٢ جمعية ابحاث خوارق الاحساس وقد استخدم اصطلاح **Psychic** للدلالة على الظواهر غير المادية (او الروحية) تمييزا لها عن الظواهر النفسية وقد لاقى (باريت) وغيره من الداعين المتحمسين لتلك الدراسات كثيرا من الهجوم والنقد من قبل زملائهم الآخرين ، لكن الابحاث استمرت على نطاق شخصي وعلى مستوى الجمعيات الخاصة والاهلية ، الا انه في عام ١٩٣٠م دخلت جامعة (ديوك) في ولاية (كارولينا الشمالية) الامريكية عنامة علمية جريئة عندما فتحت شعبة لعلم نفس الخوارق برئاسة الاستاذ الدكتور (راين) الذي بدأ بنشر ابحاثه العلمية تباعا منذ عام ١٩٣٤ ، وصدرت بعد ذلك مجلات علمية حول الموضوع وامتدت الشعب والاقسام الى جامعات كبرى كجامعة كولورادو ونيويورك وهارفرد ولندن وكمبردج واكسفورد ، وفي نيوزلندة والسويد وهولندة وفرنسا ويوغسلافيا واليونان ، ومن العلماء الذين اشتهروا في هذا المجال : راين ، ويست ، مورفي ، ثاوليس ميريل ، وكثيرون غيرهم .

وكان انتقال موضوع خوارق الاحساس الى الجامعات العلمية وتحت اشراف اساتذة امناء طفرة كبيرة في ازالة الالتباس والشك الذي يساور كل مثقف متفحص وكانت الخطوة التالية هي الاقدام دون تردد على منح الشهادات

العلمية من ماجستير ودكتوراه في هذا الموضوع من قبل جامعات امريكا
واكسفورد ولندن وكمبرج .

ما هي خوارق الاحساس ؟

تري ماذا نقصد بخوارق الاحساس ؟ ان العلم الحديث توصل الى
الكشف عن الاصناف التالية :

١ - التخاطر ، او تواصل الافكار وهي ان يتمكن شخص وهو في مكانه
من معرفة ما يحول بأفكار شخص آخر لا يراه ولا يمتلك واسطة للاتصال به وعلى
بعد امتار أو اميال منه .

٢ - التجسبي ، أو الاستبصار وهي القدرة على رؤية الاشياء والناس
والحوادث خارج نطاق البصر ، اي ما وراء الحواجز والجدران أو على بعد مئات
الاميال وربما على بعد نصف الكرة الارضية ، وهنا تغلب قصة زرقاء اليمامة
شيتا محتملا جدا أو منطقيا لانها ربما كانت ترى الاشياء بقوة الاستبصار وليس
من خلال العين واعصاب الشبكية وبالأضواء والسظلال التي ينقلها الجهاز
العصبي ، بل بعض القوى الحسية الاخرى ، ومثال آخر على ذلك :

كانت طفلة عمرها عشر سنوات تقلب اوراق كتابها المدرسي في الهندسة
وهي تسير في حقل القرية عندما شعرت بأن الدنيا غامت حولها ، ثم رأت
بوضوح ان امها ممدودة شبه ميتة في غرفة مهجورة في دارهم وبجانبها على
الارض منديل صغير مطرز الحافة ، واسرعت الطفلة رأسا الى طبيب القرية قبل
التأكد من صحة الرؤية ، واقتعت الطبيب بالقدموم معها الى الدار ، وعند باب
الدار رآها والدها فاندعش وتساءل : ترى من يكون المريض ؟ لكن الطفلة
هرولت الى الغرفة المنزلة وهناك رأى الجميع ان امها مغمى عليها فعلا
وبجانبها المنديل ، وأكد الطبيب انها مصابة بنوبة قلبية ولو تأخر في اسعافها تلك
الساعة لماتت .

وروى الفيلسوف (كنت) ان صديقه سويد نيرج) كان في مدينة
(جوتنبرج) عام ١٧٥٩م وشعر انه يرى حريقا قد حدث في مدينة
(استوكهولم) في السويد على بعد ٣٠٠ ميل منه ووصف الحريق للسلطات

وسمى لهم اسم صاحب الدار التي احترقت حتى اطفئت النار ، وبعد ايام وصل البريد الملكي واكد حقيقة الحادث بالضبط .

٣ - التنبؤ أو الادراك المسبق وهي قابلية الفرد على استباق الحوادث وتوقع ما سيحدث قبل وقوعه بساعات او ايام أو أشهر ، واكثر ما يتضح ذلك في الاحلام ، ولا يزال الاعتقاد سائدا بين العامة ان الاحلام تتضمن خاصية الاخبار والتنبؤ بالمستقبل على الرغم من ان علم النفس الحديث وخاصة نظرية فرويد ، لا تعتبر الاحلام الا مجرد افكار وخواطر ورغبات مكبوتة تظهر اثناء النوم بصورة محوكة ورمزية للتعبير عن اشياء لا تتاح لها فرص التعبير في الواقع .

والامثلة على التنبؤ كثيرة تذكر منها الواقعة التي سجلها العالم اليوناني الدكتور (تانا جراس) وهي : ان طفلا رأى شبحا ابيض كلمه وحذره انه سيموت بعاقبة صدم بسيارة . فهرول الطفل خائفا ليعيش بين الجدران في دار جدته ، وفي يوم من الايام خرج ببساطة ليلعب في الطريق عندما اقتربت منه سيارة ، فسارع الطفل الى الرصيف والتصق بالسياط بمتهى الحذر ، لكن السيارة صعدت الرصيف وانجرفت نحوه لتسحقه على الحائط .

٤ - تحريك الجماد وهي القدرة على تحويل المواد الجامدة وتحريكها وإضافها دون وساطة او طاقة او جهد وعلى بعد مستبتمرات او مئات الكيلومترات ، ولدى البعض القدرة على التأثير ليس فقط في المواد الجامدة بل في الحيوانات وحتى في الناس الآخرين .

وكانت التجارب العلمية على امثال هؤلاء الموهوبين تدور مثلا حول اوضاع النرد وأرقامه وكيفية التحكم في تسلسل اوراق اللعب (الكوتشينة) قبل أن يخلطها ويفرزها الفاحص او الآلة الكهربائية التي تدور آليا دون تدخل الفاحص في العملية .



خوارق الاحساس والعلم الحديث :

قلنا كيف ان علم نفس الخوارق انتقل الى المختبرات وخضع للاسلوب والمنهج العلمي ، وكان المنطق والتفكير المعابد يشير الى امكانية وجود هذه القابليات ، والمعروف في علم وظائف الاعضاء (الفسلجة) ، ان الانسان يشعر بواسطة حواسه المعروفة من سمع وبصر وذوق وشم ولمس الا ان العمليات الحسية ليست بالبساطة التي نكتبها هنا أو نشعر بها .

وقد يكون من الغريب ان تسأل اى انسان لماذا يرى القطن ابيض اللون ، فعنده ان ذلك امر طبيعي ومفروغ منه ، ولكن السؤال يصبح معقولا اكثر لو سألناه لماذا تراهى له القطن الابيض اصفر اللون ؟ والمسألة لدى علماء النفس ووظائف الاعضاء سواء لان رؤية الاشياء الطبيعية والاحاسيس المتفرقة بانواعها تتم خلال عملية عقلية معقدة .

والسؤال الفلسفي الاعمق : هل يحس الانسان ويدرك كل ما يحيطه من اشياء ، ذلك امر مشكوك فيه ، فنحن ندرك ما تنقله الينا حواسنا ، وهي عاجزة عن نقل كل شيء ، لقد ادرك ذلك الفيلسوف (كنت) قبل عصر التكنولوجيا وقال ان الحقيقة شيء وما نشعر به شيء آخر

والعلم الحديث يؤيد ذلك فالناس ليسوا سواء في ادراك الشيء الواحد . . . كما ان لاجهزة الحواس مستويات عليا ودنيا ، أو حدودا لا يتجاوزها الفرد الطبيعي ، فالاذن البشرية الاعتيادية تستطيع ان تسمع الاصوات اذا كانت ذبذبة الصوت لا تقل عن ستة عشر (١٦) ألفا ولا تزيد عن عشرين ألف ذبذبة في الثانية ، بمعنى أن الصوت الذي نقل أو تزيد ذبذبه عن هذين الحدين لا نسمعه الاذن البشرية ولو كان موجودا بقربها فهو فوق حدود السمع ، وهكذا هي الحواس الاخرى للانسان لها حدودها الطبيعية ،

من كل ما تقدم نريد أن نقول ان حدود الاحساس لدى البشر لها معدل طبيعي ، ومن المحتمل جدا ان يمتلك بعض الناس قابليات حسية تتجاوز الحدود الطبيعية وهي التي تبدو لنا من جملة خوارق الاحساس المذكورة آنفا هذا اذا لم يمتلكوا ايضا وسائل عقلية اخرى لا نعرف ما هيتها ولا ندركها تماما .

خوارق الاحاسيس . . هل هي شاذة ؟

الملاحظ في الاشخاص ذوى الاحاسيس الخارقة انها صفات ولادية وطبيعية يمتلكها عقل الموهوب وجهازه العصبي ، او بالاحرى هي جزء من شخصيته دون تمرين او تعلم ، فهي يرثه نستطيع وصفها باللاشعورية أو غير المتمممة ، وهي موجودة لدى بعض الناس دون الآخرين ، ولو ان العلم الحديث لم يحدد نسبة الموهوبين بين عامة الناس ، ولكن الموهوب بالاحاسيس الخارقة لا يختلف عن غيره من الناس في المواطن والعباع ، والذكاء والمقاييس البدنية .

خوارق الاحساس اذن غير شاذة وغير مرضية ، بل هي تجانب الطبيعة المألوفة ولكنها لا تدخل ضمن العادى والمألوف ، كما انها لا تأتي بالتمرين مثل رياضة اليوجا ، والعكس هو الصحيح ، اذ وجد الباحثون ان الموهوب الذى يتعرض الى الفحص ويحاول التمرين عليه تسوء كفايته وتكرر مرات فشله ، أما في رياضة اليوجا فان القوى الحسية الخارقة التي يتوصل اليها (اليوجى) تأتي بالتمرين الشاق والتركيز المستمر وتقوية الشمور والارادة ، فالفرق واضح بين الاثنين . ولكن اليوجا تعتبر دليلا غير مباشر يعزز ويدعم علم نفس الخوارق ، اذ يوضح كيف ان العقل البشرى يمكن ان يتطور الى مراتب عليا ويمتلك قابليات حسية خارقة بالجهد والارادة .

كما ان العقل البشرى دخل في مغامرات حسية طريفة عن طريق علم الادوية (الأقرباذين) ، لان بعض العقاقير لها مفعول التمديد وتعميق المشاعر والاحساس ، حتى أن المفكر الشهير (الدوس هكسلي) جرب بنفسه بعضها ودون احاسيسه الغريبة التي تخطت الزمان والمكان ، وقد سجلها في كتابه الشهير (ابواب الاحساس) .

وقال في تعليق له على علم نفس الخوارق : ان الانسان يدخل به علما جديدا مثيرا . . .

من الطريف ان نذكر ان اول تجربة علمية على خوارق الاحساس جريت قبل خمسة وعشرين قرنا ، وعلى وجه التحديد في القرن السادس قبل الميلاد

عندما كان الملك الاغريقي (كرويسس) يحاول اختبار الكهنة في معابد اليونان ليعرف ايهم الكاهن (العراف) الحق فكان يرسل مبعوثيه ليسألوه السؤال التالي : ماذا يعمل كرويسس ابن الاليتسي الان ؟ وفي ذلك اليوم المعين يكون الملك قد جلب شاة وسلحفاة وقطعها اربا اربا ثم يسلفها في قدر نحاسي . ويرجع المبعوثون ليخبروا الملك بما يقوله العراف . واكتشف الملك ان الجواب الصحيح جاء من كاهن واحد هو الذي في معبد (دلفي) الشهير في اليونان . وعلى الرغم من قدم ذلك الاختبار فانه كان مثالا للتجربة العملية التي يمكن ان تتم في مختبرات علم النفس ، ولم يمر بعد ذلك اية تجربة حقيقية حتى اواخر القرن التاسع عشر كما ذكرنا ، وفي هذه التجارب العلمية التي تتم الان توضع مختلف الضوابط على الشخص « الموهوب » تحت الفحص لمعرفة قابليته لقراءة الافكار أو رؤية ارقام واشكال وصور اوراق مختلفة ، وفي غرف وبتابات اخرى أو على امكان التحكم في تغييرات ترتيب تسلسل تلك الاوراق أو التردد . . . الخ وتنصف التجارب العلمية الحديثة لخوارق الاحساس بما يلي :

أ - الابتكار والخلق لحادثة مخططة صالحة للتجربة دون الاعتماد على الصدف .

ب - التسجيل الفوري والآلي لما يحدث خلال تلك الحادثة أو التجربة .

ج - احتساب مجالات « الصدفة » وتكرارها من الناحية الاحصائية كي لا تدخل ضمن الدلائل على نجاح التجربة الظاهري .

د - التأكد من شخصية المفحوص وبأنه غير محتال أو ميال الى اثبات قدرته حبا في التباهي والفرور .

هـ - التأكد من شخصية الفاحص ايضا وعدم تحيزه للتجربة الناجحة وذلك بعرض النتائج على فاحصين آخرين (شهود) اثناء التجربة .

بهذه الضوابط تمكن الباحثون من تمييز تلك الخواص عن بعضها وتمكنوا من الكشف عن المحتالين أو المهرجين أو الذين يستخدمون قناعاتهم وذكائهم لمعرفة النتائج بالاستنتاج والحدس . مثال ذلك ما جرى للاعب المسرح المدعو (ماريون) الذي تبرع ان يكون مادة اختبار لمعرفة محتويات رسائل مغلقة ومحتويات صناديق متعددة ، وتبين بعد ضبط التجارب ان ماريون كان ذكيا واستخدم حواسه بتركيز ولاحظ بدقة الوجوه وتقاطيع الحاضرين الذين كانوا

يعرفون محتويات الصندوق ، وقد فشل في التجربة عندما كان الشهود على جهل تام بالصندوق او عندما جلسوا وراء ستارة كثيفة لا يراهم من ورائها .

تفسير خوارق الاحساس :

بعد ما يقارب مائة العام من الدراسات والابحاث ، لا يزال من المصير وضع صيغة علمية او تفسير لهذه الظواهر يتلاءم مع منطق العلم المادى الحديث وهنالك مجموعة من النظريات والقرصنيات التي تقول احداها بوجود موجات غبية تختلف عن الموجات المعروفة التي يسجلها رصام المخ وانما اشبه بموجات الراديو ، وتقوم بعملية نقل الافكار (نظرية الاستاذ كروكس) . ونظرية اخرى تقول باحتمال انتقال جزيء الذرة الالكترونى من دماغ لآخر (نظرية الاستاذ السويسرى فورييل) . ونظرية اخرى تقول بوجود قوة روحية متفلة (نظرية الالماني اوستوالد) .

الا ان المتفق عليه ايضا انه ليس بمقدور علم الفيزياء وحده في المستقبل ان يقدم تفسيراً كاملاً لظواهر خوارق الاحساس كما يدعي علماء الفيزياء ، كما لا يمكن القول ايضا ان التجارب العلمية لعلم نفس الروحيات شدد الطريق امام الفيزياء في مجال التفسير المادى ، بل ان الافضل للاتنين ايجاد تفسير يجمع بينهما يوما ما ولا يناقضهما .

آفاق المستقبل :

عندما بدأ علم نفس الخوارق لم يفكر القائمون عليه بشيء الا معرفة الحقيقة ووضع حد للخرافة والالوهام وادخال الظواهر تلك في حساب البحث الجندى ، وكانت التجارب مشجعة على المضي في هذا المجال ، وأصبح أول طموح للباحثين هو أن يدخل علم نفس الخوارق على الأقل كفرع من فروع علم النفس « الرسمي » ، المعترف به ، ووضع حد للمدعيين يتهمون العلم والعلماء بأنهم لا يعترفون بشيء المادى . . .

وقد تم فعلا اعتبار علم نفس الخوارق جزءا من علم النفس ، ولكن في النصف الثاني من القرن العشرين ، وهكذا ظهرت الطبقات الجديدة لكتب علم النفس الحديث وهي تشير الى خوارق الاحساس باطمئنان ، وتدخلها من ضمن محتويات فصولها وان كانت لا تملك تفسيرها ، كما اصبح علم نفس الخوارق قسما خاصا من كيان الجامعات والكليات العلمية الشهيرة ، ولا تزال وسائل البحث في هذا المضمار محدودة على الرغم من توسع التكنولوجيا وطفراتها الحديثة ، حتى ان احد الباحثين في خوارق الاحساس قال بأسي :

لو توافرت لنا نصف امكانية تجارب الفيزيائيين وأدواتهم في مختبراتهم لتسكتنا من تقديم خدمات هائلة للجبل البشرى والمدنية

ويحق لنا أن نتساءل : ماذا يمكن ان يفيدنا هذا النوع من البحث والى اين سيقودنا وما هي تطبيقاته العملية ؟ . ونستطيع الاجابة اولا بأن التطبيقات العملية لا تزال معدومة ولكن الاعمال المتعلقة عليها كبيرة . والحادثة التالية توضح فائدة عملية جرت في حينها :

مات رجل ثرى في احدى مدن امريكا وترك وصية تجعل من احدى ابنتاه الاربعة الوريث الوحيد لثروته وبعد تنفيذ الوصية بأربع سنوات رأى احد الابناء الثلاثة حليا يقول له والده فيه إن وصية اخرى موجودة في دارهم القديمة ، فاذا ذهب هناك وجد (جاكته) القديمة معلقة وفي داخلها تحت بطانتها يجد ورقة تبين له مكان الوصية ، وقد عثر الابن على الورقة وكان فيها ان الثروة توزع على الابناء الاربعة بالتساوي ، وحكمت محكمة كارولينا الشمالية في مقاطعة (دافي) بتنفيذ الوصية بعد ان تأكد لديها بأنها صحيحة ومكتوبة بخط الميت .

ان مثل هذه الفوائد العملية محدودة بالطبع ، الا ان ما اثبتته علم نفس الخوارق من الحقائق التالية يمكن ان يفتح امام الانسان ابوابا اخرى من المعرفة :
- فقد اثبت ان بإمكان العقل الاتصال بعقل آخر دون واسطة مادية معروفة . . .

- وان بإمكان العقل الاتصال بموجودات أو مخلوقات أخرى يشعر بها دون واسطة

- وان بإمكان العقل تخلي المسافات الشاسعة . . .

- وان بإمكانه التأثير في حركة الجماد والحيوان دون اثر لواسطة مادية . .
- وان هنالك شيئا لا يدخل في صفات المادة ، قد يكون طاقة او روحا
ويدخل في تلك العمليات العقلية ..

- وان العقل (او الروح) والمادة يتفاضلان بعملية واحدة ذات
التجاهين او يسيران في طريق واحد ذي عمرين .

فما تقدم ، ترى ان علم نفس الخوارق يرسم خطوطا جديدة على اللوحة
الهائلة للكون وعلاقة الانسان وموقعه منه ، كما يضع في ذهن الانسان مسألة
تقول : ان الحقيقة لا تحددها القوانين الفيزيائية السائدة فحسب بل لا بد من
وجود قوى أخرى لا تخضع لقوانين المادة . . . بل لقوانينها هي .

اذن ، فمن الجهالة الجزم بأن كل ظاهرة خارقة او غير مألوفة تعتبر خرافة
وتدجيلا ، أو بالأحرى إن بعض المعجزات الدينية والتاريخية شيء يقبله العقل
والمنطق والعلم الحديث .

ان الانسان لا يزال عالما خربيا معقدا ، فهو والكون المحيط به مجموعة
اسرار عظيمة تستوجب التواضع البشري والحماس العلمي لكشف المجهول
والايمان بعظمة الخالق ، فعلم نفس الخوارق يحاول تفسير كيفية التوافق بين
العقل والبناء المفسوى للدماغ بأسلوب يختلف عن الاطار العلمي السائد
الآن ، وبذلك يمكنه ان يسلط اضواء جديدة على علاقة الفكر بالمادة .

الكون في ذاتنا وفي الفضاء حوالينا . . . وما علينا الا ان نتدبر ونستعد
لمزيد من البحث والتواضع والايمان . ولا شك ان علم نفس الخوارق هو الذي
يحمل راية « الروحانيات » وهو الذي سيكون اقرب العلوم الى الفكر الديني بل
انه فعلا يتلامح مع الدين ويسير معه جنبا الى جنب . . . والمستقبل وحده كفيل
بجلاء الحقائق ، وما علينا الا ان نردد مع (سوفوكليس) قوله :

كثيرة هي عجائب الدنيا

ولكن اعجبها هو الانسان

ومن البديهي ان نضيف . « ان عظمة الخالق تتجلى في مخلوقاته » . .

السلوك البشري بين اللذة والألم

« السلوك » تفكير أو عمل يقوم به المخلوق ويتجه به وجهة معينة قد توصله الى هدف أو تقر به منه .

وقد يكون السلوك مستجدا جديدا باعتباره حدث في تلك الفترة لاول مرة من قبل الشخص ، وقد يكون سلوكا مكرورا معادا بصورة تكاد تكون صورة طبق الاصل أو مقارنة لما سبقها . وفي جميع الاحوال . . . واذا كان سلوكا مستحدثا أو قديما فانه يستند الى « أوليات » أو « خَلَقِيَّات » ينشأ عنها ويرجع اليها ، وفي موضوع الخَلَقِيَّات هذه ومكونات السلوك وأهدافه ودواعي تكراره أو خوفه واختلافه تدور مختلف النظريات والفلسفات والابحاث منذ أقدم سراجل الفكر البشري حتى الآن ، بل لعل « السلوك » هو لب الفلسفات والمبادئ جميعا لانه موضع اهتمام الدراسات : الدينية والخلقية والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

ان تعدد المدارس النفسية وكثرتها في تفسير السلوك ومتشبه واتجاهه شيء طبيعي ، لان علم النفس هو في الحقيقة وبايجازه علم السلوك . ومع أن كثرة الدراسات والنظريات أصبحت مصدر حيرة وتردد للكثيرين نظرا لما تقدمه كل منها من حجج وبراهين مختلفة ومتضاربة ، الا أن ما يخيّل لنا أنها نظرية جديدة قد نجد لها بصيغة وشكل آخر في نظرية ظهرت قبلها بمئات السنين . . . ومنذ عهد أرسطو وأفلاطون وابن رشد والغزالي وابن خلدون .

محركات السلوك :

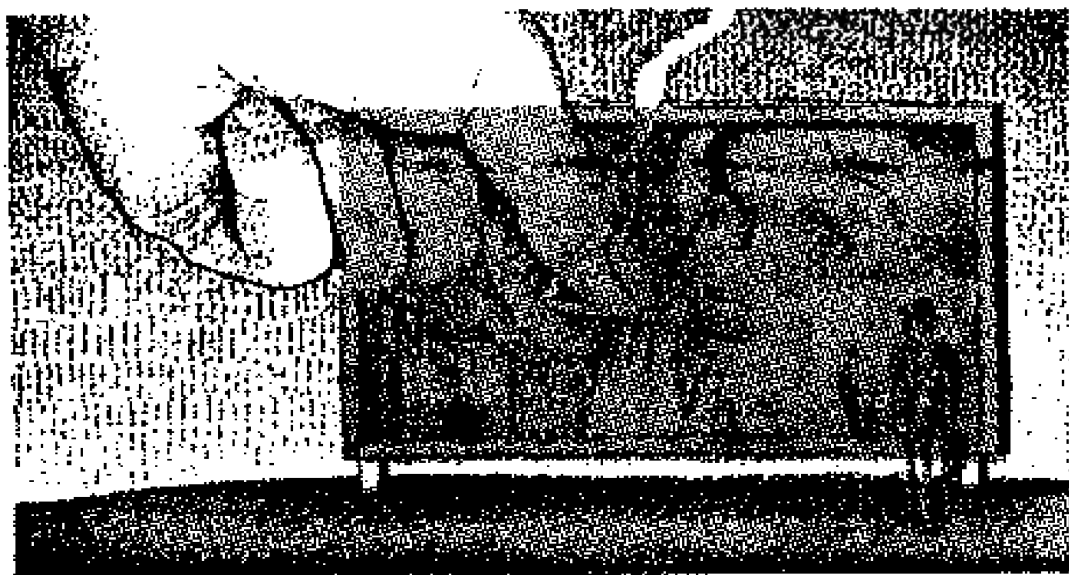
ان الذي يدعو للتساؤل حقا هو : ما الذي يدفع المرء الى تبني سلوك معين في ظرف معين . . ثم الى تغييره أو تكراره في ظرف آخر ؟ . . هل هي العساة ؟ . . هل هي السهولة ؟ . . هل هي اللذة ؟ . . هل هي المكاسب ؟ . . أو هي المثل والمبادئ والأخلاق ؟ . . أو أن الإنسان مجرد مكنة تتلقى الإيعازات بشكل أوامر عصبية وهورمونات وافرازات ورموز في الجينات والكرموسومات حاملات الصفات الوراثية للكائن البشري ؟ . .

ان الطفل الصغير ، يتعلم ، الابتعاد عن النار بعد أن يعاني ألم الحرق من مدفأة أو عود ثقاب ، فهو سلوك يمكن تفسيره بتجنب الألم أو إيثار اللذة ، كذلك يدرك البالغ أن السرقة سلوك غير مقبول ويعاقب عليه بحكم الدين والأخلاق والقوانين المرعية ووجود عقاب صريح له ، فهو إذن لا يسرق لعوامل أخلاقية - اجتماعية ، أما إذا سرق فعندئذ يجيء علم النفس والاجتماع ليفسرا ذلك بأنه « مدفوع » الى السرقة إما لسهولة الكسب غير المشروع وإما لفقر مدفوع أو لمرض نفسي يعبر عن حاجة رمزية ذات دلالة بعيدة عن التمرد والنقمة ضد الأمرة أو المجتمع أو الحاجة الى الامتلاك أو الختان . . . الخ .

اذن ، فسلوك الإنسان يرتبط بعوامل كثيرة متعددة تقرر نوعية وحدته واتجاهه ، وقد حاول الفلاسفة وعلماء النفس وضع معادلات وقواعد تربط هذه العوامل ، ومن أشهر هذه التفاسير : نظرية اللذة والألم ، وفلسفة الرواقين ، ونظرية قانون التأثير ، والسلوكية الآلية ، والحتمية ، والآلة الحرة . . الخ مما ستتطرق الى أبرزها .

ويمكن حصر محركات السلوك بثلاث مجموعات من الدوافع والمحفزات :

- ١ - ما يدركه ويحسه الفرد قبل أن يقدم على عمل ما مباشرة . . .
 - ٢ - ما يجري في ذهنه قبل فترة طويلة من الفعل . . .
 - ٣ - ما يعلق عليه في المستقبل من أهداف ونتائج إذا ما قام بالفعل . . .
- الا أن هذه المجموعات الثلاث يمكن أن تنحصر في اثنتين فقط هي :
- * الدوافع والخوافز الداخلية .
 - * النتائج المترتبة على السلوك . . .



ولا يمكن الفصل الثام بين النتائج والخوافز الداخلية دائماً كما بين أرسطو في كتابه الموسوم (De anima) اذ يقول : « عندما توجد اللذة والالم فلا بد من وجود الرغبة ، والرغبة تدفع الى اللذة . . » وهذا يعني أن السلوك الذي يعتمد على « النتيجة » انما يهدف الى نتيجة مرضية ومجزية - أي لذينة ، أو على الاقل « غير مؤذية » .

السلوك . . وقانون التأثير :

جاء بهذه النظرية العالم النفساني (ثورندايك) بعد أن أجرى تجاربه على الحيوانات . وهي من النظريات المهمة في علم النفس الحديث ، وقانون التأثير يشبه الى حد ما نظرية اللذة في السلوك ، اذ يمكن ايجازه بأن المخلوق الذي يفكر في شيء أو يقوم بفعل يعود عليه بالراحة أو الاستقرار ، أي يزيل عنه حالة التوتر والقلق ، عندئذ يتأثر بذلك ويصبح نمط ذلك الفعل راسخاً في جهازه العصبي فاذا ما صادف أن مر بظروف مشابهة فانه يلجأ الى سلوك نفس الفعل دون تردد أو تفكير جديد في فعل مغاير ، ويمكن تعريف القانون بما يلي : « ان العقاب أو المكافأة من أقوى الادوات والوسائل لاختيار الافعال المرغوب فيها وتثبيتها وحذف غير المرغوب واستبعاده منها » . فاذا وجدت حالة واحدة لها

عدة استجابات فان الاستجابات التي تصاحبها أو تتبعها مباشرة ذات لذة ورضا للمخلوق تبقى أشد ارتباطا بتلك الحالة اذا عادت ، وعلى العكس من ذلك تضعف الرابطة اذا كانت النتيجة مؤلمة .

ان نقطة الضعف في هذه النظرية انها تتجاهل شخصية الانسان وتعتبر الناس سواسية تجاه كل الحوافز ، وهذا ما لا ينطبق على الواقع ، فالخافز الواحد قد يؤدي الى سلوكين متضادين في شخصيتين مختلفتين والى بضعة أنماط من السلوك اذا اقتضى الامر .

بين القنفذ والثعلب . . .

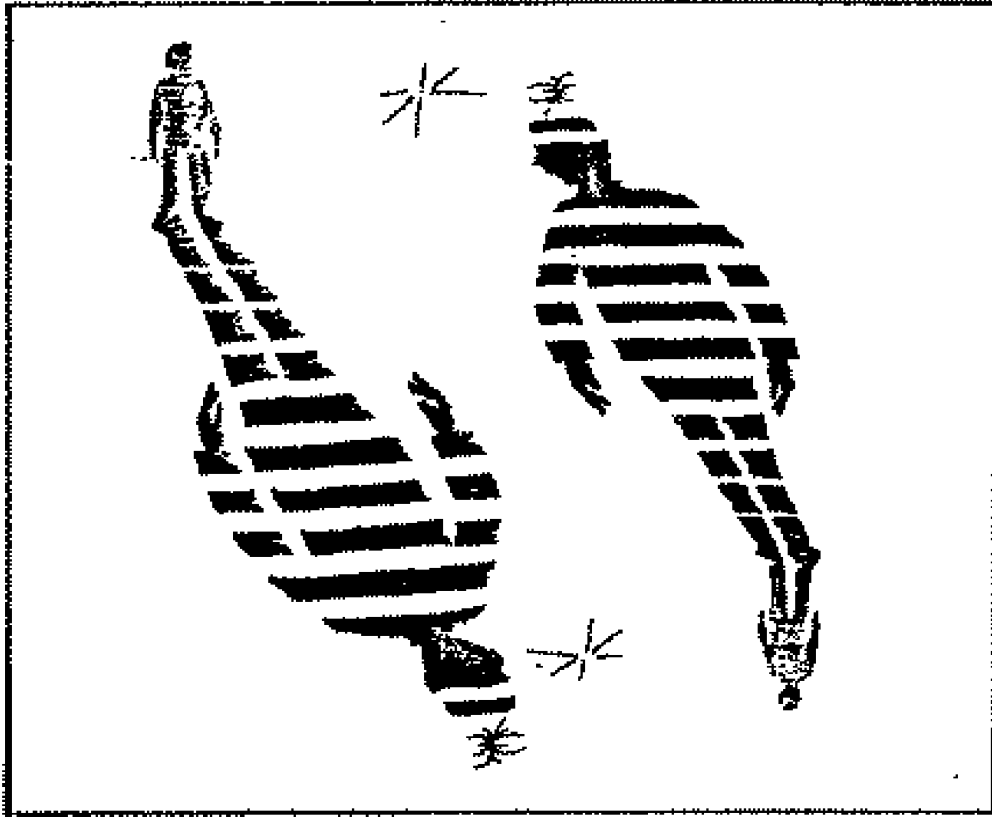
يقول أحد علماء النفس إنه مهما تعددت تصرفاتنا وردود أفعالنا فبالامكان تصنيفها الى مجموعتين :

.. بسيطة ، وهي ما دعاها بأسلوب القنفذ . . .

ومعقدة ، وهي ما دعاها بأسلوب الثعلب . . .

ولايضاح ما يقصده بذلك نقول ، إن القنفذ - وهو حيوان يعيش على أكل الحشرات والنمل ، وله جلد مكسو بشوكات إبرية مؤذية لمن يلمسها ، وكل ما يفعله القنفذ هو أحد سلوكين : أما أن ينسبط وتنام شوكات جلده على بعضها ويسير الهويتا بحثا عن طعامه وشؤونه الأخرى . . . أو أنه يتكور على نفسه فتبرز الشوكات لدرء الخطر عنه ويصبح كرة هامة ثابتة في مكانها لا تتحرك ، وتؤدي من يقترب منها ، ويتخذ القنفذ وضعية الكرة في كل حالة مغايرة لحالة الارتياح ، أي أنها استجابة بسيطة واحدة لعشرات الحالات والحوافز المختلفة عن الراحة ، سلوك واحد بسيط وجواب واحد مكرر .

ومن البشر من يؤثر سلوك القنفذ تقريبا ، لكن أمثال هؤلاء نادرة نادرة . . . لان السلوك البشري أشد تعقيدا وأكثر صورا وأشكالا من تلك . أما سلوك الثعلب ، فعلى النقيض من ذلك فلكل حالة أو ظرف نجد الثعلب يعد لها العدة ويضع بضعة حلول وردود ، ويتعدد الظروف تتعدد الحلول وتشابك وتتعدد .



وقد عرف الفلاسفة الاغريق هذين النمطين من السلوك منذ القدم ،
 وخلد القنفذ والشعلب في الادب العالمي منذ القرن السابع قبل الميلاد اذ ذكره
 (أرغيلاكس) ، أما (ايرازموس) في عام ١٥٠ م فقد قال ماييلي : « للشعلب
 عدة حيل . . . وللقنفذ حيلة واحدة - لكنها أحسن الحيل . . . » وقيل في
 الشعلب : « لدى الشعلب حلول أكثر مما لديه من مشاكل !! »
 ومن البشر من يماثل الشعلب في سلوكها - أي بأعداد من الاستجابات لكل
 طارئ أو حدث مع حذر شديد ومكر وريسة ، وهؤلاء ليسوا نذرة ،
 والانتهازيون كذلك رائدوهم الشعلب وأساليبه لانهم يهيئون ردود الافعال
 ويحسبون الحسابات الدقيقة كي لا تفوتهم فرصة أو غنيمة ، أما الانسان السوي
 المعادي فانه يستجيب بسلوك معين ، ولا يشابه اثنان في سلوك واحد لجهة حافز
 واحد ، فالتعقيد وتعدد الانماط السلوكية لدى الناس الاعتياديين لا يتأتى عن
 الوسوسة ، بل عن اختلاف عوامل أخرى كالشخصية والظروف الاجتماعية
 والثقافية والتربية والتجارب والفتنة . . . الخ .

ماهي حقيقة اللذة ؟

وقد ظهرت نظرية اللذة كعامل حيوي في تحريك السلوك منذ عهد اريستيبوس وأفلاطون وأرسطو وأبيقور ، ثم ظهرت في القرنين السابع والثامن عشر من خلال كتابات ديكارت وهوبز ، أما (بنتام) فقد ربط اللذة بالسياسة والاقتصاد ، وتغلغلت مدرسته في الفكر الغربي ، وجاء فرويد عام ١٩١١ بنظريته النفسية عن (اللذة ومبدأ الواقع) .

وكانت تجارب (بافلوف) على الحيوانات تؤكد أن « المكافأة » تعزز من انجاء الحيوان نحو عادة معينة ، أما عدم المكافأة (الحرمان أو الألم) فتؤدي الى نسيان العادات القديمة وضمورها وقال (فينغر) عالم الجمال عام ١٨٧٣ إن اللذة تنجم عن الحالات التي تساعد على الاستقرار .
غير أن اللذة التي يعيها أحدهم لا تنطبق على نفس المعنى الذي يقصده الآخر . . .

وإذا كانت اللذة هي المحرك الاساسي للسلوك سواء كانت دافعا داخليا أو حافزا جاذبيا من الخارج ، فهل يعني ذلك أن الانسان يعيش ويتحرك في عالم من المتع فحسب ؟

صحيح أن هناك أناسا يقيسون اللذة بمقدار ما يفرقون من متع جنسية أو بقدر ما يكتهمون من أطعمة شهية أو بضخامة ما يمتلكون من ثروة وأرصنة مصرفية ، بيد أن الواقع لا يؤيد ذلك تماما ، اذن كيف نفسر سلوك من يموت في ساحة المعركة وهو سعيد . . . ومن يضحي بمتاع الدنيا من أجل ساعة تجلٍّ وتعبد في حضرة الخالق . . . ومن يقتل نفسه حرقا ليعبر عن استنكاره ورفضه لقضية ما . . . ومن يؤثر السجن على الاستسلام والمسايرة والحياة الناعمة ؟ .

الجواب على ذلك أن اللذة لا تعني المتعة الحسية - المادية فقط ، بل الشعور الذاتي بالرضا والاسترخاء والسعادة ، فالسعادة الذاتية - الوجودية هي اللذة الحقيقية ، لذلك نرى أن الانسان الذي لا يشعر بالراحة في عمل سيقدم عليه أو يعرف ويتوقع نتائجها السيئة يمتنع عنه ويتردد في الاقدام عليه ، و « الامتناع » بحد ذاته هو لذة أخرى من زاوية أخرى ، فتجنب التوتر والقلق وعذاب الضمير هو سعادة حقيقية تكافيء ونعوض عن أية متعة حسية .

اللذة إذن هي معنى ومبدأ وفكر . . هي كل ما يدخل الرضا في قلب الإنسان . وهذه النظرة لانهج معضلة في تفسير السلوك ، فهناك لذة حقيقية لمن يتمسك بمبادئ الاخلاق . . ولمن يفضل الاخلاص على الحياة . . ولمن يؤثر الضئك والدخل المحدود على الكسب الحرام والربا والاحتكار . . ولمن يرى الموت خلودا اذا كان يدافع عن وطنه ومبادئه ، فهناك لذة حسبة ولذة أخلاقية ولذة عقائدية . فكرية ، أي أن الإنسان قد يجد اللذة في تحمل المشاق أو السجن أو التعذيب كي يحقق هدفه البعيد ، فالطريق الى اللذة ليس طريقا واحدا . . وإذا اختلفت وسائل اللذة . . فإن الشعور الذاتي واحد .

ضد اللذة :

ان كثرة المؤيدين لنظرية اللذة في توجيه السلوك لا تعني عدم وجود معارضين لها . . فقد انتقد مفكرون آخرون مبدأ اللذة والالم وجاءوا ببدائل له .

فقد اعتبر (تولمان) أن القيمة الهادفة هي المهمة في توجيه السلوك ، أي أن ما يتوقعه الإنسان من نتيجة هو الذي يقرر نوعية سلوكه . . وهذا ما يشبه النظرية التي تقول إن الإنسان عندما يقوم بعمل ما ، ويتلقى ايعازات ايجابية مشجعة لتنازعه مطمئنة لآماله . بغض النظر عن اللذة . فانه يستمر على العمل والمتابعة ، وعلى العكس من ذلك ، فقد تكون الايعازات السلبية معوقة له ، وهذا ما أطلق عليه « التغذية الايجابية للفعل » وهي نظرية تماثل جدا نظرية (ثورندايك) عن قانون التأثير .

ولا يعتبر (مكدوجل) اللذة من أصل مكونات السلوك بل مؤثرة فيه فقط . . ولم يؤيد أصحاب « مدرسة الاستبطان » في علم النفس كون اللذة والالم محركين وحيدين للسلوك .

وقد رفض (واتسون) مؤسس النظرية السلوكية نظرية اللذة وتبعه أصحاب نظرية التعلم الحديثة . وهي السلوكية المعاصرة . ينفي مبدأ اللذة كعامل في السلوك واعتبروا « ازالة التوتر » و « اشباع الحاجة » المحرك الاهم في تثبيت السلوك وتعزيزه .

ومن المنطقي جدا تفسير هذا السرفض لمبدأ اللذة بأنه « التفاسف » على النتيجة لان كل ما ذكرناه من اصطلاحات وتفسير علمية ما هي الا مرادفات لمعنى اللذة - بمعناها الاوسع الذي تطرقنا اليه ، فاذا كان انسان يجد لذته في الربح الحرام وآخر يجدها في التقشف والتعب فانبها توصلا عقليا - أولا شعوريا - الى ذلك نتيجة سلسلة طويلة من التجارب والظروف الحيوية التي حاول تفسير آليتها أصحاب نظريات قانون التأثير أو السلوكيون أو جماعة بافلوف أو فرويد .. الخ ..

وأخيرا . . .

وكما أن الحقيقة الكبرى لاتزال خافية على الانسان . . فكل أجزاء الحقيقة أيضا تعوزها المعرفة ، والسلوك البشري لازال غامضا على علوم النفس والاجتماع والطب والهندسة الالكترونية والفلسفة . لكن ذلك لن يشبط محاولة الانسان اكتشاف ذاته وما حواليه ، فحياة البشرية في مرحلة استكشاف . . ولاتزال في أولى المراحل اليها كما رأينا . وعندما يتوصل الانسان الى معرفة عوامل سلوكه ومحركاته فان نظرتة الى الكون والحياة ستكون حتما نظرة أخرى ، وسيكون مبدؤه - حتما - مبدأ آخر .

ان كل نظرية تستأهل منا التقدير والاعتبار لانها محاولة جديدة للوصول الى الحقيقة ، وحتى النظرية الخاطئة الفاشلة هي حافز لايجاد نظرية أصليح . وهي من هذه الزاوية مفيدة للوصول الى العصر الذي نعيشه .

أحسن الكلام وخير الفعال

- لا تؤجل عمل اليوم الى الغد . . .
- في الثاني السلامة . . .
- القناعة كنز لا يفنى . . .
- المركب التي فيها رباتان تفرق . . .
- أقوال حكيمة . . وأمثال شعبية راسخة لم تأت اعتباطا . . . ولم ترسخ ونحيا
الا بحكم واقعيتها وصحتها ونجاحها على مر الزمن . . .

المرق العدد ٢٣٨ سبتمبر - أيلول ١٩٧٨ م .

صحيحة وخاطئة !

وجميعها صحيحة . . .

وجميعها خاطئة أيضا . . .

وهي صحيحة وناسجة في ظروفها وتوقيتها المناسب . . وهي خاطئة وفاشلة في غير ظروفها وموعدها المناسب . . . فعامل الزمن . . . وحساب الظروف هي الضوابط التي تقرر ذلك . وقابلية المراوغة والتبرير أو خداع الذات هي التي تؤدي ببعض الناس الى اساءة استعمالها والى الاتكال عليها والاحتياج بها لتبرير السلوك والعمل والفكر . . فلا تؤجل عمل اليوم الى الغد ، عندما تكون موظفا في دائرة ومستولا تجاه معاملات المواطنين المراجعين الذين يتوافدون على مشاكلهم وإنجاز أمورهم . . .

ولا تؤجل عملك وأنت عامل أو فني أو فنان عندما تكون مطالبا بإنجازه في فترة معينة وتتمكن من إنجازه فعلا . . .

ولا تؤجل عملك وأنت استاذ ومبحث وباحث وطالب اذا كان من المفروض عليك اكمال متطلبات محاضرة أو تقديم أسئلة الى مدير مدرسة أو تطوير البحث أو مراجعة درس معين والبحث عن قاموس أو مرجع . . .

ولا تؤجل منحة ومكرمة واحسانا عزمت عليه وباستطاعتك أدؤه وتقديمه لان التأجيل الى غد لا تحمد عقباه ولا يعرف مصيره . . لانه لو حدث لك خطب أو شاغل أو مرض مفاجيء . . فستفوتك فرصة الاحسان والثواب .

ولكن عليك أن تؤجل بعض الاشياء لأن في العجلة الندامة . . أي أن تتروى وتترث . . وفي التريث حكمة ومنفعة وعيدل . . فلا تستعجل الحكم على الناس من مظهر أو بادرة منفردة . . ولا تستعجل العقوبة على مروضيك وأنت غير مستوف جوانب التحقيق وظروف المخالفة والتقصير . .

ولا تستعجل في الحب . . وفي الزواج . . وتريث وتردد كثيرا اذا أقدمت على طلاق أو انفصال أو خصام . . .

ولا تستعجل وتستبق الحوادث وتبن عليها المشاريع العاجلة السريعة ، بل دعها في ذمتك مستقرة هادئة لتنضج الحلول معها . . .

ولا تستعجل في الادانة والاهانة والعراك . . .

وجوه مختلفة

« والقناعة كنز لا يفنى » . . . ولكنها أحيانا لا هي بالكنز ولا هي بالباقية . . . القناعة واجبة في الازمات . . . وفي المحن . . . وعندما يمر الوطن والناس في ظروف عصيبة من كوارث طبيعية أو موجة جفاف وسنوات عجاف واقتصاد صعب مقنن .

والقناعة واجبة أمام حكم الله والاقدار والامراض والمصائب ، عندها يدرك الانسان أن السعادة ليست احتكارا لاناس وعمره على آخرين . . . وأن البشر جميعا معرضون للمرض والمصائب وأقسى الحوادث والمحن . . .

والقناعة مفتاح الصبر . . . والصبر مفتاح الفرج . . . فهي اذن دليل الصلابة والصمود والانتظار والتأهب للمعركة والكفاح . . .

أما القناعة الدليلة فهي خسارة وليست بكنز . . . القناعة التي تخدر الانسان . . . وتجعله آلة بشرية جامدة ترضى بكل شيء ولا تتطلع الى العمل والتقدم وتحسين الاحوال هي مرض اجتماعي وعلة خبيثة تشل الانسان وتجعله . . .

القناعة التي تقتل روح النقاش والنقد والنصح هي الحرس الفكري الذي يعيق الحضارة ويعرقل المجتمع . . .

والقناعة بالحاضر لن تطور المستقبل . . . والقناعة بما وصلت اليه العلوم لن يدفعها الى الاستزادة من معرفة الكون وأسرار خلق الله واستكشاف المجاهيل . . .

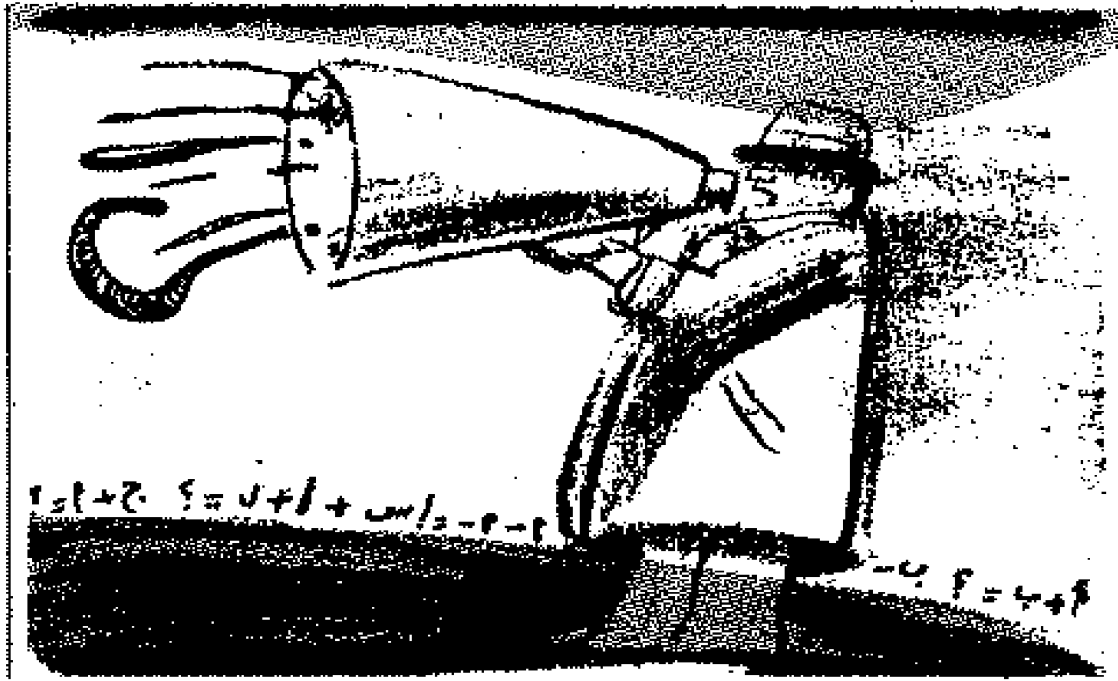
وه السفينة التي فيها قبطانان تفرق « لان بعض المواقع والمواقف تتطلب قرارا من شخص واحد وادارة من مصدر مركزي هو المدير والمدير والمنظم .

ولكن « سفينة الاسرة » لا يمكن أن تسير بادارة شخص واحد . . . وقرار تعسفي إما الزوجة الأمرة الناهية المسيطرة . . . أو الزوج الطاغية الاتاني ، وكل

منها يريد أن يقود الأسرة وتربية الاطفال وادارة شؤون البيت حسب أهوائه ومزاجه فكلاهما خاسر . . . والسفينة ستقف أو تعطب أو تنعثر في ابحارها . . .

فادارة الأسرة يجب أن تكون بالمشاركة والديمقراطية والاعتراف بحقوق الآخرين . . . ديمقراطية الابوين وتفاههما هي رمز الاسرة الناضجة . . . واتفاق

رئيسين أو ثلاثة في البيت هو الضمان لسير المعجزة ...
 يقول الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :
 « من شاور الرجال .. شاركها في عقولها ... » وهناك مشات من
 الاقوال والاحاديث والحكم ينطبق عليها نفس التحليل ولها نفس الازدواجية
 والتناقض الظرفي وليست التناقض الداخلي ...
 فالقول الصائب هو الذي ينطبق على الظروف الصائب .. والفعل الجيد هو
 الذي يتم في الوقت المناسب ..
 والتناقض الظاهري (الظرفي) بين مجموعة من الافعال والحكم المتناظرة ..
 المتقابلة هو في من يستخدمها وليس في حد ذاتها ...



سلاح ذو حدين :

لماذا اذن هذا التناقض ؟ .. ولماذا نختار في ايها اصح وأدق ؟ .. السبب
 واضح جدا .. لان هناك صنفين من الناس :-
 الصنف الاول : هو الذي يريد أن يهزأ بالآخرين ويدير عقولهم فيستخدم
 الامثال والحكم في اقناعهم وتسييرهم وفق مشيئته وهو يدرك بمكر وذكاء أن

الحقيقة خلاف ذلك .

وتتطلب هذه الحيلة الحياتية على السليج والبسطاء والأتباع .
والصنف الثاني : لا يخذع غيره بقدر ما يخذع نفسه من خلال آلية عقلية لا شعورية هي آلية التبرير فعندما يجهد الانسان نفسه أمام عقبة أو معضلة لا يستطيع التنفيذ فيها أو حلها أو التغلب عليها فانه يتراجع ويتخذ سلوكا آخر . . . ولكنه يبرر هذا الفشل بعذر مقبول لديه ولدى الآخرين وبذلك « يحفظ ماء وجهه » . . . فإذا لم يدخل في مغامرة أو صفقة تجارية مربحة . . . قال : « إن القناعة كنز لا يفنى » . . . وإذا قيل له ، كان الحل الفلاني أمامك للفقهاء على المسألة الفلانية أجاب « الرثق كبير . . . والرقعة صغيرة . . . » . . . وإذا وجد نفسه متأخرا في عمل ما قال « في العجلة الندامة » . . . وإذا انهار عليه اللوم لتعجله الامور ، ولم يتحل بصبر وروية أجاب « لا تؤجل عمل اليوم الى الغد » . . . مثل الثعلب الذي لم يستطع أن يصل عنقود العنب الناضج ليأكله . . . فنكص على عقبيه وهو يقول إنه عنب حامض نبي » (حصرم) . . .

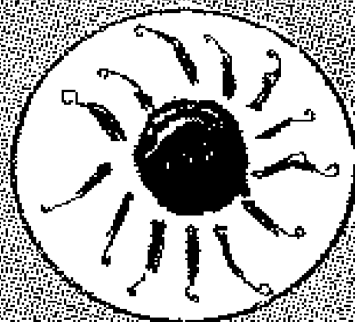
أدب القرآن والفقه ، براهين مضية :

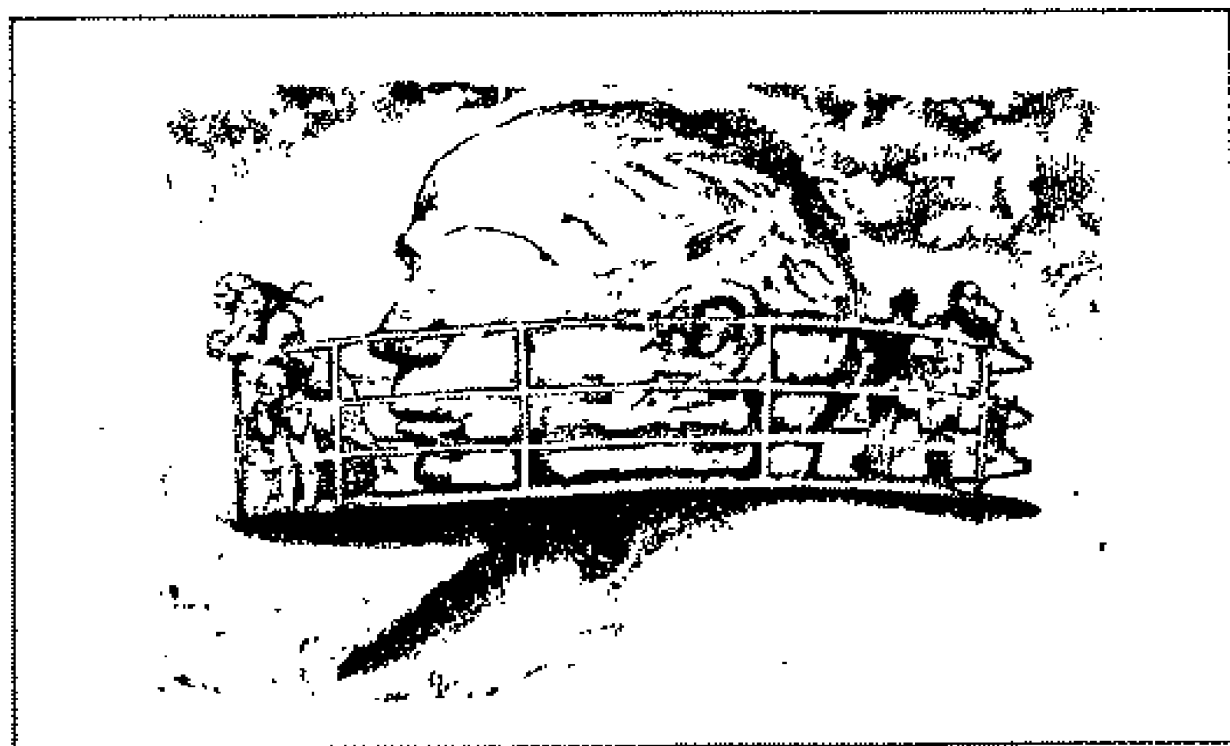
. . . وفي الآيات القرآنية دلائل دامغة على أهمية زمان الكلام ومكانه . . .
فقوله تعالى : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى . . . » كان أمرا مرحليا مناسبا من الناحية النفسية والعقلية لتطور الدعوة النبوية . ولا يصح أن نستشهد به بعد مرحلته لشرب الخمر في غير وقت الصلاة لانه أصبح من المحرمات بعد ذلك بزمان قصير . . . كذلك لا يصح الاخذ بجزء من آية قرآنية وتجاهل تتمتها ومناسبتها ومعناها وأبعادها . . . ولكن من الناس (في كلا الصنفين اللذين ذكرتهما آنفا) من يكتفي بالجزء الاول أو الثاني أو الاخير من آية ليجعلها ملائمة لاهوائه . . . كأن يستشهد بالجزء الاول من الآية الكريمة في قوله تعالى « ويل للمصلين . . . الذين هم عن صلاتهم ساهون . . . » فيأخذ بالجزء الاول « ويل للمصلين . . . »
أو يستشهد بالجزء الاول من الآية الكريمة في قوله تعالى « ان الله لا يستحي / أن يضرب مثلا ما بعوضة فما له فيها . . . »

فيأخذ بالجزء الاول . . . ولا يستحي هو أن يباهر بذلك كالحمقى تماما . . .
وأخيرا . . . فإن في فلسفة الامثال الشعبية والحكم ، والاحاديث النبوية
الشريفة من الكنوز ما يفي بأغراض حياتنا المعاصرة من جميع جوانبها . . . فهي
حلى فكرية نزين بها عقولنا وسلوكنا . . . ولكن الحليلة يجب أن توضع في
مكانها . . . وأن تأخذ حجمها ولسونها المتناسق مع الانسان ذاته . . . بشخصه
وعمره وملبسه ومركزه وزمانه ومكانه . . . وكل ذلك يحتاج الى حاسة
خاصة . . . يدعوها البعض « بالحاسة العامة » .

• الفصل الثاني •

أضواء على النفس البشرية





بين العبقرية والأمراض النفسية

من المعروف أن أي إنتاج أدبي أو فني أو فلسفي يرتبط بجذور نفسية في شخصية الأديب أو الفنان أو الفيلسوف . أي أن الفكر والأدب والفن يتفاعل مع وجدان المنتج وذهنيته قبل أن يصل إلى العالم ، ولولا ذلك لأصبح الإنسان آلة مجترة لأفضل لها في تطوير وتحسين ، أو حلف وإضافة ابتكار واختراع . وإذا سلمنا بهذه الأوليات الفكرية أدركنا أن الانتاج الفكري والفني لا يمكن عزله وتجريده عن شخصية صاحبه مهما حاولنا إخفائها أو تجاهلها ، وشخصية المبدع - كأي شخصية بشرية - تعتمد على كيفية نشجها منذ الطفولة وحتى البلوغ وعلى نوعية التجارب والظروف الحياتية التي يمر بها ، وعلى المؤهلات الجسمية والوراثية أيضا ، ومن دراسة تاريخ حياة الإنسان نستطيع تبرير سر نبوغه في ميدان فكري دون آخر ، ونستطيع تفسير طبيعة نتاجه وموالاته واتجاهاته وفلسفته في الحياة .

وليس سرا على القارئ المتبحر القطن أن يستنتج أن الأدب المتشائم غالبا ما يصدر عن نفسية قائمة يائسة ، وأن الشعر الرمزي المفلق ينتج عن نفسية مغلقة تميل إلى التعقيد إن لم تكن معقدة بالأصل ، وأن المغامرات والبطولات قد تنتج

العربي العدد ١٧٣ - إبريل - نيسان ١٩٧٣ م .

عن أوجه متعددة وتفسير مختلفة وأسباب مختلفة وأسباب متباينة أيضا ، أي قد يكون الرمز متعمدا لحماية النفس من نعمة أو سلطة أو رياضة الاستعلاء على الآخرين ، وقد تكون أحاديث المغامرة أحلاما نفسية عجولة منكشحة تعوض عن شعورها بالعجز ، ومهما كانت النتائج ، فإن رابطة منطقية تفصل بين الشخصية وإنتاجها .

واعترافنا الضمني بالعلاقة اللازمة بين نفسية الإنسان وإنتاجه يترتب عليه إقرارنا بضرورة تقبل الإنتاج كما هو مجردا عن السلوك الفردي أو الأخلاقي ، ولا يوضح ذلك يمكننا مناقشة الإنتاج بالقياس إلى الصفات الشخصية .

بين الإعجاب والأزدراء . . .

كثيرا ما يصادف أن يتصاعد إعجاب الفرد بإنتاج ما إلى حدود خيالية ، وترتفع معه شخصية الكاتب أو الفنان إلى درجات من السمو والتقديس ، ومحاط شخصيته بهالة مفرقة في السمو ، ثم يصادف أيضا أن يكشف ذلك الفرد ثغرة أو مثلبة أو حدثا ينقص من شخصية ذلك المفكر أو الفنان ، فتجمله يرتد إلى حالة من خيبة أمل وفشل أليم ، وينهار معه الإعجاب السابق وتختلط عليه القيم ويشعر بالأسى وربما بالأزدراء تجاهه .

وخيبة الأمل هذه تدل على أن العوامل الفردية والأخلاقية اتخذت كأدوات تقييم للإنتاج ، وأن التقييم انتقل من الموضوعية إلى العاطفية ، أي إلى الأزدواجية والتناقض وذلك لسيين :

الاول : لأن الناحية الفردية للفكر أصبحت ميزانا وامتحانا لإنتاجه .
والثاني : لأن اتخاذ موقف التقييم امتثادا إلى الشخصية لا بد أن يؤثر في الإنتاج ، شئنا أو أيننا . فكيف نتوصل إذن إلى موقف عادل ؟ .
وقبل الإجابة على ذلك (وهي مهمة عسيرة ومسئولية دقيقة تواجه النقاد قبل كل شيء) ، قبل كل ذلك فلنستعرض نماذج من الشخصيات التاريخية وما كشفه علم النفس من اضطراباتها وأمراضها التي عانتها :



كيركجارد والوجودية

الفيلسوف الديني الدنماركي كيركجارد (١٨١٣ - ١٨٥٥) ، كان ناقداً على الفلسفة التخمينية ، كتب عن الوجود والعدم ، وعن الايمان والحقيقة والعقل . وكانت أفكاره أساساً للوجودية الحديثة والوجودية الدينية الثائرة على مفاهيم البروتستنتية . وهو القائل : « الحقيقة هي الذات . . . والحقيقة هي ما يحققه الفرد » . ولكن المعروف عن كيركجارد أنه كان مصاباً بتقلبات وجدانية تتراوح بين الاكتئاب الشديد الى المرح الطبيعي ، وهذا ما يتعلق على أعراض المرض المعروف بذهان الكتابة والهوس الدوري . ومرض الكتابة يثير في المصاب نظرة نقدية للانسان والوجود وجدوي الحياة بل ربما يجعله فيلسوفاً أحياناً . وكان كيركجارد يطوي في ذاته شعوراً بالاثم منذ صباه لان والده كان قد هاجم الدين مرة أمامه وكفر في شبابه .

فهل أصول الفكر الوجودي الذي نعرف به وزنه ودعائه كان نتاجاً للذهنية مكتبة وشخصية معقدة متقلبة الطباع . وهل يكفي ذلك للظمن في صحة الفكر الوجودي ؟؟

أوسكار ويلد . . والانحراف

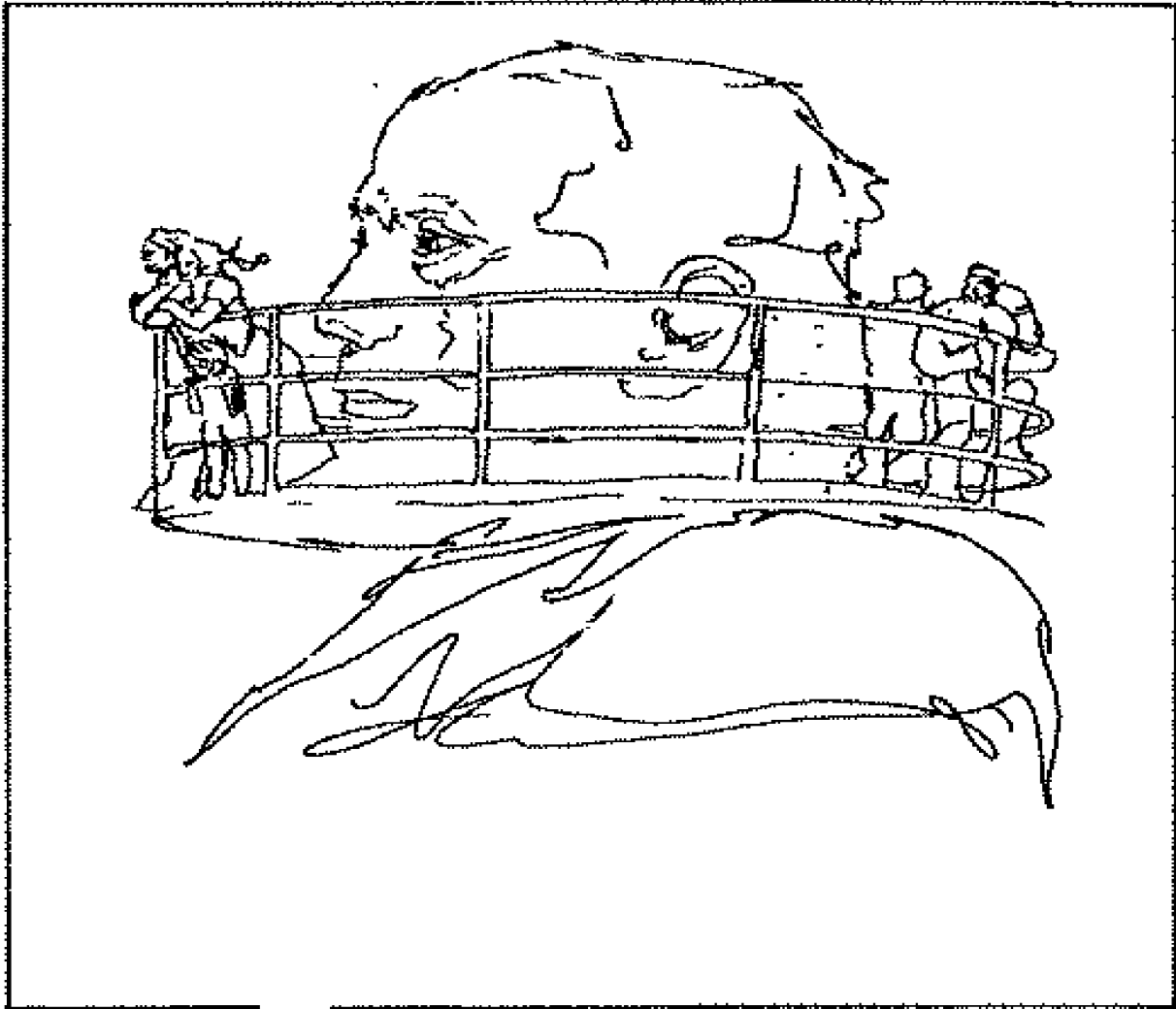
والكتاب القصص الروائي الانكليزي أوسكار ويلد (١٨٥٤ - ١٩٠٠) ، كان يقتر نقداً وسخرية على قيود المجتمع . وكان ناقداً للخير والشر (قصة دوريان جراي) ، وداعية للفن والجمال ، ورافعاً لشعار « الفن من أجل الفن » ، وكان صريحاً وثائراً وعبر عن تحديه وثورته على المجتمع الانكليزي في أواخر القرن التاسع عشر بملبسه وهيبته الاجتماعية فراح يرتدي ملابس غريبة الالوان ، مضحكة وشاذة لا يمكن اغفلها بين آلاف الناس . وكانت هيبته وتصرفاته نسائية ، وقد اهتم أوسكار ويلد أيضاً بالانحراف الجنسي ، وسجن لمدة سنتين لمخالفات أخلاقية ، الا أن كتاباته وتمثيلياته ظلت على قوتها وجاذبيتها واحتفظت بمعجبيها حتى وهو في السجن . ولم تحدث سيرة أوسكار ويلد مفعولها العكسي لدى المعجبين . . .

فان كوخ . . . المريض

والرسام الشهير (فان كوخ) (١٨٥٣ - ١٨٩٠) ، كان مصابا بمرض عقلي اختلف في تحديدته على وجه الدقة علماء نفس معروفون ، فالعالم النفساني والفيلسوف (ياسيرز) قال إنه مصاب بالشيزوفرينيا (الفصام العقلي) ، وأيده في ذلك آخرون ، الا أن باحثين آخرين استتجوا من طبيعة رسمه وأسلوبه أنه كان يميل الى التقيط الكثير والى تكرار الخطوط بصورة تشبه تكرار القصور الحركي في مرض الصرع ، أي أن الشخص يعيد ويكرر نفس الحركة والعملية باستمرار ، ودليل اصابة فان كوخ بالصرع هو تلك الرؤى الغريبة الخيالية والمواقف الذهنية التي تبتاها ، والرسائل الفلسفة المبهمة التي كتبها لبعض أصحابه ، ولعل تباين التشخيص والجدل الطويل حول طبيعة مرض الفنان كوخ قارب نهايته الآن بعد أن تبين في السنوات الاخيرة أن الصرع يمكن أن ينتهي بالشيزوفرينيا ، وأن كلا المرضين يمكن تواجدهما في فان كوخ .
تري هل ان اعجابنا بلوحات الفنان الشهير هو اعجاب بفن صادر عن مخيلة عقل مصاب بالصرع والذهان ؟ .

نيتشه . . والعتة . . والاستعلاء

والفيلسوف (فريدريك نيتشه) (١٨٤٤ - ١٩٠٠) ، الذي تسلم كرسي الاستاذية وهو في الخامسة والمشرين من العمر ، أدخل على الفكر الانساني نغمة الارادة والقوة والسيطرة والعنف ، ولاريب أن فلسفة نيتشه كان لها تأثير كبير على كل ميادين الفكر العالمي ، وتأثيرها أوضح في الفلسفة الوجودية وفي أدب (برناردشو) و (ايسن) ، ومنذ بلوغه الخامسة والثلاثين بدأ نيتشه يشعر بصداح متكرر ، وآلام في العيين ، لكنه ظل يشعر بالكفاية والقوة ويؤكد عافيته ، وكانت رائحته (هكذا تكلم زرادشت) لاحتوي ظاهريا على مايدل على اصابته بمرض عقلي ، الا أن لغتها الغريبة وظهور (السوبرمان) بين ثناياها ، والدعوة الى الاستعلاء ، والعودة السرمالية ، كان أشبه بدين جديد (بشر) به نيتشه باسم « النبي » زرادشت ، وقد تبين أن نيتشه كان مصابا



بالتهاب الدماغ الزهري (وما يسمى أيضا بالشلل الجنوني العام) ، ومن أهم أعراض هذا المرض الشعور بالعافية غير الطبيعية وبالكبرياء ، وبعدم الاكتراث ، ثم التدهور التدريجي في الذاكرة ، ثم الجنون والشلل العام ، وعندما ظهرت أعراض الجنون على نيتشه ، كان هو يتحدث حينذاك عن كونه « المسيح » ، وراح يوجه الخطابات إلى الملوك والأمراء ، وقضى آخر سنى حياته في مستشفى للأمراض العقلية ، ثم تكفلت أمه وأخته برعايته في مكان منزلي بعيد عن الأنظار .

نرى ، هل كانت فلسفة القوة التي ارتكزت عليها ألمانيا النازية نتيجة جراثيمة الزهري ؟

دوستوفسكي . . المضطرب

أما الكاتب الروسي الشهير (فيدور دوستوفسكي) (١٨٢١ - ١٨٨١) ، فقد عانى من حياة « مضطربة » ، وكان معظم حياته معدما ومدينا لغيره ، وقد انغمس في المقامرة فخرقة من حياته وكتب أثناء ذلك رائعته (المقامر) ، ويمتاز دوستوفسكي ببراعته في تصوير أفكار النفس البشرية وانفعالاتها، وكان مصابا بداء الصرع الذي اضطره الى ترك الخدمة العسكرية كضابط في الجيش القيصري ولازمه الصرع حتى الكبر ، وقد أجاد وأبدع في وصف الأحاسيس الغريبة للمصاب بالصرع عندما تقترب منه الثوب أو عندما يستيق منها ، وصور الاضطراب الوجداني والمشاعر غير الطبيعية للصرع في ثانيا قصته (الأبله) التي كان بطلها مصابا بالصرع أيضا .

تري ، هل كان الصرع سببا في الحياة المضطربة الصاخبة للكاتب المقامر ؟ . . وهل اكتسبت روايته شيئا من التغيرات الذهنية أو بصمات العقل المصاب بالصرع ؟

الشخصية الغامضة :

وإذا تناولنا إنتاجا عالميا عميق الاثر كإنتاج شكسبير مثلا وجدنا أن روايته لا تكف عن اجتذاب المعجبين ، ولم تحب عبقريتها على مر الزمن ، ففيها دراسات لجوانب النفس البشرية من بخل وغيرة وغدر وحقد وكآبة وانتحار وحس طاهر ، وأن معلوماتنا عن شخصية شكسبير غير وافية ، مما دفع بعض النقاد المتشككين الى اعتباره شخصية مبهمه أو مقتبسة جامعة خير أصيلة أو شخصية متكررة ، وكل ذلك التخييل حول سيرة شكسبير وقابليته من بساطة منشئه وهدوء حياته مما أضفى عليه مسحة من الجلال والاكيار .

تري لو كان شكسبير معقدا أو مريضا أو كانت حياته الشخصية تمتع بالشذوذ والفضائح ، فهل نتوقع أن تتبدل نظرة الناس اليه والى إنتاجه ؟ . وهل الرأي العام يميل الى الغموض ويفضل الشخصية المجهولة أو المسترة ؟ . إذا أبيتنا على أنفسنا هذه الانفعالية السطحية ، فإن مثالا آخر يصلح أن يواجهنا

صراحة بالدوافع النفسية أو النقد والتقييم ، والمثال هو جبران خليل جبران .
فالكاتب اللبناني المهجري ، الفنان الخالم ، الفنان الرومانسي ، الداعي
للفضيلة النظرية . . جبران ، تبين من رسائله الشخصية الى مييعة أمريكية
كانت العمون الروحي والسند المادي له معظم حياته ، تبين أن جبران كان يعيش
حالة من التمزق والتناقض الذاتي يابل حل قلق عصبي وشمور بالنقص وعجز في
الشخصية ، وأنه في كتاباته كان ينافس (دون كيشوت) في مقامراته ومبالغات
واختلافه للمواقف والازمات الكاذبة مع تفتح وتعظيم للذات : ولا ريب أن
تلك الرسائل الخاصة صدعت صروح اصحاب الكثيرين وبددت أحلامهم في
بطولة جبران المثالية .

ويبدو أن المثقف يميل الى عدم معرفة تفاصيل حياة الكاتب والفنان لئلا
يعرف عنه ما يسيئه أو يؤلم مشاعره ، فإن عرفه فلا يشترط أن يكون حكمه عليه
مشوبا بالخشية أو الاستياء الا في حالات خاصة يمكن اجمالها بما يلي :
ان الانتاج الذي يعبر عن حياة صاحبه ومشاعره و امراضه ، يختلف عن
الانتاج الذي يناقض حياة صاحبه ومشاعره وسلوكه ، فأدب الوعظ والاعلاص
والتضحية يجب أن يكون القائل به مخلصا مضحيا حقا ، ولا بأس أن يكون أدب
المقامرة بقلم اديب مقامر ولاخير أن يكون شعر السخرية بلسان ساخر ثائر . .
ولا بأس أن تكون فلسفة ما ناتجة عن عقل اجتاحت وجدانيات الكتابة أو نفخته
موجات الاستعلاء ، لا بأس من كل ذلك ، مادام الانتاج ينسجم بصدق مع
معاناة الاديب والفنان والفيلسوف . عندئذ يكون الانتاج « مفهوما » حتى يلغة
المرض النفسي أو بمعار التسلسل الحيوي المنطقي ، وهذا هو الصلق الفني
والفكري الحقيقي .

أما التناقض أو التمثيل أو استغفال القاري والجمهور فهو الذي يصبح
موضع النقمة والاهمال والخيبة ، ولعل في هذا الاستنتاج ما يفسر العوامل
النفسية الدفينة في النقد والتقييم ، وهي عوامل ذات طابع أخلاقي ، ولكنها
أقرب الى العدل والتجريد ، وأقرب الى مبدأ الالتزام والانتفاء ، أما الالتزام
الافضل والانتفاء الاجمل فهو عندما يحاول الكاتب ألا يحشر مسائله الخاصة جدا
لاشغال أو إلهاء أو سوء توجيه لقرائه أو معجبيه أو مواطنيه .

المقامرة ... هل هي مَرَضٌ نفسيّ؟

أدقّ مَنْ وَصَفَ النفس واختلاجاتها ، وأروع من كتب عن السلوك الانساني وغرائبه ، هم الادباء والشعراء والحكماء . كانوا « علماء نفس » قبل وجود كيان لعلم النفس . وبين ثنايا القصص ، وفي بطون الكتب ، ومع رفيف أجنحة الشعر ... كنوز وأمثلة على خفايا النوازع والغرائز والاتجاهات البشرية التي ربما يستند إليها العالم النفسي والطبيب المعاصر لمقارنتها ومساواتها بشيلائها من وقائع مرضية تعادله في مجرى معالجاته الطبية الواقعية . .

وعن المقامرة . . تحدث الكثيرون . الا أن أصدق وأبرع من كتب عنها هم المقامرون أنفسهم ، خلال اعترافاتهم وبشهم أشجائهم لخسائهم أو معالجتهم . قال الشاعر الفرنسي (فرانسوا فيلون) في القرن الخامس عشر الميلادي :

لا أثق الا بما هو غير أكيد . .
فالاشياء الواضحة ، هي بالنسبة لي غامضة ، ولا تربيني الا الحقيقة . .
ولا أستمد معرفتي الا من صدقة عمياء ، فاذا ربحت كل شيء . .
فأسقاعد مع الخاسرين .



ولعل هذا أدق وصف لعدم وضوح النتائج أمام المقامرين ، بل هو سر
انجذابهم الى المقامرة .

ومن عشرات القصص عن المقامرين ، نقفز دائيا رائعة ديستوفسكي
(المقامر) - عام ١٨٦٦ - التي هي في الحقيقة تاريخ حياته وحياة كل مريض
بالمقامرة . وفي إحدى رسائله كتب ديستوفسكي الى صديق له يقول : النقطة
الاساسية ، هي اللعبة بحد ذاتها . وأقسم بأنني لست طامعا في مال ، على
الرغم من حاجتي اليه . . . وهذا يفسر رعشات المتعة والاثارة والنشوة في
« لعبة » المقامرة بغض النظر عن الربح والخسارة .

سلوك ضار :

المقامرة مفتاح لكل الشرور . . هي التي تحرق أعصاب الشخصية
الانسانية . . هي التي تنتزع الفرد من حظيرة أسرته ومجتمعه السليم . .
وتشجعه على الاستدانة وعلى الاختلاس أو التزوير ، وربما الايمان أيضا ،
وفوق كل ذلك فهي تهدد اقتصاديات البلد . ولذلك كانت المقامرة موضع
اهتمام الكثير من المثزمين الاجتماعيين والفلاسفة وعلماء النفس . قال
شوبنهاور : « ان المقامرة اعلان افلاس الذكاء البشري » . وقال فاوست :

وتظن أنك المؤثر . . بينا أنت المدفوع ا . . .

وفي ١٥ آذار من سنة (١٩٦٩) عقد في لندن مؤتمر عن المقامرة برعاية (مجلس الكنائس) . وضم المؤتمر كل من عالج أو ساعد أو نصح أو أرشد المرضى المصابين بالمقامرة . وهكذا كان بين المؤتمرين مجموعة من علماء النفس والاجتماع والباحثات الاجتماعيات والأطباء ، والمراقبين القانونيين للمحاكم ، وكذلك ضباط السجون . وخرج المؤتمر بقرارات مفيدة جدا . وكان انعقاد المؤتمر دليلا على خطورة هذا السلوك البشري وازدياده ، وعلى آثاره الهدامة للأسرة وللأخلاق واقتصاديات المجتمع وإنتاجه . وليس أدل على ذلك مما توردته الإحصائيات عن المقامرة .

ففي سنة ١٩٦٠ بلغ مجموع ما استعمل من مبالغ في عمليات القمار في انكلترا وحدها ٥٠ ألف مليون دولار ، وبلغ عدد الذين يقامرون - ولو مرة في حياتهم - من سكان بريطانيا الذين بلغوا سن الرشد ٤٨٪ من مجموع السكان ا . والذي روع رجال الاقتصاد والاجتماع أيضا ، مما لمسوه من النقص الشديد في عدد النساء العاملات ، إذ أن قسما كبيرا منهن يعملن في مصانع ومؤسسات القمار بدل المصالح والمؤسسات المفيدة الأخرى كالمستشفيات أو المصانع . وما يتفق على جهاز المقامرة من إعلانات وطبع وأجور يستنفذ حوالي ٦٥ مليون جنيه من الدخل القومي في انكلترا .

وفي تقرير لسنة ١٩٥٩ (صادر عن مجلس الكنائس أيضا) ، كانت نفقات المقامرة على سباقات الخيل ٣٦٥ مليون جنيه ، وسباقات الكلاب ١٢٤ مليون جنيه وكرة القدم ٩٨ مليون جنيه ، ومتفرقات أخرى ٧ ملايين جنيه . أما مطبوعات جهاز المقامرة فتحتل مساحات من الصحف والبطاقات والنشرات تقدر بخمسمائة فدان في الأسبوع الواحد ا وفي كل أسبوع ، يطبع ما يزيد على ١٢ مليون كوبيون أو قسيمة توزع من قبل آلاف الأفراد ، بالإضافة إلى أعمال جهاز البريد الرسمي ، والخسارة والتبذير في الأحاديث التلفزيونية وفي مراكز النقل والميكانيك .

تاريخ طريف وعريق :

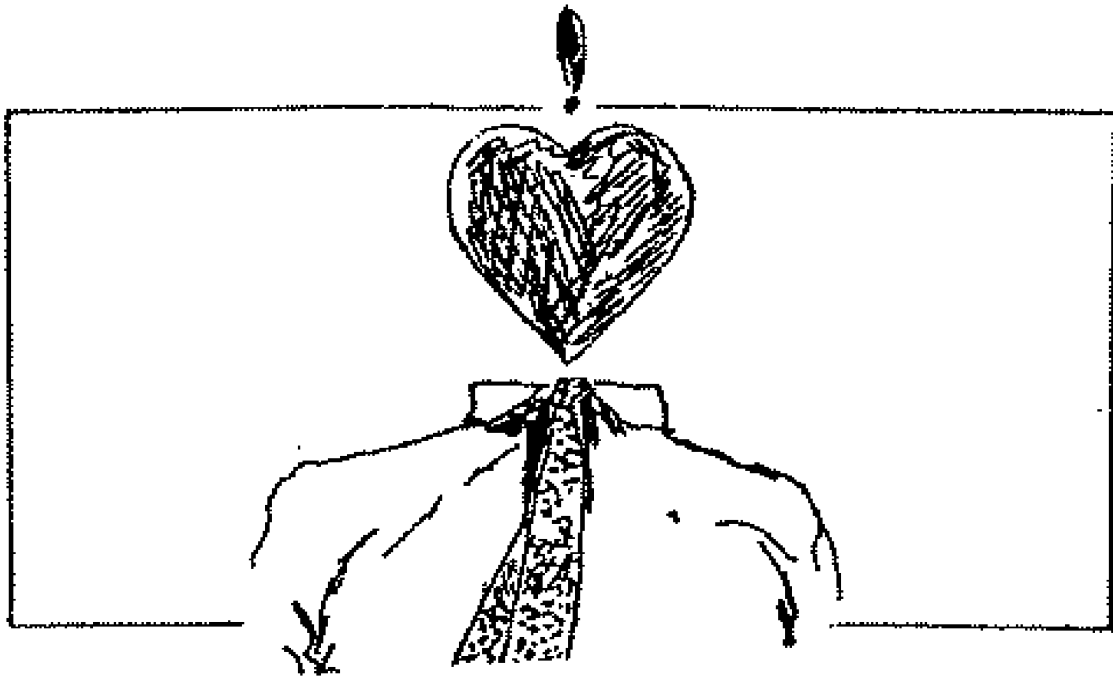
وإذا كانت المدنية الحاضرة قد جعلت من المقامرة محلسة جماهيرية شاملة وزودتها بوسائل تكنولوجية خلاقة وسريعة العمل . . فانها - كسلوك بشري - عريقة في القدم .

والحفريات المتوالية والآثار المتوالية الى الان تدل على وجود المقامرة في أعماق التاريخ وفي مختلف الحضارات العريقة : قطعة (نرد) وجدت في أحد قبور الفراعنة المصريين يعود تاريخها الى ٣ آلاف سنة قبل الميلاد . . ولوحة ألعاب على شكل درجة أو (عتبة) في (الاكروبوليس) في أثينا . . وآثار رومانية متعددة .

ويذكر المؤرخون المولوق بهم حكايات طريفة ومذهلة عن المقامرة . فالمؤرخ تاسيتوس مثلا يذكر أن قبائل الجرمان الاوائل كانوا يراهنون على زوجاتهم وأطفالهم ، وحق على أنفسهم . . والخسارة تؤدي بهم الى السرقة والعبودية . . وكذلك تفعل بعض القبائل الافريقية مثل الزوني والزلو ، ووجد القمار في الفرس القديمة والهند واليونان . ولعبة النرد قديمة جدا ، يؤرخها هيرودوتس منذ أيام (اللبيين) . ووجدت في انكلترا بعد احتلال الرومان لها . وقيل إن الامبراطور الصيني (ياو) ابتكر ألعاب الحظ منذ ألفين ومائة سنة قبل الميلاد . وراهن صيني قديم على يده ، فلما خسر قطعها !

وفي (المهاجراتا) التي هي أعظم سيرة سنسكريتية في يدنا ، يمكن العثور على حكاية الملك الطيب (بودشثير) الذي لعب القمار مع الملك الخبيث (ساكوني) ، وهو الخبير في استعمال النرد المغشوش ، ثم تروي الحكاية كيف بدأ الملك الطيب يخسر الجولة بعد الاخرى . . الى أن أفرغ خزانته من الذهب والياقوت . . والى أن خسر الخيول والفيلة والمركبات والعبيد . . ثم كيف راهن على اخوته وعلى زوجته الملكة الغاتنة (دوربادي) فخسرهم جميعا . . وأخيرا راهن على نفسه . . وخسر كل شيء !!

وكان القمار موجودا في اليونان ، ولم يمتير « ممارسة محترمة » . . حتى أن أرسطو في كتابه (الاخلاق) صنف المقامرين في طبقة اللصوص وقسطاع الطرق .



وظهرت موجات وبائية من المقامرة ، كما حدث في منطقة المسيسيبي من أمريكا أيام الاقتصادي (جون لو) عام ١٨١٧ م ، وفي الهي الغربي (الوست اند) من لندن في القرن التاسع عشر الذي غص ببيوت القمار .
ومن طرائف المقامرة في الايام الغابرة ، المراهنة على سباق الخيلون على مائدة صفيحة ، وقيل إن مقاطعة كورنول في انكلترة وصلت الى مالكيها الخالين عن طريق تلك المراهنة . . اذ حاول المالك الاول أن يحفز حلزونه على الجري بوخزه بالدبوس . . الا أن « مزاج » الخيلون آنذاك لم يستجيب للوخز واستمر يزحف الهويتا دون اكتراث . . وتمت الخسارة ! . .

ركائز بدائية :

وتاريخ المقامرة القديم ، مع العوامل النفسية التي تصاحبها ، تشير الى أن المقامرة ليست سلوكا بسيطا معزولا « نقي » ، وأكثر ما ترتبط المقامرة في المجتمعات البدائية بالسحر والارواح الشريرة والرعب والخوف من المجهول والاعتقاد بالقوى الخارقة وبما وراء الطبيعة . وهكذا أصبح الشعور بالضيق والغربة دافعا لمعرفة الميخت وقراءة المستقبل والحظ ، والى تقديم القرابين للالهة

الوثنية .

فالمقامرة وسيلة بشرية للتحكم في المجهول وتحديد الشكوك ، وتلك هي نظرية السير ادوارد تيلور فقبائل الماوري تمارس القرعة ، وقبائل البولونيز يدورون الجوز لاكتشاف اللصوص بين ظهرانيهم . وفي جزر تورجا يدورون جوز الهند لمعرفة هل سيشفى المريض الفلاني أو لا إذا مالت الجوزة ناحية أو أخرى ، أي أن تلك الألعاب البدائية قد استخدمت للمرافقة واستكشاف المجهول ، فأصبحت الخطوة الأولى للمقامرة أيضا ، لأن نتائج المقامرة مجهولة وغامضة ومثيرة .

وهكذا نجد الى أيامنا هذه أن ورق اللعب (الكوتشينة) يستعمل لقراءة البخت كما يستعمل في مختلف ألعاب القمار ، إن خلط الورق يوحى للفرد المعاصر بالفكرة البدائية المتوارثة بأنها تتم بأمر أو بفعل قوى غير طبيعية تتحكم في النتائج ، والسباق والمواجهة بين المقامرين ليس مجرد صراع قوى عمياء ، بل هو صراع بين الأقدار التي يتعلقون ويؤمنون بها ، فالمقامرة حلم بالسيطرة على المستقبل ، وهو حلم بدائي . .

ومن طريف الأفكار البدائية المتعلقة بالمقامرة وسحرها ، أنها استعملت كعلاج للحرض العقلي الذي أصيب به الملك شارلس السادس ملك فرنسا عام ١٣٩٢ م .

والمقامرة على أنواع ثلاثة :

- ١ - الألعاب التي تعتمد على مجرى الصدف البحتة ، كلعبة الروليت والترد .
- ٢ - الألعاب التي تجمع بين الصدف ومجهود الخلق والخبرة والحدس وقابلية الخدعة ، ومنها ألعاب الورق من بوكر وبريدج وسباق الخيل .
- ٣ - الألعاب التي تعتمد على التفكير العميق ، كالشطرنج . ويصر بعض الباحثين أن الشطرنج لا يخلو من صدف وحظوظ دقيقة غير منظورة .

العوامل النفسية للمقامرة :

كل انسان يمكن أن يقامر يوما ما ولا يمد مقامرا بالمعنى الحقيقي للمقامرة ، فقد يشتري انسان بطاقة ياتصيب خيرية ، وقد يربح أو يخسر ، ولكنه مقامر

عابر ، وكل انسان يمكن أن يشترك في لعبة وقتية للتسلية وقضاء الوقت ، أما المقامرة الحقيقية فتتضمن عنصر المخاطرة والامسك بالربيع من خلال عملية تتحكم فيها الصدفة أو التلقائية أو شيء من الخبرة والقوانين الحسابية ، وهذا لا ينطبق على الصفقات التجارية وعمليات البيع والشراء التي يمارسها ملايين الناس لان الربيع أو الخسارة نتائج طبيعية لها .

أما المقامر القهري - أي الذي يتدفغ الى المقامرة اندفاعا قهريا جتونيا - والمقامر المريض والمقامر المعضلة فهو في الحقيقة انسان مريض بالمصايب وهو انسان يعيش اللعبة واثارها ، ويحارب الشك والغموض بالامسك الابدي بالربيع . فالمقامر يشعر بما يشبه اليقين أنه سيربح ، فاذا خسر مرة ، فأمامه جولات ومناسبات . .

والمقامر المريض يتوق الى الانتحار البطيء عن طريق المقامرة . ومحاولات الانتحار بـ « اللعبة » الخطرة « الروليت الروسية » هي مقامرة مع الموت عن طريق استخدام آلة للموت هي المسدس .

والمقامر ، كالمدمن على الخمر . . يؤكد ذاته بالهزيمة من الواقع على مائدة القمار . وهو يشعر بذكائه وحذقه أيضا ، ويقدرته على الربيع ، وبأن الحياة بأجمعها مجرد مقامرة ! فهو كالمدمن أيضا يتوق الى الانتحار البطيء .

والمقامر ثائر ومتنقم . . يثار من أعدائه - الوهميين أو الحقيقيين - بتحديثهم في القمار ، فالربيع يجعله عظيمًا والخسارة تؤذي أعداءه ، ويقول عليهم النفس إن المقامر يضمم الأعداء لوالديه ، وهو يقامر تحديا لسلطتهم واذلالا لمعنوياتهم . وهذا السلوك يرجعه الى الشعور بالقدرة الجبارة الطفولية أو بجنون السيطرة على كل من يقف في مسيله .

ويفسر بيرجلر اصرار المقامر القهري على اللعب بأنه اندفاع لاشعوري نحو الخسارة في « لاشعوره » ، والخسارة اللاشعورية هي سلاحه لتحطيم ذاته (انتحار بطيء) ، أو تأكيد ذاته (بالرفض والتحدي لسلطة الوالدين أو من يمثلها أثناء الطفولة) .

والمقامر العصبي لا يريد اكتناز المال ، انه بالحقيقة يتمتع بنشوة اللعب . . ويريد أن يخسر لاشعوريا ، وهو يخسر بالفعل في نهاية المطاف . وهذا هو عنصر المأسوسية في المقامرة - أي الاستئناس بالاذى والالم - والمقامر يتعامل مع

الصدف ويرى اللعبة قبل المثل أو الحب أو أية هواية مجدية أخرى . فالمقامر اذن متفائل ظاهريا ، ولا يتعظ بالخسارة لانه يحب الخسارة باطنيا ، وخسارته اليوم أو ربحه لا تعني لديه أي شيء : فهناك الغد . . . وبعد الغد . كان أحد المرضى يراجع طبيبه النفساني ثلاث مرات في الاسبوع للعلاج . ورأى مرة اثنين يقامران في عربة القطار ، وكان أحدهما يقش في اللعب ويربح . وعلى الرغم من تأكيد صاحبتا من ذلك فقد أضراهما اللعب واستأسدا فيه الداء فلعب مع الخشاش ذاته . . . وخسر بالطبع .

وعلى هذا الاساس ، لا يتوقف المقامر اذا ربح ، وهو البرهان على أن المقامر لا يمكن أن يصبح ثريا عن طريق القمار . ويقول مدير كازينو فرنسي شهير للمقامرة : « لولا استمرار المقامر على اللعب ، لما ربحنا نحن أي شيء اذ أن ربحنا نستمد من عدم توقفه عن اللعب سواء ربح أو خسر . . . » . والمقامر يشعر بالآثام الشعوري أو اللاشعوري . واستمراره على الخسارة أو تحطيم الذات هو جزاء شعوره بالخطيئة وعقاب لميوله العدوانية . وهكذا ، فالمقامر يجمع بين اللذة والالم ، بل هو يبحث عنها في اللعبة ، واثارة اللعبة وتسلاتها هي مزيج من الاثنين : اللذة . . . والالم وهما وجهان للمرض أو ثنائيه .

والمقامر نائر على والديه اذا كان من الاطفال المهملين المكروهين ، أو هو نائر على « الاقدار » حتى لو كانت ثورته بحجم عاصفة في فنتجان . لكنه يتحدى القدر لاشعوريا ، أو كما كان يعترف مقامر ديشوفسكي : . . . كانت رغبتي الغريبة أن أتحدى القدر . . . أن أوجه لكمة على أنف القدر ، وأبرز له لساني استهزاء ! »

وأخيرا ، فالمقامرة ليست مهنة . . . انها مرض نفسي خطير . ان درجة « الايمان » على المقامرة تروى لنا قصة قديمة للكاتب هوفمان في سنة ١٨١٩ ، أسماها (حظوظ المقامر) : كان أحد المدمنين على المقامرة قد تركها بعد جهد جهيد ، الا أنه عندما قارب الموت ، وأثناء زيارة القسيس له قبل مماته . . . كان أقرباؤه يلحظون باستغراب تلك الحركات اللاارادية التي يقوم بها وهو في حشرة الموت ، وكانت في الحقيقة حركات توزيع ورق القمار على المائدة مصحوبة بتمتمة من اصطلاحات اللعب وتعايره . . .

قوانين المقامرة :

منذ أدرك الانسان مخاطر المقامرة وضع لها القوانين التي تضبطها . وارتبط القمار بالشرف والمكانة ، فالذي يخسر عليه أن يدفع « دين الشرف » ، ومن لا يستطيع الدفع أو التعويض ، فقد أجاز له القانون البروسي - مثلا - أن يتسحر . والمفروض في القانون أن يحمي صحة المجتمع العقلية والاقتصادية ، والقانون المثالي هو الذي يحقق تلك الحماية ويجعل الألعاب المعروفة مجردة عن عنصر المقامرة والاجرام وذلك بالتحكم في الارباح ، ويجعل الألعاب تتم في وسط محترم ، ويحردها من الجشع والاستغلال من قبل المحتكرين . ونرى المحاولات الاصلاحية منذ القدم في بعض المقامرة . ففي انكلترا ، لم يسمح هنري الرابع بالمقامرة بالورق الا في أيام عيد الميلاد ، ولم يسمح بخسارة تزيد على جنيه واحد ، ولم يسمح للناس العاديين بالمقامرة اذا كانوا أقل درجة من الفرسان !

وتجمع القوانين الحديثة المقامرة قبل بلوغ سن الثامنة عشرة . والحقيقة أن الاطفال قلما يقامرون قبل بلوغهم سن البلوغ . وتخطط النساء بأقل كمية من المال . أما الفتيات فيضلعن ذلك بعد الزواج .

والمقامرون أصناف طائفة أن كل انسان يمكن أن يقامر يوما ما في حياته :

١ - المقامر العصبي المريض ، وهو المقامر القهري ، الذي شرحنا تفاصيل انفعالاته وميوله الشعورية واللاشعورية .

٢ - المقامر العرضي : الذي لا يمارس المقامرة الا عرضا للتسلية أو قتل الفراغ ، ثم يرجع الى أعماله الجدية السابقة .

٣ - المقامر المحترف ، وهو الذي يتجنب المخاطرة لانه يريد الربح لا المتعة ، يرتزق من المقامرين ويستغل المقامرة ، ومن هؤلاء أصحاب ملاعب القمار وبيع بطاقات اليانصيب والمتسكمون في ميادين السباق وأصحاب مشاريع اليانصيب الخ .



علاج المقامرة :

· وعلاج داء المقامرة ليس من الامور اليسيرة . وهو يتطلب تدخل القانون
الذي يجب أن يحيل المقامرة الى لعبة بريشة مجردة عن الربح واستغلال
المحتكرين ، كما ذكرنا ، وهذا من واجبات الدولة بالطبع .

وبأى دور الهيئات والمؤسسات الاجتماعية الاصلاحية التي تقوم بأدوار
التوعية والاعلان ضد المقامرة ، مع ابداء المعونة والعطف للمقامرين
التائبين . ولذلك تشكلت جمعيات غير علنية للمقامرين ، تضم الاعضاء
المقامرين التائبين وتشعرهم بروح الجماعة الهادفة للخير ، وتبهيء لهم
الاجتماعات والحفلات الهادفة والمسلية وتحارب فيهم الملل والخواء ، وذلك على
غرار خط جمعية التائبين عن ادمان الكحول والمخدرات غير العلنية أيضا .

كذلك يقوم علم النفس الحديث بمعالجة المقامرين العصاة والقهرين
باحدى العلاجات النفسية الدارجة ، وهي
أ - التحليل النفسي الفردي للمصاب الواحد .

ب - التحليل والعلاج النفسي الجماعي لجماعة من المقامرين .

ج - العلاج السلوكي التنفيري ، أي « بتعليم » المصاب بالمقامرة أن « ينقر » من
المقامرة ويكرها بوسائل نفسية خاصة .



المعقول واللامعقول في الجنون !

في معرض الهزل والتسلية تضيق الكثير من الحقائق ، وفي مجال النفور والضجر ينكمش العلم وينزوي . وتكون النتائج وخيمة لا يلتاح لها ويكتوي بنارها الا من يمر بالتجربة أو يصاب بمرض أو ينغمس في معالجته بحكم واجبه أو مهته . وقد ذكرت الهزل والتسلية بقصد والحاح لاسباب معروفة قد تمر دون التفات جدي لمقراها وأضرارها .

ففي معرض الفكاهة تلجأ الصحف والمجلات العربية ، وبعض الناس من صانعي النكات والكاريكاتير الى ابتكار قصص وطرائف بغرض التسلية وارضاء غرائز الجمهور لكنها غير واقعية ومن نسج الخيال والتصور وكأنها ممكنة الحدوث . والنكتة التالية تصور ذلك بجلالة :

صعد مجنون هارب من المستشفى مثارة بقصد الانتحار ، وراح جمهرة الناس في اقتناعه بالعندول عن ذلك . . الى أن جاءهم طبيب المستشفى بمجنون آخر ، فما كان منه الا أن نادى المجنون الاول قائلا : « اذا لم تنزل فسأقص المنارة بالمتشار ! وسرعان ما نزل المجنون الاول راكضا طائعا هلعا ! ! . . حكاية طريفة دون شك - ونكتة حارة ومسلية . . أليس كذلك ؟ ؟ . .

العربي العدد ٢٣٠ يناير - كانون الثاني ١٩٧٨ م ..

أما أنا فأقول بأنها حكاية « باردة » مصنوعة وموضوعة من قبل شخص عاقل لادخال السرور الى قلوب الناس على حساب المساكين التائهين ، فيها أبعدها عن حقيقة تفكير من يدعون بالمجانين ، وان دلت على شيء فعلى عدم تشهم جمهور كبير من الناس ماذا يجري في عقل المصاب وماذا يفكر به فعلا . وهذا ما ينطبق على معظم حكايات المجانين .

وسأتناول في معالجتى هذه القضية « المرض العقلي » ونظرة الناس اليه ، وموقف المجتمع والاسرة والاقرباء من مريضهم لما في هذه النظرة والاتجاه من تأثير حيوي على جهود أطباء النفس في العلاج والوقاية .

الجنون . . . والمرض النفسي :

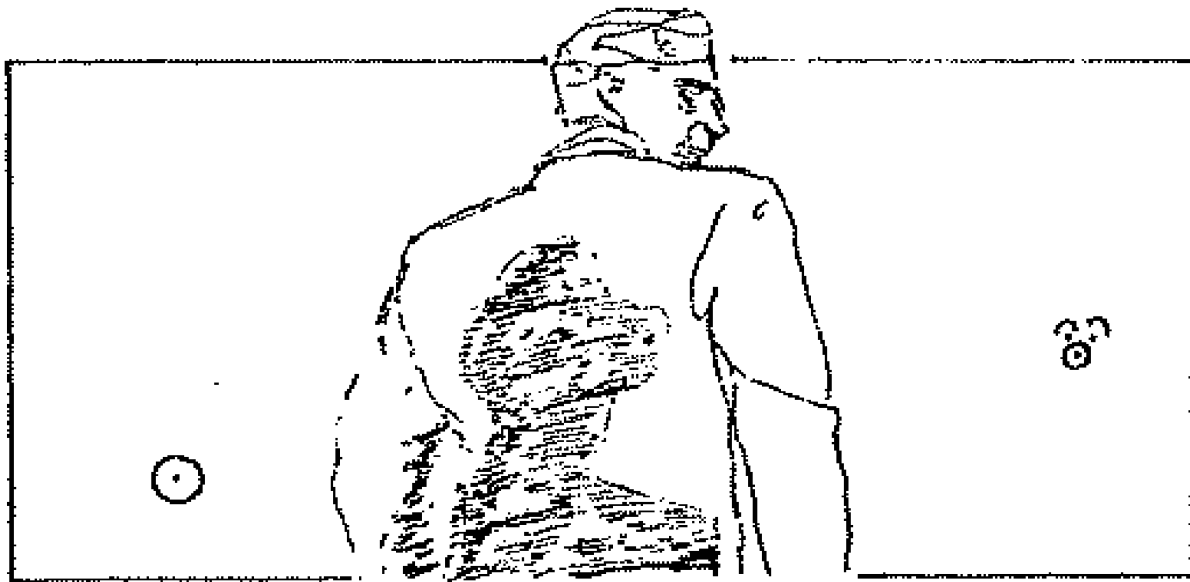
الجنون في الحقيقة ليس الا نوعا من الاضطراب النفسي ينظر الطب النفسي .

وللاضطراب النفسي درجات وأصناف ، لذلك يؤثر بعض العللاء تقسيم الاضطراب النفسي الى فصيلتين كبيرتين :

أ - الامراض النفسية (العصبية) ، وهي التي ينظر اليها الجميع على أنها اضطرابات خفيفة هينة العلاج . . « سليمة السمعة » اجتماعيا . .

ب - الامراض الذهانية (العقلية) ، والتي تعتبر مرادفة للجنون أو العته . . العميق الاثر والاصعب علاجاً . . و « السيئة السمعة » . اجتماعيا . .

وعند الاختصاصي بالطب النفسي ، لا فرق جوهريا بين المرض النفسي والمرض العقلي من حيث الاسباب ، فالتفكير هو العقل . . والعقل هو النفس . . ولا وجود لنفس وعقل في أي عضو من أعضاء الجسم عدا الدماغ . فنحن نشعر ونحب ونغضب ونستجيب ونفكر ونمرض بعقولنا . ومع ذلك فان المجنون كما هو متعارف عليه هو المريض العقلي (المصاب بالذهان) وأعراض الذهان تختلف دون شك عن أعراض العصاب النفسي بالرغم من أنها قد تشترك في كثير من العوامل فتشابه وتختلط بين الاثنين بصورة كبيرة . وما يمكن التأكيد عليه هو أن الجنون أشد حدة وعمقا وتأثيرا في تغيير سلوك الانسان وتفكيره وحياته ، وقد ينشأ أحيانا عن إصابة عضوية في الدماغ .



ما هو المرض النفسي (والعقلي) ؟

يمكن تعريف المرض النفسي بأنه : حالة من رد فعل ومواجهة لشدائد الحياة ، وآلام الذات . فالمرض النفسي هو استجابة غير طبيعية من الفرد تجاه ظروف وشدائد تقع عليه أو تحدث فيه أو هو « الحلل الانسب » أو « الموقف الملائم » الذي يلجأ اليه المريض تجاه الصعاب ولم يوفق الى غيره . ونحن نعرف أن الانسان السوي المماثل يواجه دائماً مثل هذه المصاعب ويستجيب لها . واستجابته هي « تكيف ناجح » يخلو من أعراض الامراض النفسية والعقلية ، بينما المريض النفسي يتكيف ويستجيب بشكل وصيفة هي المرض ذاته ، لانه لم يوفق الى التكيف الاسلام والاصح . ويرجع سبب عدم التكيف - أو سوء التكيف والمرض - الى عوامل كثيرة : بيولوجية - وراثية ، ومحيطية - اجتماعية ، وثقافية - خارجية .

ويمكن تقسيم كل عامل الى عدة عوامل ثانوية . وكل من المرض النفسي والعقلي يعني الاخفاق في التكيف مما يؤدي الى اضطراب التماسق والانسجام الذاتي . . . أو الانسجام مع الآخرين . . . أو مع المجتمع . . . مع اختلاف في الحدة والعمق والدرجة ، وتكون النتيجة شقاء الذات . . أو شقاء

الآخرين . . أو الاثنين معاً ، هذا عدا ما يصاحب المرض من شذوذ أو تحد
للمعرف أو مخالفة للمعايير والقوانين السائدة .

التفكير في المرض العقلي :

من المفيد جداً أن نعرف كيف يفكر المريض العقلي . ولا أدعي أن الطب
النفسي قد كشف بجلاء تام التسلسل المنطقي في تفكير المريض ، إلا أن الشيء
الأكيد هو أن تفكير المريض يستمد أصوله ومادته واتجاهه من تفكير الإنسان
العادي أو بالآخرى من تفكيره هو وحياته قبل مرضه . فلا شيء غريباً وجديداً
فيه إلا الأسلوب والصيغة المستحدثة .

وليس من العسير تفسير الأسلوب الجديد أو فهمه بالرجوع الى تاريخ حياة
المريض وما صادفه من شذائد وعقبات سواء بالتحليل النفسي أو بتسجيل
وتدقيق لتطور حياته العاطفية وعلاقاته مع والدته وأفراد أسرته وأقربائه
وأقرانه . . ومع مواطنيه . وبالدراسة النفسية والبحث الاجتماعي يمكن وضع
الاعراض الغريبة أو الشاذة في أطرها المناسبة وإيجاد التفسير المقبول لها .

فالمريض بالشك والالوهام والعداوات إنما يشعر بذلك نتيجة سلسلة من
تجارب وظروف مرت به فاستجاب لها بطريقة شاذة لا يلجأ إليها غيره من
الأسوياء . والذي يشعر أنه بدون اسم وشخصية وكيان ربما يتنكر لذاته
ويعقتها ، أو ربما يفقد كل أثر لارادة ذاته وحدودها . . والذي يؤمن أن عقله قد
ذاب وباطنه خالو ربما لانه يرى الآخرين قد طفخوا عليه فمحوا كل شيء حيوي
فيه . . والذي يعتقد أنه القوي الجبار أو المملك أو القائد الذي يأمر فيطاع وينهى
فيستجاب له ربما لان شعوره السابق بالتقص والضالة دفعاه الى رد فعل شاذ من
جنون العظمة . . وهكذا ، حتى حركات الايدي والاصابع وقسمات الوجه
ولمعان العيون هي رموز ودلائل لها مغزى ومنشأ لمن يريد أن يسبر غور النفوس
قبل السخرية منها . . اذن ، فالتفكير لدى مرضى العقول هو أشبه بتفكير
العقلاء مع فارق في التسلسل والشدة والتنوع والعمق والصراحة والأسلوب .
فالإنسان العاقل - الاجتماعي - لا يصبق على الارض ولا ينزع ملابسه أمام
الآخرين لاعتبارات كثيرة معروفة ، لكن المريض العقلي وصل الى مرحلة

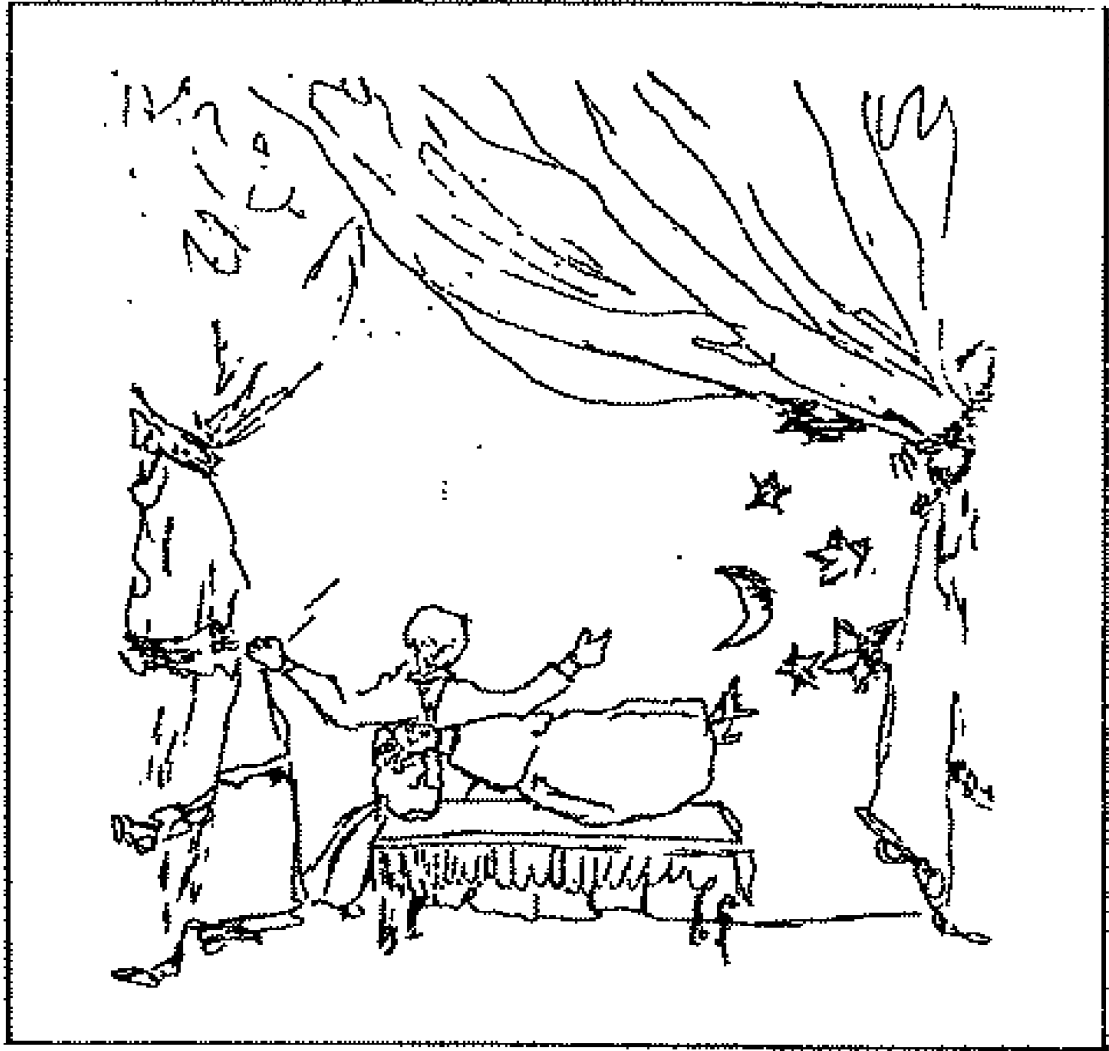
أصبح فيها لسان حاله وموقفه يقول : « أنا أحقر هذا المجتمع الزائف
الظالم . . انه يستأهل البصق . . ولا يستحق التردد والتجمل . . وأنا هكذا دون
ملايس . . فليخسأ المنافقون والمرءون . . فلاضحك كما أريد . . ولأتكلم
بصوت عال مسموع . »

يمكن القول إذن ، وببساطة أن المريض العقلي قد وصل مرحلة جديدة
من توازن القوى النفسية ومن المعادلات الجديدة ومن القيم الخاصة بحيث أنه
يقنع بالعيش في عالم خاص وسط عالم العقلاء . أما عند المشاهد السطحي فإن
عالم الجنون هو مجرد فوضى وأعمال مضحكة ومهازل تسلية . أما الدارس
المتعمق - والطبيب النفسي - فيدرك أن عالم الجنون يتضمن التفكير الرمزي ذا
المعنى والمعنى . . وأن ليس فيه ما يضحك بل ما يدعو للأسى والدرس
والعلاج . والانتاج الفني للمصاب بمرض عقلي يعكس أيضا جانباً من
تفكيره . . واللوحات الغريبة أو السريالية للفنانين الاعتياديين كثيراً ما تشابه
لوحات مرضى العقول . . ومعنى آخر إن حلقات الوصل في الانتاج الفني
لا تزال موجودة . . وأن بالإمكان فهمها أو تحليلها . .

دور المجتمع :

ان تفهم الناس لمأساة المريض العقلي ومعاناته ضروري جداً . بل هو
دليل ومؤشر لمدى تحضر الانسان ووجهه للبشرية وإيمانه بالمبادئ الاخلاقية
السامية وبالمعلم . فأين الحضارة والانسانية لدى قوم يعاملون المريض العقلي
بربطه بالسلاسل ونجويعه وجعله فريسة الظلام والرعب أو وضعه في جهاز دوار
يجلب له الدوار والغثاس والانهيار . وماذا يبقى للانسان من كرامة اذا كان
المرض العقلي سلاحاً تهديدياً يشهر ضد الانسان للاستيلاء على ميراثه وطمس
حقوقه وأفكاره ظلماً وبهتاناً ؟؟ . .

كان ذلك في القرون الغابرة . . أما الآن فإن دور المجتمع والناس في
معاملة مرضى العقول قد تغير ، وتبدل وجه المستشفيات العقلية الكئيبة
الرهيب ، وتحولت دور الشفاء الى ردهات اعتيادية داخل المستشفيات العامة ،
وأصبح المريض العقلي يتناول علاجه ويرجع الى عمله ويمش في داره وبين



أفراد أسرته دون فرق . وأصبحت سياسة « الباب المفتوح » هي السائدة في أنظمة المستشفيات العقلية . أي أن يدخل المريض المستشفى بمحض اختياره ويخرج منه متى ما أراد دون حجر وقيد الا بقرار من لجنة طبية ولفترة معينة وبشروط وظروف خاصة أهمها الخطورة على النفس أو على الآخرين ولكن هل تدعي أن هذه المرحلة قد بلغت الكمال المتواضع ؟؟ كلا ، اذ لا تزال نلمس ردود فعل عنيفة من الاهل والاقارب ومن الناس تجاه كل مريض عقلي . والنكته التي أوردناها في أول المقال هي واحدة من آلاف النكات التي أطلقها أولئك السطحيون على المجانين بكل قسوة وعدم اكتراث .

دور الاسرة :

ولعل دور الاسرة في المرض النفسي والعقلي من العوامل الخطيرة المهمة التي تحظى باهتمام الطب النفسي . وتتوزع هذه العوامل ونواحي ارتباطها بالمرض النفسي على ما يلي :

أ - مسببات المرض .

ب - واستمراريته أو إزالته .

ج - وعلى نجاح العلاج وفشله . .

فالعوامل الوراثية ، ثم التربية والبيئة تتدخل في تهيئة الفرد للمرض النفسي أو إبرازه . . أو في زيادة حدته ، فقد نجد الاستعداد لمرض انفصام الشخصية (الشيزوفرينيا) في شخصين ، الا أن أحدهما يستمر في حياته الطبيعية دون أثر للاضطرابات والمرض ، بينما سرعان ما تظهر أعراض المرض في الآخر بسبب أساليب تربيته وعلاقته مع والديه وأفراد أسرته .

ولو افترضنا ظهور المرض العقلي لدى شخص ما ، فإن ردود الفعل ومشاعر أفراد أسرته ووجدانها ستتدخل في مسار المرض وشدته . فالأم غير المتفهمة والاب اللامبالي أو المشاكس ، والجهل والقسوة يعرقلون الشفاء أو يقللون المرض الى حالة الازمان والاستمرار .

أما في المرحلة الأخيرة - أي عندما يكون المريض قد عولج بصورة جيدة ثم عاد الى بيته وأسرته ، فإن موقف الاسرة سيقدر مصير المرض وسيره دون شك ، وهو ما نريد التحدث عنه : فقد وجد أن مواقف الاسرة يختلف بعضها عن بعض بصورة ملحوظة ، فهناك الاسر المعادية الغريبة الاطوار التي تضع العراقيل - بعمد أو بغيره - أمام تحسن مريضها وكأنه قد أبل من زكام بسيط فلا تكثر لما هو فيه ، وهناك الاسر الواعية المتفهمة المدققة التي تجند نفسها لتكون بمثابة هيئة تمريضية عالية الكفاءة تتلقن التعليمات من الطبيب المعالج بكل طاعة وتقدير .

وهكذا نجد أن ما بينه الطبيب النفسي في العيادة والمستشفى يتوقف مصيره على ما تقدمه الاسرة من اساءة أو خدمة ، وليس من الغرابة أن نعرف أن بعض الاسر في العالم الغربي وبعض المؤسسات الخيرية والحكومية هي أكثر

خدمة وعطفًا وتفهمًا للمريض من ذويه أنفسهم . وليس من الغرابة أيضا أن نعرف أن هنالك أسرا تستقبل المرضى العقليين الغرباء بعد اكتمالهم علاجهم فتؤويهم عندها للعناية بهم مقابل أجور زهيدة ، وتقدم تقريرها للطبيب النفسي بين فترات معينة عندما يزورهم بصورة دورية ، مما يدل على مدى الحنان والتعاطف والتكاتف الانساني .

الحكمة والنتيجة :

إن هذا المقال دفاع ونداء دفاع عن الانسان الذي يقع فريسة المرض ويحتاج الى فهم ورعاية من قبل ذويه ومجتمعه ، ونداء الى من يتمتعون بصحة العقل الى التروي والتواضع « والتعقل » عند تعاملهم مع مرضى العقول . فالمسألة ليست بالسهولة الظاهرة ولا بالمتعة العابرة ، ولا بالتفاضي أو الغضاضة ، لان هناك الأدلة الكافية الشافية بأن كل فكرة وحركة يقوم بها المريض العقلي لها معنى ومغزى وأصل وهدف .

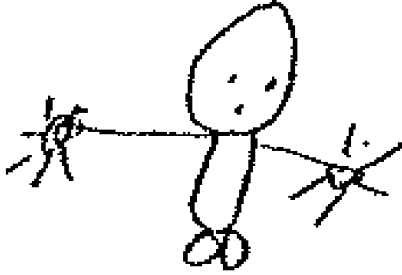
ومن علماء النفس وفلاسفته من يعتبر المرض بحد ذاته مجرد « موقف » حر من ظواهر الحياة وأمورها (ومنهم الوجوديون) ، وهنالك آخرون ممن يجازفون ويغامرون - بجرأة فيقولون إنه لا وجود لمرض عقلي - مثل زاس وجساعته في الولايات المتحدة الامريكية . ولكن الفكرة التي يجمع عليها كل علماء النفس والاجتماع أن المرض العقلي ليس فكاهة ولا تسلية ولا هو بالفوضى واللامعنى . . بل إنه يحتاج الى بذل كل الجهود والدراسات لمعرفة أسبابه وعلاجه .

وهنالك من المرضى الذين قدموا للطب النفسي خدمة جُلى عندما اكتسبوا الشفاء وسجلوا كل خواطرهم وذكرياتهم أثناء المرض فأفادوا أطباءهم ومجتمعهم ، وأذكر منهم على سبيل المثال المريض (كليفورد بيرز) الذي كتب مؤلفا ضخما يحوي كل ذكرياته عن جنونه وعن أوضاع المستشفيات العقلية التي تنقل بينها في أمريكا . ثم حمل بعدئذ لواء دعوة اصلاحية لتحسين أوضاع المستشفيات العقلية ، وليكن معلوما لدى الجميع أن المريض العقلي ليس بالابله الذي تمر به الاحداث وهو ساء عنها ، لان عقله يسجل كل شيء . . فلا ينسى

أهانة ولا ينفذها . . . ويعرف الجميل ويدرك الحنان والعطف . .
ان الانسان الذي كتبت عليه الحياة وأصبح عضوا في المجتمع يكتسب كل
الحقوق التي تتطلب الحفاظ على انسانيته وعقله ودوره المفيد المنتج في المجتمع .
فالسعادة ملك مشاع للجميع ومن حقوق البشر . . . ومن الاعتداء على تلك
الحقوق السخرية من مرضى العقول أو عدم الاكتراث بهم أو القسوة عليهم أو
استغلالهم . . .



طفولة مُهشّمة !



يكاد يجمع غالبية البشر على أن أعذب مراحل حياتهم هي مرحلة الطفولة ، لما تتضمنه من رعاية وحنان من الوالدين وخفة المسؤولية وانسراح اللهو والقيطة في اللعب ولذة الانطلاق والصفاء ، فهي إذا ما قورنت بمراحل المراهقة والشباب والكهولة والشيخوخة فاقتها جميعا بتلك المزايا وبزمتها بذكرياتها الخلابة الراسخة في ذهن الانسان .

على أن طفولة البشر ليست سواء ، فهي عند البعض مزركشة سعيدة ، وعند الآخرين بغيضة ثقيلة ، وعادة ما نجد أناسا كانت طفولتهم خاطفة قصيرة ، أو باهتة جافة ، أو قائمة شقية ، وتتجمع تلك الامثلة المحزنة لدى علماء النفس والتربية والاجتماع لتشكل ظواهر خطيرة تستوجب الدرس والمعالجة . وبين هذين النقيضين نجد نماذج متفرقة لطفولة خاطفة لامعة ليس فيها من مثابة الا سرعتها وجديتها وصرامتها . .

العربي العدد ١٩١ أكتوبر - تشرين الاول ١٩٧٤م

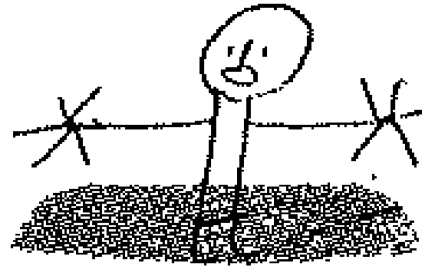
طفولة كبيرة :

قال المؤرخون عن الفيلسوف الاقتصادي والكاتب الانكليزي الشهير (جون ستوارت ميل) (١٨٠٦ - ١٨٧٣ م) ، « بأنه الانسان الذي لم يعرف معنى الطفولة » . والسبب بسيط جدا ، لأنه باشر طفولته واستغناها في أعماله تخص الشباب والرجال . فقد حرم من الاختلاط مع الاطفال الآخرين ، ونولى تعليمه والده المفكر المعروف في مسكنهم الخاص الى أن بلغ الرابعة عشرة من العمر . والذي حدث في تلك السنوات ما يلي :

في الثالثة من عمره ، بدأ يتعلم اليونانية ، حتى اذا بلغ التاسعة كان يدرس ويفهم روائع الفكر اليوناني القديم ويقدم تقريرا يوميا الى والده عما قراه .

وفي السادسة والنصف كتب بوضوح وسلاسة عن تاريخ روما .
وفي السابعة قرأ لافلاطون .
وفي الثامنة درس اللاتينية . وقبل نهاية السنة كان منهمكا في قراءة الادباء اللاتين . ولم يهمل الرياضيات إذ كان منهجه الهندسة والجبر .
وفي التاسعة أضاف إليها هندسة المخروط والكرة ورياضيات نيوتن .
وفي العاشرة ، كان أسلوبه بالكتابة يتم عن البراعة والالمية .
وفي الحادية عشرة كتب ملخصا لبلاغة الفيلسوف أرسطو ، وكتب متنوعات في النثر والتراجم والتاريخ . وقبل الثانية عشرة بدأ يساعد والده في تصحيح مسودات كتابه عن تاريخ الهند ، ومن ثم انطلق الى كتب الاقتصاد والسياسة .

وليست تلك الطفولة المبكرة بالظاهرة المريضة أو المنحرفة ، لكنها تعتبر طريقة وغريبة بالنسبة الى طفولات الآخرين . وكل ما نجيزه لأنفسنا هو التعليق عليها بأنها « طفولة مختزلة » نقصرها وسرعتها وخلوها من المرح واللهو البريء البسيط ، وأنها لم تكن طفولة محرومة أو مجردة من الحنان والعطف الابوي .



طفولة شقية :

وعلى الطرف الآخر من هذه الظاهرة تتجمع سحب سوداء ودلائل متجهمة - وخاصة في العقدين الأخيرين - تشير إلى أن مجموعة كبيرة من الأطفال يتعرضون للألم والشفاء من قبل ذويهم ليس بسبب الحرمان العاطفي فحسب ، أو لصعوبات الحياة أو الفقر أو فقد أحد الأبوين ، بل لأنهم يتعرضون إلى الضرب الشديد والأذى الجسدي فوق كل ذلك .

وقد تكشف هذه الحقائق المخزية تدريجيا عندما لاحظ الأطباء في مراكز الاسعافات الأولية وأطباء الأطفال والجراحين بأن بعض الآباء والأمهات يجلبون أطفالهم للعلاج بسبب إصابتهم برضوض أو جروح أو كسور مدعين أنها كانت نتيجة حادثة عارضة (كالسقوط أو الارتطام) ، وبعد الفحص الدقيق لا تحصل القناعة الكافية لدى الأطباء بأن الحادثة عرضية ونحوم شكوكهم حول احتمال تعرض الطفل إلى ضرب متعمد ، ولا يعوزهم لا الدليل الدامغ أحيانا بسبب تكرار ذويهم .

وضرب الطفل وإساءة معاملته ظاهرة متكررة عند الآباء والأمهات العنيفات بحيث أن البروفسور (هنري كمب) في أمريكا أطلق على الطفل المضروب اصطلاح : « الطفل المهشم » ومنذ ذلك الحين بدأ الأطباء في تدقيق حالات الأطفال المصابين . وقد بلغ العنف والقسوة إلى حد القضاء على حياة الطفل . فمن ٧٤٩ طفل مصاب وجد باحثون أمريكيون أن ١٠٪ منهم قد لقوا حتفهم نتيجة الضرب المتكرر ، ويقدر في بريطانيا أن ما لا يقل عن ثلاثة آلاف طفل يتعرضون إلى إصابات متنوعة في كل سنة ، وأن أربعين طفلا (٤٠) يموتون قبل بلوغهم عاما واحدا من عمرهم بسبب الإهمال أو العنف .

والمسألة ليست بالبساطة التي قد تبدو لنا ظاهريا ، فاثبات « الجريمة » والاعتداء يحتاج إلى أدلة ، وغالبا ما تفشل الدعوى المقامة على الوالدين في المحاكم لهذا السبب ، كما أن سياسة العقاب لا تجدي مع الوالدين لأن المعضلة تحتاج إلى معالجة نفسية اجتماعية لها ، ولذلك فإن حوادث الاعتداء على الأطفال لا تصل منها إلى المحاكم إلا نسبة ضئيلة تقدر بـ ٥٪ من المجموع الكلي .

وقد أشارت دراسات حديثة الى أن أغلب الاطفال المعرضين للاصابة المتعمدة من قبل ذويهم تتراوح أعمارهم بين الثانية والرابعة من العمر ، وأن هذه الحالات في تزايد - ربما بسبب الحذر والتدقيق اللذين كشفنا عن المستور منها - وقد بلغت في (١٩٧٣) ٤٦٠٠ حالة في انكلترا فقط .

نوع الاصابات :



قد يندهش القارئ اذا عرف نوع الاصابات التي يتعرض لها الطفل المضروب فهي واحدة أو أكثر مما يلي : كسور في العظام ، سحبات وكدمات وخدوش ، حروق على القفا بالكهرباء والسجائر ، كسور في الجمجمة ، تمزق في الكبد ، انفجار في الامعاء والمعدة أو التسمم .
وأورد الحادثة التالية كمثال على ذلك :

« طفل رضيع عمره ثلاثة أشهر ونصف أدخل الى ردة الاطفال لاصابته بنزف دماغي تحت أغلفة المخ أدى الى قلة السمع والرؤية والى تخريب أنسجة المخ وثبت أنه تعرض للأذى من قبل والدته .

وقد توفيت الطفلة (ماريا كولويل) في مدينة (برايتون) الانكليزية سنة (١٩٧٤) بسبب المضرب العمد وقد تساءلت إحدى المرضعات الرقيقات مرة : « ترى أي صنف من الناس يمكن أن يرتكب هذا العمل الشنيع ؟ » ، وهو سؤال يراود كل انسان عطوف .

نوع الوالدين :

أجريت دراسات متعددة ومتفرقة لمعرفة الطبائع والشخصيات وأمراض الآباء والأمهات هؤلاء « الاطفال المهشمين » ، وظهرت نتائجها متقاربة ومتفقة على أن ذويهم يعانون من اضطراب نفسي أو عقلي بشكل من الاشكال . فمثلا : ان حوالي ٣٠ - ٦٠٪ من هؤلاء كانوا أنفسهم عرضة للضرب والاذى من قبل ذويهم نتيجة التهيج والغضب أو أثناء تناولهم الخمر ، بل إن المثال الذي أوردناه سابقا كشف عن أن الضرب والاعتداء والقسوة كان عادة مكرورة في خمسة أجيال في تلك الاسرة وكأنها صفات متوارثة أو طقوس لا بد من أدائها ، وهي بالطبع لا تنتقل بالوراثة بل تدل على أن القسوة تولد القسوة والعنف يؤدي إلى العنف .

كما أظهرت الابحاث والدراسات النفسية لذوي الاطفال ان معظمهم عاجزون نفسيا وغير ناضجين عاطفيا وينقصهم الصبر والتحمل والشمور بالمسؤولية . وقد لوحظ أنهم عادة ما يكونون عديمي الخبرة ومن طبقات اجتماعية دنيا ، أو أنهم فوجئوا بالاطفال قبل الاستعداد الفكري والعاطفي لتربيتهم ورعايتهم ، ومن دراسة احصائية اتضح أيضا : أن حوالي ٦٥ - ٧٥٪ منهم يعانون من اضطرابات الشخصية .

وأن حوالي ١١ - ٢٩٪ منهم لهم سوابق جنائية مسجلة لدى الشرطة . وأن ٥٠٪ من آباء غير اجتماعيين (سايكوباتيين) Psychopaths . وأن ٤٨٪ من الامهات عصبيات يعانين من قلق مزمن ، كما أن نسبة كبيرة منهن من ذوات الذكاء المتدني أو تحت المتوسط .

وتدل كل هذه الاضطرابات النفسية على عدم توافر الكفاية والقابلية في الوالدين لتربية الطفل وتحمل صراخه أو استيقاظه في الليل أو مرضه أو صحبه أثناء اللعب . والخلل واضح في هؤلاء الآباء والأمهات كسما هو واضح في الاجداد . . .

ويبدو أن جهل الوالدين وانخفاض ذكائهم وتسطح عواطفهم وقلة خبرتهم وتربيتهم السابقة ووجودهم في مجتمع مادي حاد المنافسة (وهو المجتمع الغربي) قد دفعهم إلى معاملة الطفل وكأنه شخص بالغ ومعاد .

ان ظاهرة ضرب الاطفال الى هذه الحدود الفظيعة قليلة الحدوث في البلاد العربية على الرغم من وجودها بين حين وآخر ، مما يدل على أن الاسرة الشرقية والعربية لا تزال تحتفظ بدرجة كبيرة من التماسك والتأزر والمحبة . فأواصر الاخلاق والدين والمثل السائدة تمنع الوالدين من التفريط في أطفالهم الى حد التشويه .

مصير الطفل المهشم :

ان الأذى النفسي للطفل المهشم أشد وأعمق من الأذى الجسدي . فهو يتراوح بين الحرمان العاطفي والحسي والشعور بالكراهة السطحي للابوين ، والخوف الشديد والكبت العنيف ، والميول العدائية تجاه الآخرين ، والسلوك الجانح والاجرام في المستقبل .

ان ضرب الطفل الى هذه الحدود يدل على اضطراب عائلي شنيع وعلى خلل في الاسرة بعيد المدى والنتائج . ولكن ماذا سيحدث في شخصية الطفل المصاب بعدئذ ؟

يقول الباحث النفسي - الاجتماعي (بولبي) إن الحرمان العاطفي والبعد عن الأم أو الأب ، والاسرة المشتهة (أي المهشمة بالفراق أو الطلاق أو الموت أو الحوادث) تحدث في الطفل اضطرابا نفسيا وخصوصاً اذا وقع هذا الحرمان في السنوات الخمس الأوليات من حياة الطفل .

وتركز نظرية (فرويد) على مراحل الطفولة في السنوات الاولى وما يتعرض له من تجارب مختلفة تؤدي به الى الكبت والعقد المختلفة ، أما ابنته (أنه فرويد) ، فقد أكدت على أن تكيف الطفل ونضجه ونموه الجسدي والعقلي يعتمد على حسن علاقته الوجدانية مع الأم بخاصة والابوين بعامة .

وتضيف (هيلين دوتش) أن احترام الذات والصراعات النفسية هي نتائج العلاقات العاطفية ونوعيتها بين الابوين والطفل .

أما الدراسات الاجتماعية والنفسية عن الجنوح والاجرام فتدل على وجود علاقة ايجابية بين الطفولة النعمة المعزقة والميل للاجرام والسلوك اللااجتماعي والادمان والعنف . وقد ثبت من دراسة في انكلترا أن الاطفال الصغار الذين

تعرضوا للحرمان والخوف والاهمال بسبب الظروف المعصية للحرب العالمية الثانية وبخاصة السنوات ١٩٤٠ - ١٩٤٣ أصبح معظمهم من المخالفين واللاجئين والمنحرفين ابتداء من سنة ١٩٤٨ وبمدها ، أي ابتداء من بلوغهم من الثامنة

فالسنوات الخمس الأوليات من حياة الطفل ونوعية علاقته الوجدانية مع والديه وأسرته وما يتخللها من حوادث وتجارب ترسخ في نفسية الطفل وتحور من شخصيته واتجاهاته ونظراته الى الناس والمجتمع والحياة ، وتتضح الآثار السيئة بعدئذ في فترة الصبا والمراهقة والشباب .

والحل السليم . . .

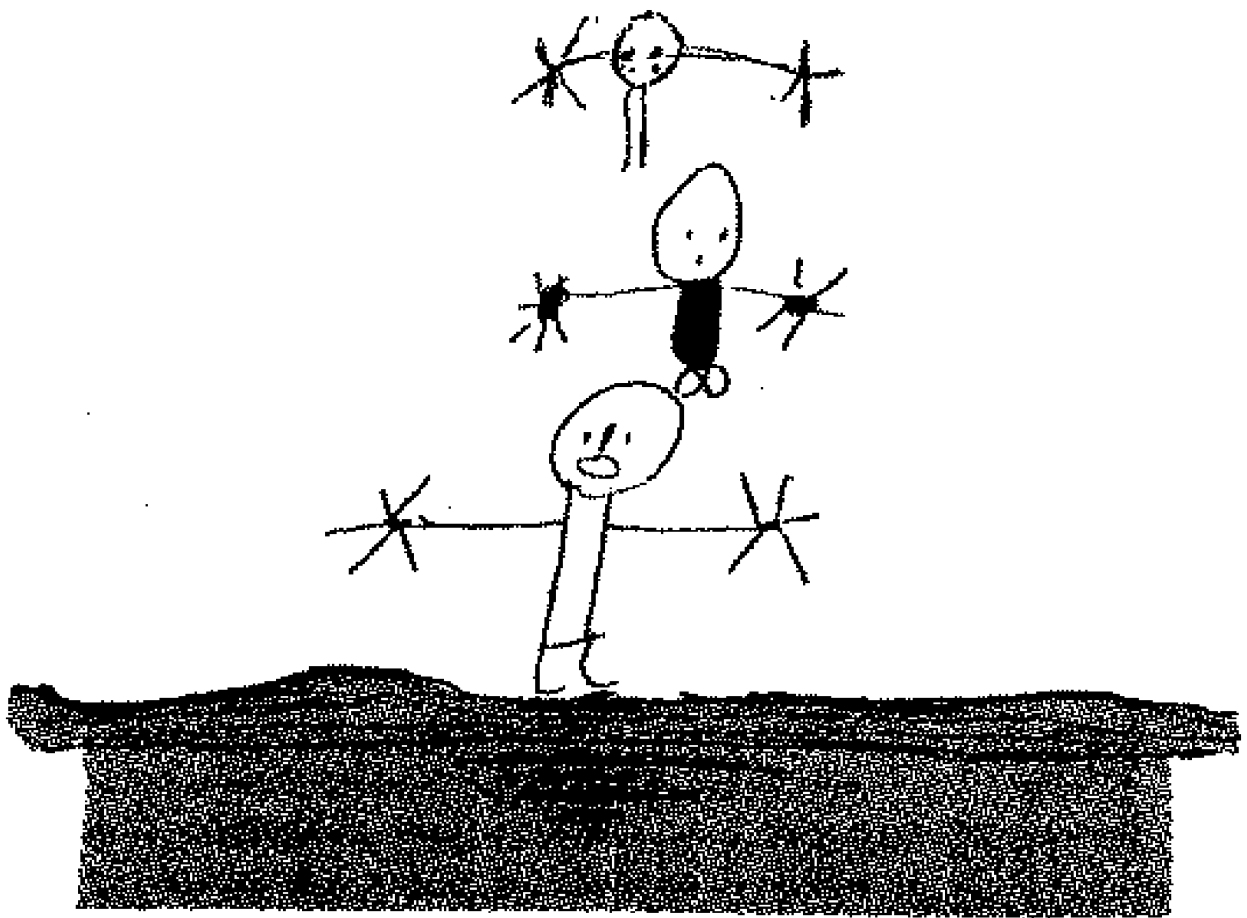
ليست الحلول بالهينة اذا أردناها عملية تطبيقية بعيدة عن الخيال والنظرية الصرفة . فحقوق الآباء والأمهات نقرها جميع الأديان السماوية والقوانين البشرية ، والأم التي تنجب طفلها لسان حائها يقول : « هذا ولدي . . ولي حقوق عليه . . . » ولكن الى أي مدى يمكن الاسماع الى الاطفال . . ؟ . فالتسليم الدينية والاخلاقية والقانونية والاعراف الاجتماعية لا تؤيد الاعتداء ولا تمنح الحقوق لجهة وتحرمها من أخرى ، وتوصي بالعطف والرحمة .

ولقد وجد في علم النفس والطب النفسي أن أواصر المحبة والالتزام بالتبعية والمسؤولية تجاه الأسرة هي القوى الحساسة الدقيقة التي تزيد من متانة الأسرة وتعاطف أفرادها فيما بينهم ، ومن ثم ازالة شوائب الامراض النفسية المستقبلية ، وأية ميول غير اجتماعية أو إجرامية . فكيف نتوصل الى ذلك ؟ . .

١ - باكتار مراكز ارشاد المتزوجين الجدد التي تقدم لهم الحقائق الاولى والعلمية عن الحمل والولادة والزواج .

٢ - بتوعية الوالدين وبخاصة الأمهات عن طريق عيادات الأم والطفل وتنظيم الأسرة لكي تعرف الأم أصول الرضاعة والعناية الطبية ، وليستطيع الوالدان تخطيط انجابها للاطفال ، وعندما نقول (تنظيم الأسرة) فيجب ألا نقع في مغالطة (تحديد النسل) لأن التنظيم يشمل التحديد عند الحاجة ويشمل الانجاب والاكثر من النسل عند الحاجة أيضا ، بالاضافة الى كل التعليمات

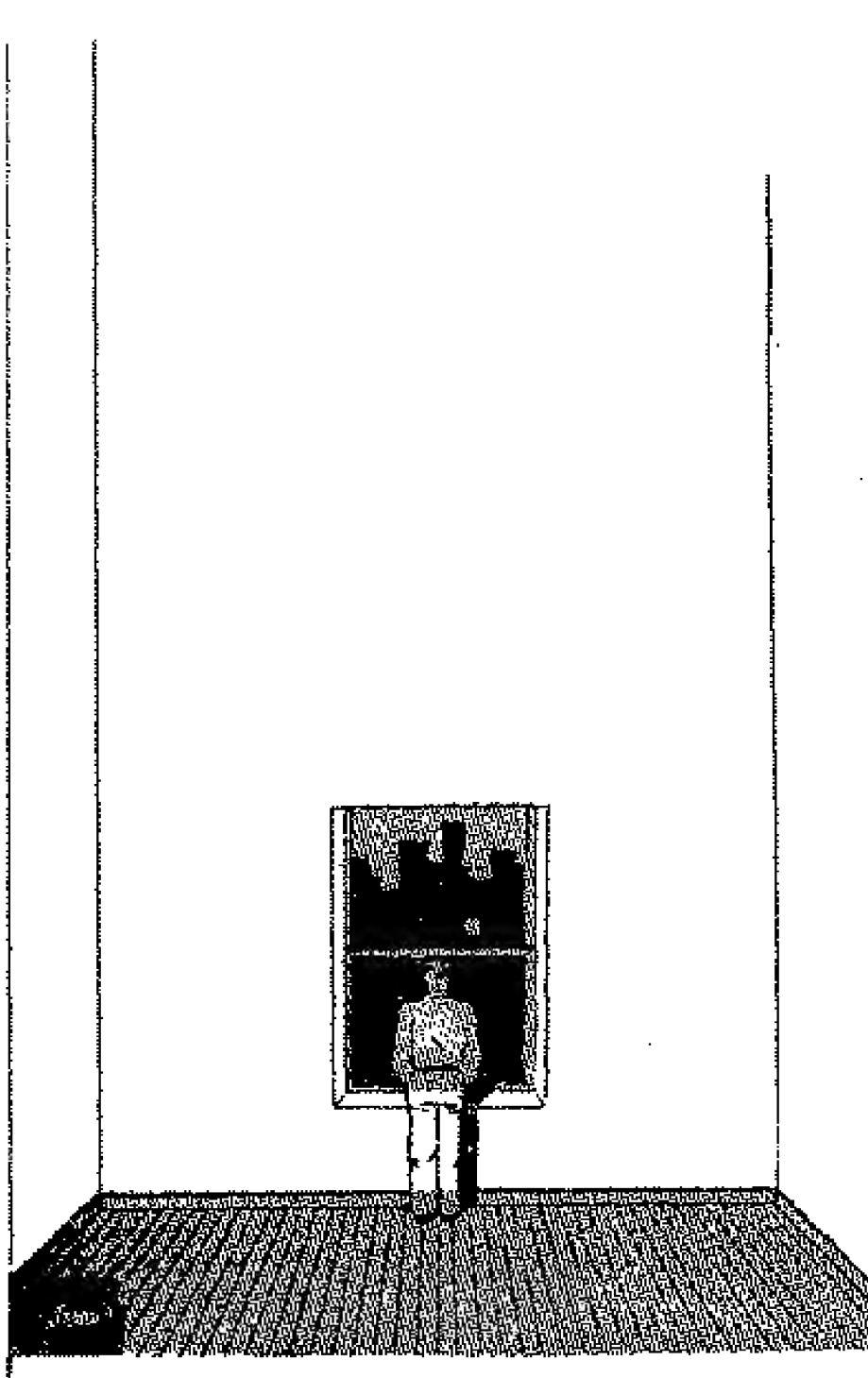
- الصحية البعيدة عن الدجل وخرافات المعجائز .
- ٣ - تعزيز الخدمات الاجتماعية التي توفر للأطفال دور الحضانة ورياض الأطفال والملاعب العامة والحدائق الترفيهية بحيث يتمكن الوالدان من التمتع بأوقات الفراغ مع ضمان سلامة أطفالهما وسعادتهما .
- ٤ - استمرار التوعية والتثقيف الصحي والاجتماعي للوالدين عن طريق المذيع والتلفاز والصحافة بأهمية الطفولة ومعنى الأمومة ، والنتائج السيئة للأهمال والقسوة ، وكيف أن الرسالة السيئة تنتشر من الكبار إلى الصغار ، وأن الطفلة التي لم تتلق حنان الأمومة من والديها لن تكون الأم المثالية في المستقبل .
- ٥ - علاج حالات الآباء والأمهات المصابين بالأمراض النفسية المعروفة



• الفصل الثالث •

اتجاهات نفسية واجتماعية :





الرفض بين الإيجاب والسلب

القاعدة تقضي أن يهب الإنسان ما يملك ، لا ما يملكه الآخرون . .
والمنطق أن يرفض الإنسان ما يعتقد أنه ضار أو فاسد أو باطل . . .
أما أن يعرف الإنسان ما يملك ، فهذا أول متطلبات الحكمة . . ومن لا
يعرف مقدار ملكاته وماهيتها كان مخلوقا ساذجا أو جاهلا ، وأما أن يعرف
الإنسان الضار والفساد والباطل ، فهي أدق متطلبات الحكمة ، ومن يريد
رفض شيء قبل اكتساب حكمة المعرفة تلك ، كان أيضا مخلوقا ساذجا أو
جاهلا .

أقول هذا ، لأنني أرى - كما لا يرى غيري - أن كثيرا من الناس يهبون ما
لا يملكون ، ويرفضون ما لا يعرفون . وأصبح « الرفض » سلوكا مرحليا يراقا
كمستحدث الأزياء مثلا . . وأصبح الرفض مقشرة ولازمة لأعمال قسم من
الادباء والشعراء والتفاد وكذلك - وهو الأسوأ والخطر - في تصرفات بعض
الشباب .

العربي العدد ١٦٠ مارس - آذار ١٩٧٢ .

الرفض البناء :

ولا أريد الادعاء أن الرفض عمل متكرر أو مستهجن ، لأن أروع الأعمال وأعظم السير وأخلد الحوادث تكونت من نقطة الرفض ومن طاقاته ،
الإنبياء رفضوا أوضاعا فاسدة أو ضارة أو باطلة . . المخترعون والعلماء والرواد
رفضوا نظريات جامدة أو ناقصة . . المكتشفون رفضوا العيش ضمن جغرافية
محدودة وحياة رتيبة مملة . . مشاهير الكتاب والأدباء ، والمجددون في القصة أو
الشعر رفضوا بعض الأساليب الوضعية المتكررة الحاملة . . وآخر المصلحون
في كل مكان رفضوا النظم والسياسات التي كانت تذل الإنسان أو تسيء إلى تمتعه
بديمقراطية اجتماعية واقتصادية وثقافية ، والجميع رفضوا وحاربوا الرياء
والدجل في كل شيء .

الرفض إذن هو لب أعظم الأفعال ، إلا أنه رفض مشروع ومعقول ،
وشرعية هذا النوع من الرفض أنه ترعرع بفعل عوامل ملحة ، وكان مهضوما
ومدروسا لا اعتباطيا أحق ، وكان يرمي إلى الإصلاح والفتاة الأعم أو دفع
الاذى ومكافحة الشر الخطير ، ومعقولة هذا النوع من الرفض أنه في البناء
الحضاري للمجتمع والعالم .

الرفض الطفولي :

إن بعض الأطفال يرفضون الذهاب إلى المدرسة مثلا ، وأصبح هذا
النوع من الرفض مرضا نفسيا يدهي به رفض المدرسة ، وللمرض النفسي
أسباب ودوافع لا ريب فيها . . وقد تكمن في المدرسة نفسها فتتفرق التلميذ من
الاقتراب منها ، وقد تكمن في البيت والأسرة التي تجلبه إليها وتمرقل اندفاعه أو
مودته نحو المدرسة ، ومعظم الدوافع والأسباب يمكن معالجتها بالوسائل
النفسية ، وينقلب الرفض بالنهاية إلى ألفة وانسجام ، ويقعد الرفض المدرسي
وأمثاله من الأمراض النفسية للطفولة ظاهرة مرضية تستوجب المعطف والرعاية
الطبية - النفسية .

وما يروعننا ويشير اهتمامنا ، هو الرفض العفوي الارعن ، الرفض الذي يمارس علنا ويوحى واصرار . فرفض المدرسة يستاء من سلوكه ويتعجب لتوجهه وإحجامه . . أما الرفض المعاصر فأنه يبارك نفسه ، ويشعج من توجس الآخرين وإحجامهم عن مجاملته أو تشجيعه ! .

الرفض المعاصر المريض .

والرفض المعاصر المقصود هو واحد من ممتلي الجماعات الجديدة التي أطلقت على نفسها (الهيبيز) والد (بيتلز) - الحنافس - والد (بيتشك) والد (البروفوك) . وهو يتسلخ ويتبرأ من أسرته ومجتمعه والنظم السائدة فيه ، لينساق وراء أسرة وجماعة ونظام آخر يتميز باللامبالاة والارادية والممارسات الجنسية الفاضحة والادمان والعنف والاجرام .

يقول (الرفض المعاصر) : أنا أرفض التعليم ، وأسخر من العلم ، ولا أكرث بالاخلاق ، وأتحدي السائد المزيف ، وأتكر للمعادات والتقاليد البالية ، وأحارب الظلم والاستعمار والفرقة ، وأتبرأ من رجعية آبائي وأجدادي وجهودهم ، بقول ذلك ولا يفعل شيئاً جاداً تجاه ذلك . هو يرفض التعليم الجامعي لأنه فاشل . . ويسخر من العلم ولا يطمعه بالاخلاق . . ويتخذ النظم والتقاليد ولا يقترح كيف يريد أن تتطور وكيف يجب أن تكون . . ويحارب الاستغلال والفرقة وهو مستلق على أعشاب حديقة أو حقل منعزل وبجانبه فتاته التي تتبعه كالشاة الراكضة وراء خروفي .

أفكار مثالية وحلول خيالية . . مبادئ عالية وممارسات دنيا . . اقتراحات مبهجة وأعمال تعسة . عالم من المتاع والضياع والتذبذب . . مجتمع من المتراجمين الناكسين . . جزر بشرية تطفو على بحار من الامجاد والتضحيات القديمة . . وأعجب ما في هذه الجزر البشرية أنها تعوم على أذرع الآباء والأجداد المساكين ، وترقد في أحضان الحضارة والحنان التليد . . وتقنات بل وتستجدي من تلك المدنية التي يتكرونها ، ومنظر الرفض المعاصر وهو يستجدي القروش القليلة من المارة (غير الراضين) يحسم ازدواجية الرفض المعاصر وانحلاله ، ويعمور هامشية حياته وتطلقه على الناس والمدنية التي يدبر لها

ظهره .. ولكن ، يمد إليها يده !! .

الادب الغاضب :



والحديث عن الرفض يجرنا الى أدب الرفض الذي يضم كتابات لمجموعة من الشباب الغربيين أطلق عليهم « الجيل الغاضب » من الكتاب ، وأصبح بعضهم من كتاب « اللامعقول » و« مسرح » اللامعقول ، وهم موزعون بين ألمانيا وفرنسا وإنكلترا وأمريكا . . وأحدث إنتاجهم صدى مقبولا لدى القراء ، واحتل مكانا مرموقا في الادب المعاصر . وما يجب أن يقال عن هذا النوع من الادب أنه لا يمت بصلة أو يتجاوب مع حياة الراضين الهاربين الأنفي الذكر وآمالهم وأفكارهم ، كما أن كتابه لا يتمون الى تلك الجماعات لا بالهيئة ولا بالمضمون ، ولم يؤلفوا فيها بينهم جماعة أو اتحادا أو اتفاقا منهجيا ، بل إن كتاباتهم تواجذت وتجاوبت بطابع تلقائي عام . ومثل هؤلاء يصحح أن يطلق عليهم « الراضون المادفون » لما في إنتاجهم من تجديد وبناء ومعنى وعمق ، وقد ذكرنا سابقا أن الاعمال المجيدة لم تكن الا نوعا من الرفض المنتج ،

لفضبتهم هو تعبير عن إدراكهم العميق لتناقضات مجتمعهم ، وأدبهم ومسرحهم هو صراخهم وتحذيرهم وتمردهم ، ولا معقولهم هو تصوير صادق للامعقولية مجتمعهم ، انهم يتعاملون بشيء جدير بالاهتمام والدرس مقابل ما يرفضون خلافا للرافضين المعلولين الذين يرفضون ويتعاملون دون مقابل .

الرافضون المقلدون :

وهناك « الرافضون المقلدون » الذين ابتلى بهم مجتمعنا العربي الناصي في شتى ميادينه الفكرية والاجتماعية ، فمن « شاعر - ناثر » يفهم الرفض كلاما نايبا مفتقرا للذوق . . أو سليطا متعقا غريب التعابير ، ومن أديب رافض يتحو نفس المنحى في مقاله أو قصته أو نثقه . . ومن شاب مراهم يحاول رفض أي شيء بارتدائه غرائب الازياء أو بارخاء شعره واكتناز قذارته .

هؤلاء الرافضون المقلدون مجموعة من السذج أو الجاهلين الذين لا يعرفون ما يملكون ويرفضون ما لا يعرفون ، فلا المطبوعات ولا الافلام السينمائية يمكن أن تحمل الفرد العربي غريبا حقا الا في الخيال ، والمجتمع الغربي ليس مجرد صورة في صحيفة أو واجهة مخزن تجاري كبير ولا هو بظاهرة هينة يتمتع بها السائح العابث ، الحياة الغربية تجربة عميقة لا يحسها الا الغربي الاصيل . . فالتقاليد . . والانتاج غير الاصيل . . والرفض الساذج . . كلها أشياء عجوجية ومنفرة وغريبة على المجتمع العربي . وهنا يكمن الداء الذي يجب أن نشخصه ونعالجه على مستويات الفرد والجماعة والدولة .

ولو اعتبرنا ظاهرة الرفض مرضا نفسيا ، لكان علينا الامر . . ولكن البلية أن الرافضين من هذا النوع يجادلون ويتبارون في النقاش والدفاع عن انتاجهم أو سلوكهم ، ويتذرعون بالحرية الشخصية . . وما أكثر ما للحرية من معان وتفسيرات . .

سيكولوجية الرفض والمريض :

أقول لو اعتبرنا ظاهرة أو « موضحة الرفض » مرضا نفسيا ، لكان الواجب

علينا أن نستقصى أسبابه ، فالظواهر المرضية تنبع من ظروف تبرزها ويمكن معالجتها . وقد تكون الاسباب واحدة أو أكثر مما يلي :

١ - الشعور بالفراغ والحناء الفكري والعاطفي ، ويعزى ذلك الى ارتخاء الضبط التربوي ، وإلى الحرمان وتفكك الأسرة وسيطرتها .

٢ - الفشل والخيبة في الحياة العامة .

٣ - الشعور بالنقمة تجاه الناجحين واللامعين .

٤ - الانفعال المدائي ضد السلطة والآباء والذين يمثلون القانون والنظام والعرف السائد .

٥ - التحدي - بالفعل أو القول - لكل كيان منظم ومنسق .

٦ - الإصابة بأمراض نفسية مزمنة كالقلق والمصاب ، والتي تمهد للانجراف نحو الأدمان والأجرام وإلى الحرب الاجتماعي .

٧ - عدم الثقة بالذات والمواطنة وبالاتجاه الطبيعي ، مما تدفع بالمرء إلى المحاكاة والتقليد وإلى الاحتفاء بالجماعات الشاذة أو المصائبات الإجرامية .

٨ - رفض الاحسان ونكران الجميل الذي يقدمه لهم مجتمعهم أو مؤسستهم الانسانية كنتيجة حتمية لشعورهم بالائتم والتقصير . أي أنهم - علاوة على انهم - يريدون حفظ ماء وجههم ومواراة عجلهم بالنكران والاستعلاء !

٩ - انعدام الوازع الديني والاخلاقي الذي يشد القسود الى المجتمع والأسرة ، ويحث على العمل والكفاح .

هل من علاج ؟

لعل في قول يوجين يونيسكو - أحد زعماء مسرح الاعمق - التصوير الدقيق لاضاع المجتمع الغربي إذ يقرر : « المجتمع الاعمق هو الذي لا غاية له . . وهو المجتمع المنفصل عن جذوره الدينية وتقاليده . وفيه يكون المرء ضالعا . . ولا معنى لكل ما يصدر عنه ، ولا فائدة ترجى منه » .

والرافضون الخارجيون الذين تحدثنا عنهم هم الجيل الضائع المنفصل عن جذوره التاريخية والدينية وتقاليده ، وما يصدر عنهم لا معنى له في الحقيقة ،

وفقدان المعنى وغموضه أحيانا هو ما يحاول عرضه ونحسيمه الكتاب الغاضبون ، أو تشيله على مسرح اللامعقول ، لكن ما الذي يحاول نحسيمه وتصويره الكتاب المقلدون وهم لا يزالون في مجتمع يعيش مرحلة تختلف بكثير عن المجتمع الغربي ؟ . لقد تسرع يونيسكو عندما جزم باتعدام الفائدة وفقدان الرجاء . . اذ لو صحح ذلك لتلاشت الفروق بين الرافضين التائهين والناس الآخرين ، بل لاصبح سلوك الضائعين والمقلدين أقرب الى الصواب من سلوك الراشدين الملتزمين ، وهنا يتجلى الفرق بين اليأس المهزوم من جهة والمتفائل الصامد من جهة أخرى .

ان التجديد والاصلاح ، وأبحاث التربية وعلم النفس والاجتماع تحاول بجد وتفاؤل تعديل الاوضاع الفاسدة وتقومها وازالة التناقضات واصادة المجتمع الانساني الى دروب الخير والعدل قبل أن تتركه وتعكر صفوه تلك الجماعات « اللاعاقلة » .

والجواب على ذلك كامن في التربية البيتية ، في التعاليم الاخلاقية والدينية ، في احترام القانون ، في الاصاله ، في الاعتزاز بالتراث ، وفي الاتيه القويم .



عُكازات واقنعة !

نظرة خاطفة الى انسان العصر وسلوكه وأخلاقه ومواقفه تثير في التأمل
المفكر تساؤلا واحدا على الاقل من بين عشرات التساؤلات الخطيرة وهي : أين
شخصية الانسان الاصلية . . . ، ومامقدار الطبيعي والجوهرى من خلقه
وسجاياء . . . ، ومامقدار المزيف والمكتسب والظاهرى منها ؟ .
وباستعراض سريع وشامل لسلوك البشر ، ستصاب حتما بخيبة أمل
عندما نجد أنه كلما قطعت البشرية عقودا وقرونا من الزمن فانها تفقد من الجوهر
وتزيد من المظهر المصطنع ، وتضيع بين القشور وتتحلر الى الخداع : خداع
الذات وخداع الآخرين .

العربي العدد ٢٤٢ يناير - كانون الثاني ١٩٧٩ م .

الاغريق . . . والقناع

ونحن نعرف من أدب علم النفس أن اصطلاح الشخصية Personality مشتق من كلمة Persona الاغريقية والتي تعني (القناع) ، والقناع في تلك الحقبة من الزمن كان يضعه الممثلون على وجوههم أثناء تمثيلهم المسرحيات المختلفة باعتبار أن كل قناع يدل على (دور) الممثل وشخصيته : فهذا إله . . . وذاك وحش . . . وذلك فارس . . . وتلك فتاة . . . وأخرى زوجة . . . وآخر مهرج . . . وهكذا . . .

وقد كان تفكير الاغريق منطقيا وواقعا باعتبارهم أن سجايا الشخص تبدو في تعابير وجهه وسحته ، أو أن دور الشخص يتحدد بالقناع الذي يضعه ، واكتشف علم النفس الحديث كذلك أن الشخصية البشرية غالبا ما تخفي وراء الاقنعة فلا ترى من حقيقتها الا ما ظهر منها وليس ما بطن .

وحياتنا اليومية تثبت ذلك ، فالشخص الاجتماعي (المهذب) هو بالحقيقة يمثل دوره الاجتماعي وراء قسما وجهه وتصرفاته بعد مسيرة طويلة وشاقة من التمرين والتعليم في البيت والمدرسة والمجتمع ، نحن نبسم ونجامل ونحبي ونتلفظ بكلمات العفو والشكر مهما كان شعورنا الحقيقي الباطني ، نحن نمثل الادوار التي صممتها لنا ووزعتها علينا ظروف الحياة التي نعيشها في أطرها وهي أطر التقاليد والعرف والقانون والاصول والعادات ، ومن هذا المصنع تنتج الاقنعة المختلفة وتوزع على الناس كما توزع الادوار على الممثلين ، ولهذا



فإن قول أحد علماء النفس « كلنا نضع الاقنعة صحيح جدا ، لكن توزيع الادوار والاقنعة الذي يتم بحكم التطور الحضاري والوضع الاجتماعي والأسري شيء ، ووضع الاقنعة الذاتية المصطنعة لأغراض خاصة شيء آخر »

التوكؤ على الاشخاص والاسماء :

فهناك من الناس من يضع الاقنعة التي تناسبه ويرسم الادوار التي يريد أن يمثلها عن قصد وتدبير ، كما يحدد الممثلة التي يريدتها والعكازات التي يستند إليها في درب الحياة لتحقيق مصلحته ، هؤلاء هم الذين يستخدمون الاقنعة والعكازات « النفسية والاجتماعية » بأساليب منظورة أو مستترة .

فالوساطة المتفشية عكاز صديق معروف . . والاعتماد على القرب والاصدقاء من ذوي التقوؤ عكاز آخر . . والاديب المغمور الخائب يتكئ على ناقد صديق لامتداحه ورفع شأن إنتاجه . . والذي يستجدي المديح والتشكرات يقف وراء ستارة من ورق وكلمات ، وهناك نوع خاص من الاقنعة التي تخلو من كل تعبير وسمه ولا يمكن قراءتها وما تخفيه من ورائها . . . وهي شهيرة عند لاعبي القمار . كلاعب (البوكر) الذي لا يختلج وجهه أو تلمع نظراته لثلا يقرأها منافسوه في القمار . . ولقبه « صاحب وجه البوكر »

لقد أصبحت الاقنعة العصرية مرتسمة على الوجوه ذاتها وأصبحت الاقنعة التمثيلية اليونانية القديمة لعبا وتسلية للأطفال يشترونها من مخازن الألعاب حتى الاسماء استعملها البعض عكازات لتسهيل امورهم . كنان الاسم الحقيقي للكاتبة الفرنسية الشهيرة (جورج صائد) (١٨٠٤-١٨٧٦م) هو (ارماندين لومسيل أورور) لكنها حملت اسم الرجال لترويج كتاباتها الى أن عرفها الناس .

ويذكر الاديب المعروف الدكتور عبدالسلام العجيلي في كتابه (أشياء شخصية) أن باحثا ومفكرا عربيا وضع على بطاقته الشخصية وتحت اسمه ولقبه (المرشح لجائزة نوبل) ، بينما ملخص الحكاية أنه سبق لذلك الباحث أن أرسل خطابا الى اللجنة الاكاديمية السويدية لترشيح نفسه للجائزة فأرسلت اليه

اللجنة - حسب الاصول المتبعة - اشعارا بالاستلام ووصول الخطاب فقط ! .
ويذكرنا هذا الطراز من الناس بمفكرين آخرين ممن رفضوا جائزة نوبل
لانهم لم يجدوا فيها مايزيدهم قدرا مثل برناردشو .

وفي سوق الشعوذة :

وتتجلى عملية التلاعب بالقيم واستخدام الاقنعة والمكازات في وسائل
الدعاية التجارية الرخيصة وبين الدجالين والمشعوذين ، وقصة الدجل في العلوم
الطبية في القرون المظلمة - وحتى الآن - من أبرز الامثلة على ذلك . . كالذي
يبتذل صفة الطبيب المتمرس ويملق الشهادات المزورة لاثبات ذلك أمام
البسطاء . وكم من مرات قبضت سلطات الأمن وثقافات الاطباء على دجالين
من هذا القبيل ادعوا أنهم متخرجون من كلية الطب المعينة فاذا بهم جهالة
محتالون .

ومن طرائف الحكايات في تاريخ الطب ما حدث من نقیض ذلك ، فقد
اتهم طبيب في باريس بانتحال صفة الطب والشعوذة ، فلما حقق معه تبين أنه
يحمل شهادة طب حقيقية ، لكنه اعترف بأنه أثر أخفاء شهادته الرسمية لأن
والده كان متطببا دون شهادة وكان مشهورا وناجحا في عمله . فلما ورث الابن
الطبيب (الرسمي) لقب أبيه ورواج مهنته فكر بأن يستند على سمعة أبيه بدل
شهادة الطب الشرعية ! .

وتقبض سلطات الامن بين حين وآخر على محتالين مغامرين يتحلون
صفات رسمية وأمنية فيهددون البسطاء والسذج ويبتزون الاموال ، لكن
السلطات الساهرة تفضحهم على الملأ في الصحف كعبرة لغيرهم .
وتطيب لبعض الناس المناصب والعناوين البارزة . . . ويجدون في
الانفتاح والتضخم باللفظ والمظهر اكمالا لمكانتهم وشخصياتهم ومصدرا
لسعادتهم الحقيقية ، فاذا وصلوا الى مركز أو احتلوا منصبا تمسكوا به وتعلقوا
كتملق الغريق بقارب نجاة والجائع بلقمة غذاء ، ويكون شغلهم الشاغل كيفية
الاحتفاظ به وايجاد الوسائل لترسيخه .

لذلك نجد أن هذا النمط من الشخصيات يصاب بدعر ويشعر بمأساة حقيقية إذا حدث أن فقد مركزه كاجراء طبيعي لابد من حدوثه في أية دائرة أو مؤسسة تحتاج الى تحرك وتطوير . فتغيير المراكز والأشخاص قد لا يكون علامة القسطن بل دليل الصحة الطبيعية وسنن التطور والتغيير ، فعكازة المنصب التي يفقدها الشخص أو المفروود أو غير السوائق من نفسه تؤدي الى شبه انهيار أو اكتئاب أو همود فكري ، بينما نجد الشخص الذي يعتقد أنه يزين منصبه وأنه يؤدي واجبا ومسئولية لها حدود في الزمان والمكان لن يجد في التغيير أو فقد المنصب يوما حدثا خطيرا يمكن أن يؤثر في ذاته أو نظرة الناس اليه ، وفي ذلك ينطبق قول الشاعر الحكيم المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم
وتذكرنا هذه النماذج البشرية بحكاية الكاتب الانكليزي الشهير (توماس كارلايل) الذي كان قد تلقى رسالة من رئيس الوزراء (دزرائيلي) آنذاك يرشحه فيها لحمل لقب (لورد) ، وكان رد كارلايل على ذلك بأن أوضح لدزرائيلي أن اللقب وما يتبعه من مرتب لن يرفع من قدره شيئا ، وأنه لم يعد يطبق حل لقب اللورد الثقيل وقد ربا سته على الثمانين عاما .
ذو العكسازات والاقنعة هسواة الالساب والمنساب تخسدمهم ولا يخدمونها . . تخمهم ولا يحمونها الا بقدر ما تعزز مصالحهم ومصادر قواهم ونفوذهم .

الملابس أقنعة :

وكان الانسان القديم شبه عار الا ما يستر عورته من ورق الشجر أو رقع نسيج بسيط أو جلد حيوان ، وكان يلتفح بقطع بسيطة لتقيه البرد القارص أو المريع أو الشمس الحارقة . كانت الملابس وسيلة للتكيف المناخي الجغرافي ليس غير .

وتخضر الانسان وانتبه الى مآرب أخرى في الملابس والمأكمل ، فأصبحت للملابس رموز ودلائل مختلفة ، وتعددت المعاني والرموز بظهور الطبقات

وتعددها والقيم الاجتماعية الجديدة . وأصبحت الملابس والأزياء ونوعية
الاقمشة تدل على الثراء أو الفقر . . وعلى الوجاهة أو الشعبية . . وعلى الجنس
والحالة الزوجية . . وعلى الجمال والاناقة . . ثم أصبح الملبس قناعا للدلالة
على هذه القيم، إذ لا يمكن لأي إنسان أن يتظاهر بالجاه أو الجمال أو النفوذ أو
الطبقة إلا باختيار الزي الذي يدل على ذلك ، وذو « الياقات البيض »
اشتهروا في أوروبا - وانكثروا على الخصوص - كعلامة مميزة عن غيرهم من
العامة !

وأصبح اللباس واللباس للتمويه أيضا ، فكيف يخفي الجاسوس والعدو
ومجند الطابور الخامس بين شعب معين إذا لم يتزَيَّ بلباسه ويتصرف وفق عاداته
ويتلذذ بسجاياه ؟

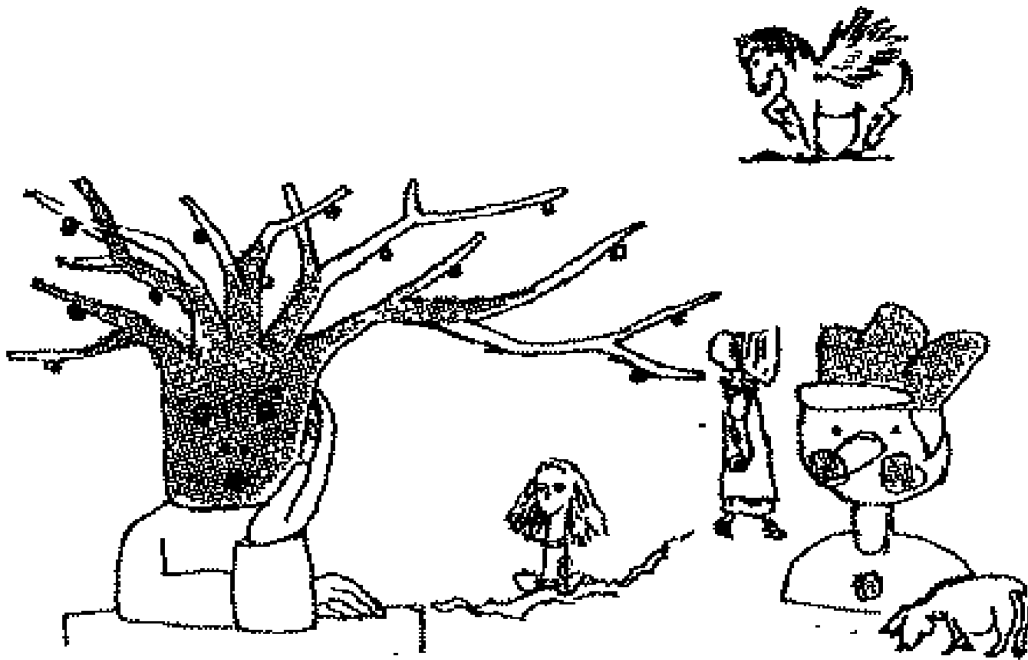
ألم يلبس (لورنس) الكوفية والعقال والعباءة ويتكلم العربية بطلاقة لهذا
الغرض ؟ . .

والزي (أو المودة) سلاح للمنافسة والتسابق واثارة الغيرة بين النساء ،
وقد وجدت الأنثى في (الماكياج) قناعا تكنولوجيا يبرز المحاسن ويخفي المعاييب ،
ويجذب الجنس الآخر ويكسب المعجبين ويصطاد الأزواج - وهذا هو التبرج
بعينه .

والشعر المستعار (الباروكة) لدى النساء - وأحياناً الرجال - أسلوب آخر
استخدمه إنسان العصر للزينة والتبرج وتمثيل الأدوار ، ويكون التكلف فيه
ممجوجاً وواضحاً لأنه يستعمل في غير محله وبخاصة الرجال .
وكم من اقتصاديات منزلية وأواصر زوجية انهارت أو تزعزعت بسبب
التشبث بعكازات الأثاث المنزلي وأقنعة التي يقتنيها رب المنزل أو زوجته
للظهور بمظاهر « لائقة » ترضي و (تخدع) الآخرين دون التعقل والرجوع
للواقع والاكتفاء الذاتي والتواضع ، فاهمال التخطيط الواقعي لميزانية الأسرة
لمجرد إشباع نزعة الغرور والأبهة السطحية والجاه الكاذب هو خداع للنفس
قبل كل شيء . .

من هنا نجد أن الثقاض في أي مظهر من مظاهر الحياة خلاف الحقيقة
والواقع إنما هي أقنعة وسجون نفسية يمكن تجاوزها بسلا بتعاد عن الوجاهة
الكاذبة أو التبرج والدلال المتعمد وإثارة الغرائز ، والاحتفاظ بمبدأ البساطة

في كل شيء ومن جعلته جوهر الانوثة الطبيعية النيلة المحتشمة الرزينة . .
ومن المرارة الاعتراف بأن البعض من ضعاف الايمان يستغلون دينهم
لتسهيل أمور دنياهم وليس تلبية لروح الدين والاسلام .
فالبعض - وأؤكد على كلمة البعض - يحج الى بيت الله الحرام ليس للتوبة
وغسل الذنوب بل لان صفة الحاج تجلب له الاحترام والتقدير وتزيد من ثقة
الناس فيه لتزدهر تجارته وأعماله ، أو لتنفي عنه ما ينعتة الناس به من طباع سيئة
(وقد تكون أغلبها صحيحة) .
والغريب أن من يحج لهذه الغايات يندع نفسه فقط لانه يعود ويزيد من
صفاته السيئة السابقة ، ويكون قد لجأ الى الحج كعكاز وقناع ، وقل كذلك عن
بعض المصلين والصائمين . وهذا هو النفاق في الدين ، والله أعلم بسرائر
النفوس ومن يستأهل الرحمة والغفران .
قال تعالى : « ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم
نصيرا » - سورة النساء ١٤٥ .
وقال تعالى : « ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم
بالمهتدين » - سورة النحل ١٢٥ .



المشروع . . . والمبتذل

وإذا استطرَدنا في الحديث وجدنا عشرات الامثلة الاخرى التي تبين مدى انغماس انسان العصر في الاعتماد على المظهر والقناع والمكاز في تسهيل أمور يمكن أن تسير بأسلوب آخر . ونصل الى نفس الهدف . أنبل وأشرف وتجلب سمادة عميقة وحقيقية . ولكن لابد أن نضيف . وعلى سبيل الانصاف . أن هنالك أعمالا بريئة القصد ، نقية النية وإن بدت كوسائل وصولية ومظاهر زائفة لكنها بالحقيقة غير ضارة وتحتّمها الظروف .

فالضرورة تقتضي أحيانا استعمال الشعر المستعار لدى الاصلح . . أو الممثلة والمطربة لاداء دور يتناسب فنيا مع ذلك الدور ، والمؤلف الذي يقدم كتابه للقراء بتمهيد وتعريف من قبل كاتب آخر أقدم منه أو أعلم انما يساعد على الايضاح وتفسير محتوى الكتاب أو أهدافه أو مدى أهميته بدل أن يدير القاري له ظهره لجهله به أو عدم ثقته باسم الكاتب الناشئ . وكان بعض الممثلين والمطربين الموهوبين الناشئين قد قدمهم للجمهور أساتذتهم الكبار . .

كتب أحد الولاة إلى الخليفة العادل الاموي عمر بن عبد العزيز أن أهل السواد (العامة) يتظاهرون بالاسلام هربا من دفع الجزية وأنه يرى ألا يقبل بسلامهم الظاهري ذلك حتى لا تقل خلة بيت المال ، فأجابه الخليفة بحكمته وبعد نظره وأداركه لواقع الدنيا والدين جوابا يتطوي على العتاب والتعنيف : « إذا جاءك كتابي فأسقط الجزية عن كل من شهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فإن الله بعث نبيه هاديا ولم يبعثه جابيا » .

وهذا مثل رائع في تحليل السلوك البشري وفهم للامس النفسية في كسب المترددين من غير المسلمين .

ولاريب أن طبيعة التطور ترغم الانسان على التكيف تجاه معطيات العلم والتكنولوجيا والتركيب الاجتماعي والعلاقات الاقتصادية والسياسية ، فإن طرأ على سلوكه تغير وتحول فإن ذلك لا يمد ظاهرة مريضة أو سيئة تصل الى الطعن في أخلاقه أو نقاء ضميره فالاصل هو الجوهر ، والجوهر في الانسان هي انسانيته المجردة عن التصنع والتفاق والدجل ، ومعرفة الانسان لنفسه واحترامه لها . دون التخطيط العمد والحيلة . هي علاج لكثير من العلل الاجتماعية والنفسية .

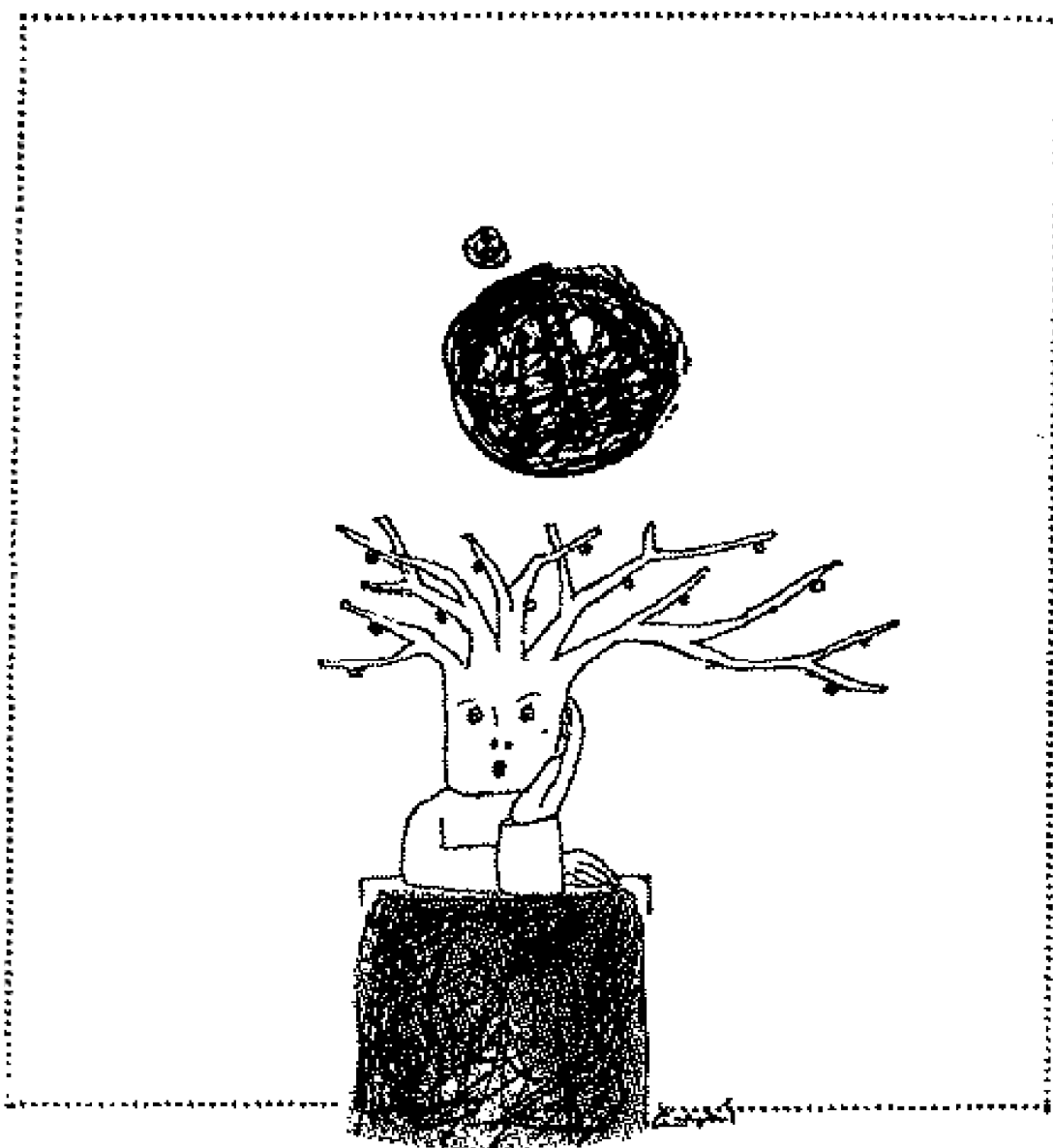
الرجوع الى الطبيعة :

بعد كل هذا ، نجد أن الانسان المعاصر يواجه تيارا جبارا ظالما من التكنولوجيا والماديات والاطر الاجتماعية التي تقيده وتجعله أشبه بالآلة الجاهدة أو اللعبة التي تحركها أيادي الحضارة بخيوط رفيعة متينة كخيوط الدس ، فهو مدفوع أحيانا الى اتباع دروب والتواءات لا مفر منها كقشة طافية على وجه نهر دافق ، وهو - من ناحية أخرى - يجد نفسه وقد فقد ذاته وفقد ظله ، وأنه مسؤول عن ذلك باندفاعه وراء منفعة أو لذة وقتية أو نشوة عابرة من جاء أو نفوذ أو منصب أو شهرة ، ثم لا يلبث أن يتدم بعد فوات الاوان لأنه لا يجد الا بقايا حطام ، والا المحبة الحقيقية للانسان ، والا العلاقات الصميمية ، والا الملجأ الامين البسيط . « أما الزبد فيذهب جفاء . . . » .

فهل باستطاعة الانسان أن يعمل شيئا لينقذ نفسه ؟ وهل بإمكان المؤسسات التربوية والاجتماعية والتوجيه القومي الاصيل أن يغير من انسان العصر ويعيد اليه طبيعته ؟ . أعتقد أن ذلك ممكن اذا احتفظنا بتراثنا وأخلاقنا ومثلنا وأصالتنا دون تقليد واستيراد . . . اذا مجدنا البساطة . . . وعرفنا معنى الاقتصاد . . . وتعاملنا بالصراحة والطبقة . . . وعرفنا مائتا وما علينا . . . واحترمنا حقوقنا وحقوق غيرنا . . . ثم اذا تعلمنا وريينا الاجيال الصاعدة على الشجاعة الادبية والاجتماعية ، وأنفسنا لسجاياتنا الطبيعية البريئة أن تعبر عن نفسها . . . وأنتمنا لغيرنا أن يمارسها كذلك دون اعتداء أو مساس أو خدش لشعور أحد وحقوقه . . .

فالعودة الى الطبيعة ، وعدم التكلف تزيل كثيرا من أمراضنا النفسية المماصرة كالقلق والحصر والوسوسة ، ويقتضي التنويه هنا أن خلاصة العلاج النفسي الحديث بمختلف مدارسه واتجاهاته هي بالحقيقة مساعدة المريض لكي يجد نفسه الحقيقية ويكتشف ذاته وانفعالاته واتجاهاته ورغباته المكنونة التي طاردتها وطمستها ظروف الحياة ، حتى أن بعض المعاهد والمؤسسات والنوادي النفسية - الاجتماعية الحديثة تجد لها جماهير غفيرة من المشاركين الذين يجدون في نظام المعهد متنفسا لمواطنهم ، حيث يستطيعون هناك أن يعبروا عن آرائهم بصراحة ، سواء بالتقيد المتبادل أو بالفضب أو اللعب والضحك . . . أو

بالسفر . . . مما يؤكد مرة أخرى أن جزءاً لا يستهان به من ذواتنا يضيع ويختفي وراء حياة اصطناعية من أقنعة وعكازات هي سبب العلل النفسية والاجتماعية التي نعانىها .



ضرورة الانتماء

قيل يوما إن « الإنسان اجتماعي بالطبع » . . وأصبح القول مثلا عاديا لا يثير في الفرد المعاصر انفعالا أو وجدانا واعيا بخطورته أو مفزاه . . بل لعل الفرد المعاصر أصبح أشد حماسا ونجاوبا مع أنباء الفاضين . . والثائرين . . والذين لا يتمون في دروب الأدب ، ومسالك الحياة ومتاهات الفكر والفن . . ويبدو أحيانا أن من الأصح أن يقال الآن : « كان الإنسان اجتماعيا بالطبع . . ولكنه يجرب الآن ألا ينتمي ، وهو يبحث خطأ في النصف الثاني من القرن العشرين ! . »

الا أن محاولات الإنسان ألا ينتمي ، أي أن ينسلخ عن دائرته وبيئته هذه ، لا يمكن أن تثبت الا حقيقة نفسية واحدة هي أن الإنسان ينتمي بطبعه ، وأن اللاتئاه المستديم علة اجتماعية وظاهرة نفسية مرضية جديدة بالبحث والتحليل ، وهو ما نحاول كشفه واستعراضه في هذا المقال .

ودلائل « اجتماعية الإنسان » و « انتمايته » وفيرة جاهزة : شعوره بالحنين للوطن والجماعة عندما يتأى عنهم . . وتذكره الأيام الحلوة السعيدة العابرة . . ونسيانه كل ما هو سيء وقبيح في مجتمعه البعيد عنه . . ثم شعوره



بالقلق والخوف الغامض يعتصر فؤاده اذا وجد نفسه وحيدا أو بين جماعة من الغرباء . . ثم استرداده لثقتة وحيويته بين خللانه وأصدقائه . . وغير ذلك كثير . . كل ذلك يؤكد بصورة لا تقبل الجدل أن الانسان مربوط بأواصر الاجتماع والانتها : جسميا (بيولوجيا) ، وروحيا (بالمثل والمبادئ) ، وعقليا (بالثقافة والتربية النفسية) . . بالإضافة الى أواصر دقيقة أخرى لاتعد ولا تحصى . . .

الانتها البيولوجي :

والانتها البيولوجي غذاء حيوي للانسان لا يقل أهمية عن البروتينات والنشويات والفيتامينات التي تشكل غذاءنا اليومي . . لكنه غذاء « غير منظور » لا نحس بحاجةنا اليه الا في المناسبات أو التجارب القاسية أو المرض . .

أن جهازنا العصبي لا يمكن أن يعمل بصورة صحيحة ما لم يتلق غذاءه من « الدقعات » الخارجية والمعلومات الحسية الهائلة . والشعور بالحياة والاحساس بالوجود ، كل هذا انما يأتي عن طريق وجود الآخرين النائين والمقرين . آلاف

الاحاسيس الصغيرة منها والكبيرة تغذي جهازنا العصبي وتجعل أدمغتنا مهياة للاستجابة والاتصال بالعالم الخارجي .

والمولود الجديد الذي لا يسمع ، لا يمكن أن ينطق أبدا لأن السمع غذاء المخ . . . منه يتلقى الرموز والاصوات واللهجات ، وعليه أن يرد ويتكلم ، فكل أصم هو أبكم ، اذا بدأ صممه مبكرا جدا . أما الذي يسمع لفترة من حياته ثم يصاب بالطرش فانه يتكلم استنادا على « معلوماته » السابقة التي تلقاها عن أذنيه .

ولذلك يشبه بعض العلماء العقل البشرى بالعقل الالكتروني : جهاز معقد جدا لا يمكن أن يعمل ولا أن يجيب ولا أن يحل المشكلات ما لم يتلق « غذاءه » من المعلومات الأولية ، وهي معلومات يضعها الانسان في الجهاز . أما جهازنا العقلي فيستلم غذاءه بصورة طبيعية في كل لحظة من الزمن بصورة معلومات حسية حياتية لا تخص من الجماعة والهيئة والمحيط والثقافة . . .

في حجرة معزولة عن الصوت :

وقد اتجه علم النفس بسرعة الى دراسة الجماعة والمحيط والثقافة وتأثيرها على نفسية الفرد ، لانه لا يمكن دراسة الذات الواحدة والنفس المستقلة دون دراسة الاطار الذي يحيط بها أو الفلك الذي تدور في مداره . وقد أجرى أحد علماء النفس تجربة على نفسه ، اذ دخل في حجرة معزولة عن كل صوت ومبطنة بالجلد المحشو السميك . . . فلم يحتمل « رنزائته » الاختيارية تلك أكثر من بضع دقائق ، وبدأ يستغيث طالبا اخراجه منها . فبالعزلة الشديدة تؤدي بالانسان الى التخيلات وتخلق فيه هلوسات من أشباح وأصوات وهمية . ويذكر العالم الفسيولوجي هيب أن أحد طلاب الجامعة الاصحاء تطوع لان يعزل نفسه عن الاصوات والاحساسات الاخرى لمدة أيام . . . ووصف مشاعره بعد التجربة بأنه : « أصبح منشغرا الى شخصين لا يدري أيهما هو . . . الشخص المهلوس المشوش ، أم الشخص الخائف المنهار . وأنه أصبح عديم البصيرة قليل التمكن والتمحيص ، شديد الرغبة للاصفاء والاعتقاد بكل ما يحوس بخاطره من مخافات [١] » .

حالة انعدام الوزن :

وحالة فقدان الوزن لدى رواد الفضاء تماثل العزلة الشديدة واضمحلال الشخصية .
فالطيار لا يشعر بوزنه . . وعليه أن يتنفس بقوة ويطلق الزفير لتلا يخفق .
فالهواء من حوله عديم الوزن أيضا ، وكل شيء غير مربوط يعوم في الهواء بحرية . . . وإذا عطس أو سعل فقد يقفز بكلية من مكانه ويرتطم بجدار الكوكب الصناعي . ثم إن عليه أن يشرب من أثناء بلاستيك قابل للضغط والكبس ولا يخرج الماء من فتحات أنفه .
هذه الحالة التي ينعدم فيها الاحساس بالوزن (وهي حاسة عقلية كالابصار والشم . .) . . . هذه الحالة الرهيبة الثقيلة الوطأة قد تؤدي ببعض الناس إلى الجنون .

السجون وانعدام الشخصية :

والكوث الطويل في السجون يحد ذاته يؤدي إلى الارتباك واضمحلال معالم الشخصية وربما النكوص إلى دور الطفولة والتدهور الذهني والرضوخ والعجز عن التفكير الحر المستقل ويحتاج السجين إلى فترة من الزمن بعد مغادرته السجن كي يستعيد صفاء ذهنه ومقدرته السابقة ، كما يحدث للدكتور (مانيت) أحد أبطال ديكنز في (قصة مدينتين) الشهيرة . . ذلك الطبيب الذي نسي مهنة الطب في سجن الباستيل الرهيب .
ويسبب ما يقارب نفس هذه الحالة الرقود الطويل في المستشفيات بسبب مرض مزمن أو لكون المستشفى ضعيف النشاط الاجتماعي أو متدني المستوى التمرضي .
كل هذه الامثلة الحياتية تشير إلى أن غذاء حيوان يعيش عليه الانسان . . وهو الانتشاء البيولوجي بحد ذاته دون أن يتخلله فكر أو مبدأ أو تعليم . . مجرد صلة جسمية عن طريق الحواس تربط الكائن البشري بما يحيطه من أناس وأجسام وأصوات وحر وبرد ورياح ونسيم . هذا الانتشاء البيولوجي مخلوق فينا . . نحياء . . وغارسه قسرا وضرورة . . رضينا أو أبينا .

واللائناء البيولوجي . .

واللائناء البيولوجي أشبه بالمستحيل . . لانه إن وجد فمعناه أن نفترض وجود كتلة حية لا تسمع ولا تبصر ولا تتألم ولا تتشرح . فان سمعت وأبصرت وأحسست بشيء فلا هي تستجيب ولا تتفعل بما تحس . ولا يتم هذا الا في الحالات المختبرية التي يختلفها العالم النفساني لغرض الدرس والبحث ، أو في بعض الحالات العقلية المريضة مثلا . وقد جرب أحد أطباء الامراض العقلية في جامعة لندن أن يدرس مرض الفصام العقلي الشيزوفرينيا في غرف معزولة عن كل المؤثرات الخارجية فلاحظ تحسنا ملموسا في سلوكهم وأسلوب تفكيرهم . . كأن الانقطاع البيولوجي أصبح دواء لهم ، بينما كانت نفس العزلة سببا في احداث اضطراب شديد بين الناس الاعتياديين .

ان اللائيناء البيولوجي أشبه برائد الفضاء وهو يمر بحالة فقدان الوزن ، وهذا حال لا يوجد في مجتمعنا الارضي بالطبع .

واللائناء الروحي والعقلي . .

هو عين ماقصده العلماء في قولهم إن الانسان اجتماعي بطبعه . فالانسان يستمد أسلوب تفكيره وأنماط سلوكه وحدود حرياته ومعالم القيود والمحرمات والتقاليد والمثل . . . يستمدونها رويدا رويدا من أبويه وأسرته وحلقته الاجتماعية في البيت والشارع والقرية والمدينة والمجتمع الاكبر . ويتلقى الفرد تلك التعاليم سطرا سطرا ، ويحتسي الثقافة المحلية جرعة جرعة . . ويتدرج في العادات الجارية خطوة تلو الاخرى . وتبدأ حياة المجتمع للفرد منذ أيام الطفولة الاولى . . . ولا يتضح مدى خطورتها له الا في الازمات والصدمات والامراض . فوجوده بين جماعة ينتمي اليها يجعلها تصبح غذاء روحيا وعقليا ونيعا خالدا يبعث فيه طاقات الحياة والحب والدعة والاستقرار . فبين الفرد وجماعته علاقة سلوكية وطيدة ، وتعيش حيوي مستديم . لذلك وجد علماء

النفس أهم إذا أرادوا تغيير اتجاه الفرد الواحد ، فإن من الأسهل جدا تغيير جماعته قبل تغييره هو فإذا ما حصل التحوير في الجماعة الصغيرة تبع الفرد جماعته تلقائيا . فالفرد إذن يتخذ دورا خاصا في تلك الجماعة . وهكذا اكتشف (ثريشر) مثلا أن أحسن السبل لاحداث اصلاح في جماعة من الجنانحين والمجرمين يكون بتغيير زعيم العصاة وإصلاحه لكي يطرأ التبدل على الجماعة ، ومن الجماعة الى أعضائها فردا فردا ، واتباع (كورت ليفن) نفس الطريقة وأثبت أن الاتجاه الفردي يتبدل بتبدل أفكار الجماعة بصورة عامة . والعلاج الجماعي النفسي مثال على كيفية شفاء المرضى عن طريق الجماعة بالناقشة والتثقيف والتوعية النفسية ، وهي الطريقة الناجمة في المدمنين على المخدرات والسايكوباتيين .

فالانتفاء الى الجماعة والتمسك بها يدرأ عن الفرد عديدا من المشاكل والازمات والاضطرابات النفسية ، والانصياع للجماعة والاندماج بها يخفف من القلق والتوتر الداخلي ، وقد أشار الى ذلك فرويد وأطلق عليه (فروم) اصطلاح المسيرة الآلية ودعته كارين هورني بـ (الخضوع العصبي) ، فلسان حال الفرد المنقاد لروحية الجماعة يقول : « أنا مثلك تماما . . . وسأكون كما تودين أن أكون . . . لكي تحبيني بدل أن تثقيني » .

وقد تكون للفرد آراؤه ونظرياته الخاصة التي لا تتسجم كليا مع جماعته ، لكنه يتعايش في إطارها ويقف عند حدودها العامة لأن أرباحه النفسية أكبر من خسائره الشخصية ، فهو إذن لا يزال متميا جزئيا الى جماعته ومقتديا بها . . . وقد لا ندرك بجلاء خطورة الانتفاء الا اذا تطرقنا الى بعض أمراض عدم الانتفاء والتنصل ، تلك الأمراض التي يعانيها اللامتمي أثناء انسلاخه أو ابتصاده أو قطع صلته بجماعته . .

أمراض اللانتماء . .

من الملاحظ عليه بين عديد من علماء النفس أن معنوية الطفل وتوازنه النفسي يستندان الى انتمائه وتماسكه مع أسرته وعلى طبيعة علاقته العاطفية مع والديه .

والبعد عن البيت والام في السنين الاولى من حياته يبعث نوعا من القلق يدعى بقلق الفراق ، كما أن البعد الطويل أو القطيعة بين الطفل والديه حتما يولد فيه ميولا عدائية واكتئابية ونزعات إجرامية . وهذا ما حدث لمجموعة من أطفال الحرب العالمية الثانية الذين اضطروا الى البعد عن ذويهم بسبب الغارات الجوية أو لموت أحد الوالدين أو كليهما . فتحطم العلاقة الانتمائية الاولى بالاسرة زرع في أولئك الاطفال استعدادا للاكتئاب أو المشاركة المرضية النفسانية (السايكوباتية) أو الاقبال على تناول المخدرات .

كذلك ، فإن التماسك مع المجموع واحترامه والاقتداء به يقلل من وطأة الصدمات والازمات . . حتى الانتحار ترتفع نسبته بين المفترسين والمنعزلين واللامتنمين الذين وهنت صلاتهم بجماعتهم . . .

ونحن ما نفتأ نعثر على أناس يعيشون في مدن كبيرة . . يسرون بين آلاف المارة . . يسبحون في بحار من الضوضاء والحوادث . . لكنهم مع ذلك يعيشون لانفسهم ، ويصنعون عوالمهم الخاصة ، ولا تحركهم بحريات الامور حوالهم . ونعثر على كثير من أمثال هؤلاء في المستشفيات العقلية بين مرضى الفصام ، الشيزوفرينيا . هؤلاء الذين لا يتسمون لفاهيم العقلاء وتعاليمهم . . .

والعلاقة المهلهلة ، والانتفاء الكسيع بين المحارب وفرقته وأمه وزملائه المحاربين هي الطريق الاكيد لانزاهه وانهاره . . بينما المحارب الصعب المراس يتدرب باندماجه وايمانه بمبدئه وأهداف جماعته . فهو يحارب بعزم ، ويقاوم شدائد الأسر وعن الاعتراف . . .

وغير هذه الامراض كثير وكثير . . نستدل منها على أن العزلة واللائناء ظاهرة مرض ، وأن التبعية والعيش والاحترام المتبادل بين الجماعة والفرد تعزز من حموياته وتمده بطاقة للحياة والعمل والكفاح . فهل يوجد « لا متم » سوى بحق ؟ وماذا يمكن أن يكون ؟ .



من هو اللامتتمي ؟ . . .

هو الذي انتحي ناحية قصية من محيطه ، ثم ينظر الى جماعته . . . ويقارنها باتجاهاته وميوله ورغباته ، فيقرر أن يفصم أو اصره بها ، ويطمس معالمها من عقله ، ويمحو بصمات ثقافتها في روحه ويمج ما رضعه منها من مثل أو تقاليد .
وقد يفعل اللامتتمي ذلك في نوبة من تحد أو طيش أو حماقة صبيانية . . . أو بدافع من الشعور بالخلو والخيرة والفوضى . . . وقد يفعل ذلك لان ناحية أو أكثر فيها لا تلائم ذوقه فيتركها استنكارا ليس الا . . . وقد يفعل ذلك لانه يعتقد أن عليه أن يحدث تغييرا أو اصلاحا في تلك الجماعة فيتركها فترة من زمن أو يهاجمها ناقدًا . . .

فاللائتواء اذن لا يتعدى أن يكون رغبة في التعبير عن السخط والثورة ، أو مظهرًا من مظاهر الضياع والفوضى ، أو رغبة في الاصلاح والتغيير .
واللامتتمي يشعر « بالغبرة » قبل كل شيء . . . واستقلاله يتركه وحيدًا . . .
ووحده لا تفي تقلقه . . . والقلق يصنع أشياء كثيرة : أشياء عظيمة . . . أو حقيرة . . .

فالمصلح يغترب ويعتزل ويفكر ليعود الى جماعته فيحاول تغيير ما بها . . .
هو يعبر عما قاله أرخيدس يوما : « أعطني مكانا خارج الارض ، وأنا أحرك الارض » . أي أنه لا ينتمي لفترة من زمن لكي يحرك ويفيد ، وهكذا يحرك המתأزون عجلة التاريخ .

والساخط والمتمرد يغترب ويعتزل . . . أو يستنكر ناحية خاصة في مجتمعه ، لكنه يعود اليه ويعبر عن سخطه ولائتمائه في « أدب ساخط » أو « فن متمرد » بشكل قصة أو بيئة مقالة أو بديوان شعر أو بمسرحية . . .
ويينعد بعض الساخطين عن جماعتهم لمجرد نزوة طارئة أو مكابرة أو حبا في الشذوذ .

وآخرون لامتمون ، أثارتهم النظم الموضوعية وأقلقتهم الحياة المادية وأفزعتهم الآلة والرتابة والعلوم والحروب . . . وشعروا بالحناء والفساغ والضياع . . . لم يجدوا أجوبة على تساؤلاتهم ، ولم يرضخوا للاجوبة المعروفة . . . ثاروا على الابوة والامومة والاسرة والمدرسة . . . اعتزلوا

مجتمعهم . . . وابتكروا لانفسهم مجتمعا خاصا مليشا بالفرائب والعجائب والمتناقضات : موسيقا خاصة أو لباسا متميزا أو تسريحة شعر ولحية ، أو تناول المخدرات والعقاقير ، أو سكنى بقع وأحياء منعزلة من الارض وحتى الخيم والمعسكرات . وهؤلاء هم مجموعة الشباب الساخط التائه من أمثال (الهيبيز) والبروفوك ، والخناس ، والرولرز والبيتشك ، والقردة ، إلخ . . . من المسميات . ولعل أدعى شيء للسخرية أنهم لا متمون من غير اصلاح أو نقد بناء أو فكر عميق . . .

بقي عندنا اللامتهمي المصلح الهادف . . . هو اذا ابتعد عن المجموع فانه لم يقطع أواصر عطفه وشعوره بالمسئولية ، وابتعاده عن المجموع ارتفاع وتحليق لكي ينظر اليه نظرة الطير من عل ، نظرة الشمول والتدقيق والنقد الرامية الى الاحسن والاصح . . .

ونعود الى اثبات ما بدأنا به في أول المقال من أن اللاتئاء المستديم أشبه بالمحال ، وأنه لا يحصل الا بين المرضى أو في أروقة المختبرات والابحاث . . .

استحالة اللاتئاء . . .

انه مستحيل ، بمعنى أن اللامتهمي اذا خرج عن جماعته فلا يلبث أن يتهمي الى جماعة أخرى عندما يتفحص الفرد عن جماعته ويتر وشائج التعاطف وروابط المسئوليات . . . أو عندما يحاول قلع جذورها التاريخية فيه ، فانه لا يلبث أن يجد نفسه بين جماعة غير تلك التي تركها . . . بل سرعان ما يدرك أنه خلع بزة ليرتدي أخرى . . .

فالاديب الساخط ، والمفكر الوجودي الذي شعر وافتخر بوجوده وفاعليته وعظمته في ذاته ، راح يهتم بوجود « الآخرين » وتوسيع آفاقهم الفكرية . فهو يكتب وينتج لغيره . . . وهو يمتنى لو أن غيره آمن بما يقول . . . وهو يتلمس وجود الآخرين ومؤازرتهم له من خلال التلاحم والتمازج الفكري . . . ولا إخاله يتعادي في نشوته وسعادته اذا أدرك يوما أنه يكتب لنفسه فقط ، وأن مسرحيته لم تمثل ، وأن مقالته اختفت في طي النسيان . فان لم تسوء كل تلك المتفصلات . . . فلعله يعيش على أمل دفين هو أن الاجيال القادمة

ستهتف له . فللاديب الساخط والوجودى واللامتعي « جماعة » ما ، في يقع من المعمورة . . وهذا هو نوع من الانتهاء الى جماعة ! .

ولا عب الكرة ينتمي الى فريقه ويستمد منه الاعتداد والفعالية . . بل إنه يلعب مع رفاقه ولهم ، ويهمه الا يجيب ظنهم وظن مشاهديه وأفراد ناديه أو محلته أو بلده أو دولته . .

والمتدين المنتمي الى مذهب أو طائفة ، اذا ما رأى استبدال مذهبه ، فإنه سيلجأ الى مذهب آخر أو اطار آخر من تفكير أو عبادة . والمستقل ، يجد كثيرا من غيره من المستقلين . . والمستقلون « جماعة » تلقائية . والمستقل من ناحية مرتبط من نواح حياتية أخرى لا ريب فيها . .

والصبي الشقي ينتمي الى جماعة الاشقياء من أمثاله . والمجرم يمثل لاوامر عصابته ولا يستطيع أن يقدم على مخالفاته الاجتماعية والاجرامية الا بتعزيز وتأيد من عصابته . حتى هؤلاء الفاضبون المتمردون اللامتمون الذين يدعون أنهم قد تحرروا وحطموا القيود وداسوا على التقاليد . . أين هم الآن ؟ ان كل فرد فيهم ينتمي الى جماعة ويحتدي بها ويفخر بالانتماء اليها ، ويتلقب باسمها . وأسماء الفرق والجماعات ماهي الا أولى علامات الانتهاء ، وأسماء الخنافس والهيبيز والبيتتك ترمز الى جماعة معينة لها تقاليدها وعاداتها . والهيبيز الفتى (أو الفتاة) يقوم بدور المنتمي للجماعة دون أن يدري : فهو يمارس طقوسها وعاداتها . . ويتناول مخدراتها . . ويصغي لموسيقاها ويتلوق رقصاتها وحفلاتها . . ويتمتع بممارساتها الجنسية . . ويستطيب قذارتها . . ويرتدي بزاتها ! ! ! . وهذا هو الانتهاء بأجل معانيه وأبشع صوره . !

وينتمي الفلاح الى أرضه . . وطالب البعثة الى وطنه وهو على بعد آلاف الاميال منه ، فالانتماء لا يعترف بالزمان أو المكان . .

أما المصلح ، أما محرك التاريخ . . فإنه ان كان قد تجرد وتباعد عن الجماعة فلنكي بغير ما بها . وغالبا ما اعتزل الرسل والانبياء مجتمعاتهم لفترات متقطعة كي يتأملوا ويفكروا ويصلحوا ، فالحكيم والمصلح يقوم بدور القيادة ويخلق له أتباعا ومريدين ، وتنشأ جماعة جديدة تنتمي له وينتمي اليها . فإذا كان قد توصل الى احداث التغيير به « لا انتمائه » الوقتي ، فإنه ما لبث أن عاد ثانية الى انتهاء جديد . وكل جماعة يربو أعضاؤها على الثلاثة هي رابطة انتمائية من

نوع خاص . . .
قال أين وصلت بنا الامثال السابقة ؟ . . . وصلت بنا الى أن الانتهاء
موجود في كل دروب الحياة وشقي ميادينها . قد يكون انتهاء نسبي أو جزئيا أو
وقتي . . . وقد يكون انتهاء اصلاحي أو اخلاقي ، أو فاسقا أو إجراميا أو ساخطا
أو متمردا . . . لكنه انتهاء في كل الاحوال ، والانتفاء تبعية ورابطة ، والتبعية
ذات حدين أو وجهين : انتهاء والتزام .

الانتفاء . . . والتزام :

والتزام وجه آخر من الانتهاء وزميل حميم له . فالمتحمي ملتزم ، والتزامه
ضريبة انتمائه . فالحكيم والموجه الذي خلق كيانا جديدا من جماعة وأتباع يلتزم
أمامهم بما دعا اليه . والمشرع الكبير الذي يضع القوانين للمجموع يلتزم
بتنفيذها واطاعتها . والاديب الساخط والمسرحي العابث ملتزم بعبثه وأفكاره .
والقروي الذي يقتل « غسلا للعار » انما يلتزم بمفهوم سائد حريق بين جماعته .
وعضو النادي الفلاني يلتزم بروحية ناديه وأنظمته ومقاصده إن كان ناديا
للالعاب الرياضية أو للدعوات الاخلاقية . والمجرم يلتزم بخسطة عصايته
الاجرامية ، والشباب الخنفس أو الفجري يلتزم بعادات جماعته وسلوكها .
فالالتزام يمكن أن يكون التزاما أخلاقيا أو إجراميا أو فوضويا . . . وعندما
نتحدث عن « الادب الملتزم » فانما نعني به أن يؤدي الادب واجبه نحو الجماعة
التي يكتب لها أو ينسج منها . وعندما يدعو البعض الى مبدأ الالتزام ، فانما
يذكرون الغافلين بواجباتهم الطبيعية ، لان الفرد الذي يعيش بين جماعة ويحتمي
بها ويعيش عليها بيولوجيا وروحيا وعقليا . . . ثم بصمت ويغفل ويغفو . . . انما
يقوم بدور الطفيلي الذي يأخذ ولا يعطي . والتبعية التي لا فكاك عنها يجب أن
تخرج عن نطاق الاتكال والتكاسل ، والالتزام هو العطاء مقابل الاخذ أو
الانتفاء . . .

بقي أن نقول إن البشرية يهملها أن يكون الانتهاء انسانيا رفيعا ، وأن
يكون الالتزام أخلاقيا ناعما ، ولا جدوى من ادعاء اللاتناء اذ هو وهم يتخيله
المتهمدون أو الحائرون أو المتطفلون .

الرقى والتعاويد

الرقى والتعاويد وسائل وحيل غير طبية مختلفة الانواع والاساليب ، يستعين بها الانسان لدرء المخاطر والاذى عنه ، أو لتخفيف معاناته وعذابه من أمراض نفسية أو خبيثة . . أو لوقايته من أرواح شريرة وقوى ضارة يتوقع خطرها أو حلولها فيه والسيطرة على أفكاره وسلوكه استنادا الى عقيدة موزغة في البدائية والقلم هي أن المآزق والاضطرابات وانجرافات السلوك والفكر والشعور - وحتى الآلام الجسيمة والشقايمتزمى الى « أرواح شريرة » تحيط بالمصاب وتهيمن عليه وتجعله عاجزا لا حول له ولا طول ، الا اذا جابهته قوة أخرى تكمن في تعويذة أو « طلسم » أو تحيمه بعدها ويصنعها شخص ذو نفوذ ديني أو سحري يدعى بصانع التعاويد يعمل على طرد تلك الأرواح المؤذية وإبعادها بعد صراع - قد يطول أو يقصر .

وبلاحظ القارىء أنني راعيت الدقة في التعريف للأسباب والنواحي التالية:-

أ - أن الرقى وسائل « روحية » غير طبية - أو غير علمية ، اذ لم تدخل إلى الآن في عداد العلاجات الطبية والنفسية المعترف بها . . ولأنها تستخدم لعلاج شتى الاضطرابات بما في ذلك الضعف الجنسي والعشق . . .

المربي العدد ٢٦٢ سبتمبر - أيلول ١٩٨٠ م .

ب - وانها مختلفة الانواع : لانها كثيرة ، وتراوح فيما بين مجرد دعاء وكلام
وسطور مباركة ومقدسة ، الى أعقد العمليات المنظمة المعيرة بما في ذلك من
طقوس ومراسيم . .

ج - وانها ملجأ جذاب (ومبهم في الوقت ذاته) للانسان الذي يعتبره حصنه
الموهم عند الاخطار والامراض أو الشعور بمداومتها ، فهي اذن لا تقتصر على
المرضى ولا تقتصر على الشخص المهدد ، بل قد تعد وتحاك ضده من قبل
الاعداء والحساد ، أو « تعمل له » دون علمه من قبل ذويه ومعارفه حرصا عليه
وشفاء له . .

د . . . وان من يصنع التعويذة والتميمة شخص مختص أو « خبير » مؤهل
بالوراثة الأسرية ، أو بالتعلم المهني الخاص ، أو الممارسة الروحية - التصوفية
الدينية ، فيكتسب مكانة ونفوذا خرافيا ساحرا قد لا يعتمد هو أو لا يرغب فيه
إذا كان من نوادر من يقوم بالتعاويذ للخير والاحسان ولوجه الله تعالى لا يبتغي
جزاء ولا شكورا . .

في المدلول اللغوي نقول :

عَاذَ به عوذاً : أي التجأ اليه واعتصم به
وأعاده بالله : حصنه به وبأسمائه . . .

والعوذة : هي التيممة ، وجمعها عوذ وتماثم
وعوذه : علق عليه العوذة . .

والرقية : يُرقي بها الانسان من فزع أو جنون

فالرقي والتعاويذ والتماثم اذن : حماية وحرز وتحصينات للانسان ضد شيء مؤذ
أو خطير أو مرض جسيم . . .



جذور وتاريخ :

لعل تاريخ الرقى والتعاويد قديم جدا لانها ظهرت قبل الطب القديم بزمان بعيد . ثم عاصرته وزاملته ، وتداخلت معه في أحلاف ثنائية من صداقة وتعاون ، أو فترات من غص النظر والهدنة والترقب وعدم التحرش . . . ثم واجهت علم الطب والاطباء والفلاسفة والفقهاء بمواقف وأزمات عصبية تحللها سجلال ونزاع وعداء سافر - وإلى يومنا هذا ، عندما ظهرت بوادر وعلائم جديدة وأحاديث خافتة هامة حول امكانية صحة التعاويد « معقوليتها » كما ستطرق اليه !

ولكن ، كيف بدأت الرقى ولماذا ؟ . . هذا ما لم يدون بدقة كالأحداث التاريخية ، الا أن دراسة الحياة الاجتماعية كما كشفت عنها الآثار والخفريات والدراسات الانثروبولوجية والتاريخية والدراسات الثقافية القديمة والحديثة (الأنثروبولوجية) ألقت الضوء على سلوك الانسان القديم ومعتقداته والاطر الاجتماعية والدينية والروحية التي كانت سائدة بين المجموعات المتفرقة من البشر بشكل قبائل صغيرة متشرة هنا وهناك في أرجاء المعمورة - ولا تزال موجودة - في افريقيا وجزر آسيا الجنوبية وقد تبين أن الرقى والتعاويد احتلت جزءا مهما من السلوك البشرى وأفكاره عن الكون والموت والحياة والمرضى والجريمة (الخطيئة) . فعندما كان الانسان يدق في نفسه وفي الكون الغامض المخيف وفي الاخطار التي لا تخص المحيط به ، كان يجاهد لمعرفة علة الوجود وسر الخليفة ويبحث عن تفسيرات لها . وكانت المجاهيل أمامه كثيرة تعد بالآلاف ، الا أن ما كان يصدمه هو المرض يشق أنواعه : المرض الجسمي والمرض العقلي وما يحيط بهما من معاني الموت والحياة والخلود والعدم .

وهكذا تحتم افتراض وجود القوى الاخرى خارج ارادة الانسان وحده وقواه . ولما كانت تلك القوى غير مرئية ولا محسوسة ، فقد أصبحت ظواهر روحية غامضة . فلما صمموا أن تكون ملموسة أو مرئية شيهوها بالنصب والتماثيل ذات التعابير والاشكال الرمزية الغريبة لتكون « استعارة » وبجازا لصورة الآلهة أو روحها ، والطوطمية ارتبطت بفكرة الخطيئة والمحرمات التي آمنت بها بعض القبائل البدائية ، والطوطم هو نبات أو حيوان أو شيء جامد

(بشكل نصب أو تمثال) تتخذة تلك القبيلة رمزا وشعارا مميزا لها (كأعلام الدول أو الفرق الرياضية المعاصرة) ، اعتقادا منها أنه يذكر القبيلة بالمحرمات وأسباب الشر والخطيئة ، كما أنه يدود عن الفرد كلى خطر طالما التزم بتقاليد القبيلة .

وكانت معرفة الكهنة بعلم الهيئة (أو الفلك) واستماعتهم بالنجوم لاستجلاء الحوادث الطبيعية قد شجعتهم على استطلاع المستقبل والمصير عموما لان الظواهر ساعدتهم على معرفة الحوادث الطبيعية من مواسم وفيضانات وكسوف وخسوف وكوارث أخرى . وأصبح علم الفلك بابا الى علم التنجيم وفي خدمته ، وهكذا انسلخ التنجيم عن الفلك وأصبح فنا مستقلا بأيدي الكهنة وقراء المستقبل . واكتسب التنجيم نفوذا واحتراما بين عامة الناس لانه فتح نافذة على المجهول أو هكذا تصوروا . وما يتصوره الانسان من استقرار المجهول يثبت فيه روح الطمأنينة ويهدىء من قلقه وخاوفه .

وهكذا نستطيع أن نربط بين الفكر البدائي للطوطمة ، وكاهن المعبد والعراف وقرايينها التي يطلبونها والعلاجات والتعاويذ ، والمنجم والساحر الذي يستطلع النجوم لمعرفة المستقبل ويعتزل من الكوارث فأصبح السحر «صنعة» خاصة بين المتطيين والدجالين الدهاة .

وانفصل السحر عن المعبد وأصبح صنعة « مدنية » ، وانتشرت الساحرات في أوروبا كما ذكرنا ، وتولين اعداد الرقى والتعاويذ والادوية الغريبة والطقوس المذهلة للايقاع بالناس المساكين والبسطاء الحيارى . وما لبث الوعي العلمي والتنوير ورجال الدين أن شنوا حملة كاسحة لتطهير أوروبا من السحرة ، وراح نتيجة تلك الحملات المتعصبة مئات الضحايا بحكم العدائية العاجلة أو الخاطئة . . الا أن مفهوم السحر والرقى والاساليب الروحية بقيت مغروسة وراسخة في الفكر البشري بصور سالبة أو باهتسحتى عذبة بشكل موجات شلقة واجراءات عنيدة من ممارسة السحر والنزق والدعارة والادمان كما حصل لدى جماعات الخنافس والهيز في أوروبا وأمريكا . . وظهر بين الجماعات رؤساء ادعوا السحر والقوى الخارقة !

ويدو من كل ما تقدم أن الرقى وجدت لتطهير الانسان المريض من الروح الشريرة التي حلت فيه وسببت مرضه أو لتطهيره ووقايته من الائم والخطيئة التي

تلبس بها . ولكن الاثم والدنس لم يكونا واضحين المعالم ومحددتين . وسرى كيف اختلطت المشاعر البدائية بالمقالات الوثنية ، ثم بالتفسير الدينية ثم بالتفسير والظواهر المرضية والطبيعية الاخرى ، لتجعل من معنى الشر والاثم والخطيئة مبهما ومتشابكا مبدد الملامح .

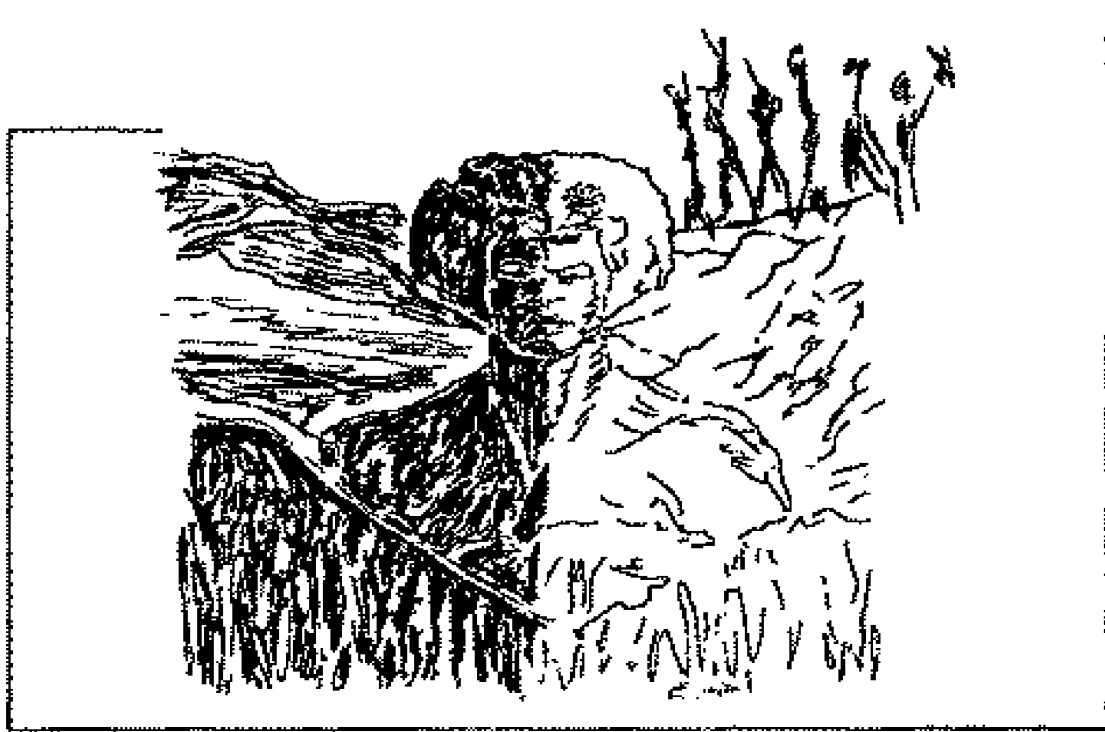
كان الاجداد المسيحيون مثلاً يتهأون لصلاة يوم الاحد ويتطهرون حتى يأخذ العقاقير المسهلة والمليحة للامعاء وتنظيف بطنهم من الاوساخ . وكانوا اذا مكثت الفضلات في الجسم يعتقدون أنه ربما تنتقل من الجسم الى الرأس فتؤدي الدماغ . وكان يظن أن الاثنى تتخلص من الأدران بالحيض الشهري .

ظواهر انشطارية :

وما يدفع بالانسان الى التعلق بالرقي والتعاويذ حدوث ظواهر نفسية - طبية غريبة كازدواج الشخصية أو انشطارها الوقتي خلال برهة سريعة من الزمن . ففي الطب النفسي هناك ظاهرة معروفة تدعى بتعدد السواقع والشخصية أو « اختلال الأثنية » تحدث في كثير من أمراض العصاب والرهاب والذهان . والمثال التالي يوضح ما هو المقصود بها :

يذكر أحد المرضى بلسانه « . . . كان هناك شخصان ورأيت نفسي وحدها في المرأة ولم يكن لها وجهي . . . كنت أنا وليس أنا . . . والذي تكلم لم يكن أنا بل شخصا آخر . . . وكنت أنظر ولم تكن ذاتي الصغيرة قادرة على التحكم في ذاتي الاخرى المنشغلة بازعاج الآخرين . . . كان موقفا رهيبا » .

مثل هذه الظواهر ورؤية الذات مواجهة وكأنها شخصية مستقلة متكاملة خارجيا تتخذ مظهرا أشد في حالات معينة من نوبات الصراع ومرض الفصام (الشيزوفرينيا) . وقد قتل مصاب بالفصام شخصا غريبا لم يعرفه قط وقال إنه رأى نفسه في ذلك القتل فأراد أن يقضي « عليها » فيه . كذلك رأى (دوريان جراي) في قصة (أوسكار وايلد) نفسه الشريرة في اللوحة أمامه وكأنها تهجم عليه فمزقها ليقضي على ذاته . . . ويصور (دوستوفسكي) في (الاخوة كارمازوف) الازدواجية على لسان (ايفان) وهو يخاطب زائره الشيطاني : « . . . لم أكن أعترك حقيقيا ولو لبرهة فأنت كاذبة . . . وأنت علي . . . أنت



شبح .. لا أعرف كيف أحطمك وبخيفني أن أحملك أكثر من هذا أنت وهم
أنت تجسّد نفسي .. وبالتحديد أرذل جزء مني وأحرقه .. ثم يعود أيقان
ليخبر الوسيط متعباً ، لكنه أنا نفسي .. كل ما هو أساسي ومحتقر ومتفجع في
ذاتي ..

ومعظم الذين كتبوا عن شخصيات مزدوجة أو منشطرة في قصصهم
واتاجهم الأدبي كانوا قد مروا بتجارب ذاتية حقيقية مشابهة مثل دوستوفسكي
المصاب بالصرع و (ستريندبيرج) المتصوف صاحب القوى الروحية
الاستجلالية كما يتضح ذلك في روايته (الجحيم) ، و (ادجار الان بو) المدمن
على الأفيون .

إن تلك الظواهر المتداولة ومعاناة عدد من الناس لها ، وفي الاخص رؤية
الانسان لشبح ذاته أو ظلها أشاع الاعتقاد الشعبي بأنها من علامات الموت ، أو
أن الشبح الثاني المنشطر والمشابه للذات يجب أن يموت ، وقد يتم القتل فعلاً :
إمّا للذات الاصلية أو للخيالية .. أو أن يكتفي الانسان باللجوء الى الرقي
والتعاويد لانه أيقن أن شبحاً أو روحاً لا بد موجودة وتسكن فيه والا لما غادرته .

ومرضى الوسوسة :

ومرض الوسوسة أو (الحصر - القهري) هو أحد أمراض العصاب الذي يصور لنا بوضوح تأثير الشمور بالاثم وعلاقة ذلك بالطقوس والرقى والتعاويذ . وتتلخص الاعراض بأن المريض تراوده أفكار تسلطية غريبة ومبته وشاذة زخماً عنه ، أو يندفع للقيام بأعمال وتصرفات يعتقد أنها مخيفة ولا مبرر لها . ورغم ذلك لا يجد مناصاً من تنفيذها على ستخافتها : كأن يضحك في مجلس عزاء ، أو يرتفع في ذمته قطعة من أغنية وهو في قاعة المحاضرات ، أو يلمس أعمدة الكهرباء وهو في طريقه الى دائرته . . . أو يغسل يديه كلما لمس كتاباً أو صافح يداً غريبة . وقد يغسلها ثلاثاً أو خمساً أو عشراً أو عشرين مرة قبل أن يطمئن ويشعر بالراحة . وهناك أعراض أكثر وأشد غرابة . . . والمهم في هذا أن التفسير النفسي « الديشاميكى » لمثل هذه الاعراض أنها ردود أفعال « احترازية » دفاعية يقوم بها المريض ليحس بالامن والراحة ضد شعور دفين « مكبوت » بالخطر أو الأثم . وقد يتولد هذا الشعور بالذنب منذ الطفولة لا شعورياً في العقل الباطن ، إما لان تربية الوالدين كانت قاسية متزمتة ومركزة على النظافة والوقاية من الاوساخ والتطهير الشديد بعد أي عمل ، أو لان عقاب الوالدين لهفوة بسيطة بولغ فيه الى حدود القسوة والعصية ، أو لان العادات السائدة في البيت جامدة صارمة (حرفية) مقننة بحيث يجد الطفل نفسه وقد كبر وأصبح رجلاً ولا يزال يشعر بالذنب لادن سبب وأي قول أو فعل يتوهم أنه مخالف للعرف والتقاليد أو يخرج شعور الآخرين . . .

وهكذا تبدأ الوسائل الدفاعية النفسية في مرض الوسواس لتحميه من شدة عذاب الضمير أو الشرور والاختلاء ، فيلجأ الى تلك الأفكار والافعال والطقوس المرضية التي ذكرناها والى تعليق التعاويذ في رقبته أو على باب داره أو إحدى حاجاته ، أو استخدام أشياء متفردة وعتيقة كحذاء ممزق أو نعل فرس أو صورة عين أو رقى يعدها له متطبيب أو شيخ أو سيد أو رجل دين وكلها وسائل دفاعية رمزية تموض له عن شعور دفين بالخطيئة أو أن عملية طرد الارواح الشريرة والوقاية من غضب الآلهة الناقمة بالطقوس والرقى والتعاويذ كان يقابلها منذ القدم عمليات التملك من قبل الآلهة والارواح الطاهرة الخيرة أي أن

الجماعات البشرية البدائية - وحتى بعض الناس المتحضرين والمتدينين الى فرق دينية تقوم بطقوس خاصة من موسيقى ورقص وتصفيق وترتيل وصياح لاجل حلول الروح الطيبة في الفرد (سواء أكان مريضاً أم شخصاً سويًا يتوق الى مزيد من التطهر والتسامي . .)

ويلقب الشخص الذي محل فيه الروح الطيبة (بالمأخوذ) ولا تزال تجري هذه الطقوس بين قبائل جنوبي السودان وفي جزر هايتي وترينداد وفي كينيا وزمبيا والبرازيل والولايات المتحدة ، حيث ينتهي الاحتفال (الديني) بالذهول والاهباء والارتجاء والاستلقاء على الارض ثم الافاقة في حالة نشاط وفعالية وشعور بالصحة والعافية والطهر - أي الخلاص من الادران « وامتلاك » الروح الطيبة .

وتجري الى يومنا هذا في مقاطعة (كارولينا الشمالية) في أمريكا طقوس ملازمة الأفاعي وتناولها واللعب بها - وبعضها سامة - اعتقاداً بما جاء في (انجيل مرقس) من أن الايمان يحمي الانسان من الشر .

دور الاديان السماوية :

ان الاديان السماوية أنقذت البشر المهتدين من ضلالة الجهالة وأدخلت في قلوبهم الايمان والطمأنينة بعزوها ظواهر الكون والحياة والسلوك الى القوة الالهية الواحدة ، وبذلك حاربت الخرافة والوثنية والسحر والدجل . . بل شجعت بصورة مباشرة أو غير مباشرة التفكير العلمي ، وكان واضحاً في الدين الاسلامي الذي لم يتعارض بجوهره مع العلم ولم يدخل في أزمة خفيفة أو كبيرة معه .

ومع ذلك ، فإن بعض الافكار والاجتهادات والوقائع - وربما الانحرافات - بعد مرور مرحلة الرسل وحياتهم ، شجعت الناس على اللجوء الى الرقي والتعاويد ، ولايضاح ذلك نذكر ما حدث في المسيحية : فالتخلص من الادران والآلام والتوصل الى الطهر والعفاف جاءت مؤكدة لفكرة الخطيئة الاولى التي انتعشت في المسيحية ودعمتها الكاثوليكية بعدئذ بالاعترافات وتوسط القساوسة بين الانسان والرب ، كما جعلت رجل الدين في مكانة العراف القديم الذي

يساعد على رفع الخطيئة وتخفيفها .

وقد ساد في الكنيسة المسيحية مفهوم إمكانية طرد الارواح الشريرة من الناس الذين سيطرت عليهم . وقد طرد المسيح نفسه الشياطين بكلمة وأمرته . وكان ذلك علامة حلول مملكة الرب ، وتبع ذلك قانون كنسي بسلطة الشياطين باسم المسيح . وفي الغرب يحتم القانون الكنسي الحصول على موافقة الكاردينال قبل اجراء التعويذة على المصاب (وليس من الضروري تحصيل الموافقة في حالة العزائم على الامكنة) وقد تسرع وانتظم اجراء طرد الارواح الشريرة في القانون الكنسي منذ عام ١١٥١ . . وهو اعتراف ضمني من الكنيسة بأن عملية طرد الارواح تتخللها خطورة أو يتبع عنها ضرر للمصاب بالعملة . ولا يشترط في القائم على التعويذة أن يكون رجل دين أو قسيسا .

أما الاسلام ، فانه أكد على أن الانبياء بشر مثلنا ، وأن عمدا صلى الله عليه وسلم ليس ساحرا وأن الشفاعة هي استرحام ورجاء من الله عز وجل . . وأن الانسان له من العقل ما يميز به بين الخير والشر . . أما الجن والشياطين فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم . ومعصية ابليس وخطيئته الكبرى . . ثم اغواؤه هو وأعداؤه من الجن للانسان أعادت للفكر البشري ذكرى الارواح الشريرة واحتمال اضرارها بالانسان والايقاع به فعلا .

وانتشرت بعدئذ عادة زيادة الأضرحة المقدسة وكذلك تقديم التبرعات والخسنيات درءا لعين الحسود أو جلبا للمطالع الحسن ، ونظور ذلك الى عقد الاشرطة وتنف الملابس الشخصية على جدران الأضرحة وأسوارها هنا وهناك ، وإلى تعليق القلائد والعلب الصغيرة الحاوية على أوراق مكتوب عليها آيات من الذكر الحكيم أو الكلام المقدس تيمنا وبركة .

ثمانية أسباب :

وهكذا نجد من محصلة الجذور الدينية والتاريخية والثقافية والدراسات النفسية والطبية الحديثة التي استعرضناها أن الانسان لجأ الى الرقى والتعاويذ . وكذا العزائم - لأسباب مختلفة .

١ - الوثنية الجاهلية كما نعرفها بوضوح أكثر في عصر ما قبل الاسلام عندما لجأ الناس الى الآلهة المختلفة وعبدوها خوفا أو تطيرا أو تفاؤلا ، وأضافوا على الحيوان

والجُماد قوى سحرية حيوية تكمن فيها من مصائب وخير وشر . . .
٢ - التطير والتفأل من علامات ورموز وأسماء وحيوانات وظواهر تحدث في الحياة اليومية وتتوارثها الاجيال لتصبح مصدر قلق ورهبة وتثير في الانسان نوازع الخلد والدفاع والحيفة سواء بالندور أو بالعبادة والعزائم ، أو بزيارة الاماكن المقدسة باعداد الرقي والتعاويد من قبل شخص من متفلة روحيا أو دينيا أو ذوي سمعة شعبية « سحرية » .

٣ - واستمرت هذه الافكار الموروثة على قوتها ونفوذها رغم أن الاسلام حارب التطير واعتبره النبي محمد ﷺ نوعا من الشرك .

٤ - ومن هذا التطير والتشاؤم ظلت الخرافات القديمة سائدة بشكل أو بآخر تنزيا بزي العصر وتحفظ بروح القدم أو البراءة . فالشعور بالاثم والاهتمام بالظواهر الطبيعية الخارقة (الفلكية) . . . والهلج من حوادث معينة كان موجودا من عهد الفراعنة والبابليين والاشوريين منذ آلاف السنين . وكان الفرد البابلي اذا شعر بخطر موهوم أو بمرض هرع الى الكاهن والمعبد ليقدّم ويطلب البركة والعزائم والرقي والتمايم .

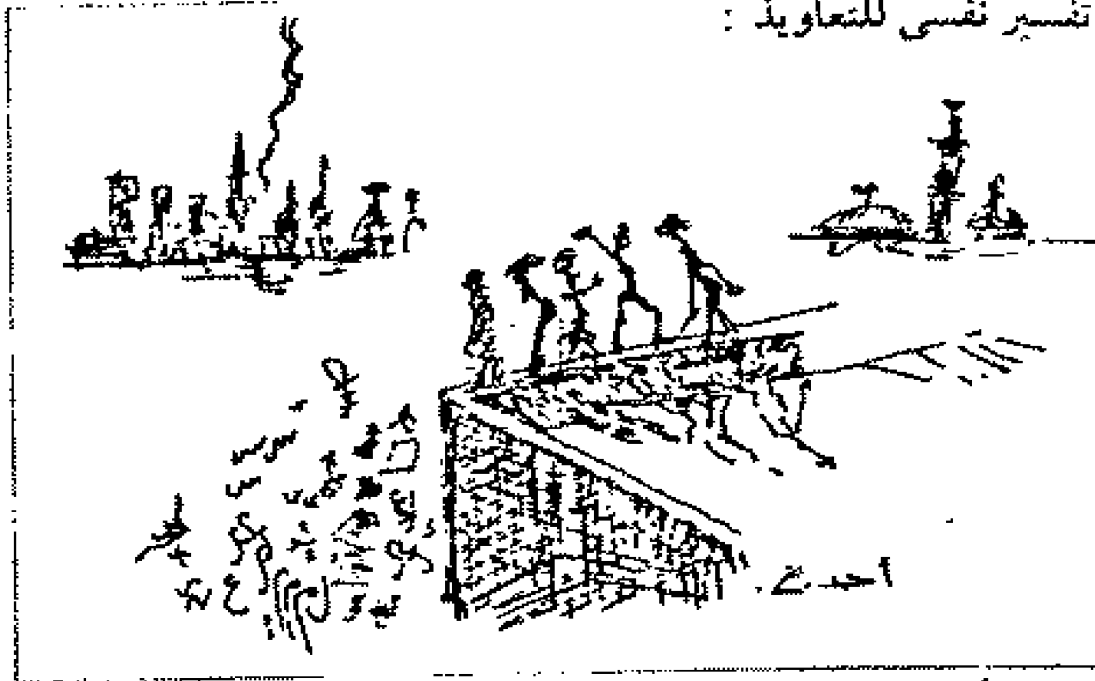
٥ - الخوف من المرض أو الرغبة في الشفاء لان المرض النفسي لا يزال من المجاهيل العلمية . كما أن المرض الجسمي المستعصي يشير الرهبة والوسوسة ويدفع الانسان الى الالتجاء بالتفكير في أسباب خارقة وغامضة أو بعوامل شيطانية وخيثة مرتبطة بمفاهيم الخير والشر والعقاب والتفكير .

٦ - وهي وسيلة للهجوم من أجل الدفاع . . أي أن التسمية قد يعدها الانسان ضد غيره لتليسه بالمشاكل والمضاعفات فينتفي شره أو يتقم من عدوه . وهنا يبرز دور الدعاة من السحرة والمشعوذين . . .

٧ - أو أن التسمية وسيلة طمأنينة للانسان تقيه الكوارث والازمات . لو حدثت . وتجلب له الخير دون أن يكون مصابا بشيء في ذلك الحين . وقد يتمادى في هذا المنحى الى العمل على احلال الروح الطيبة فيه بالجذب والتوسل والطقوس الخاصة والتعاويد . . .

٨ - ولا نستغرب ، حسب نظرية يونج في علم النفس ، أن الانسان المعاصر قد يحمل كل ما ذكرناه من دوافع ويختزنها في عقل « سلالي - اثري » هو أعمق من اللاشعور الفرويدي .

تفسير نفسي للتعاويد :



رغم تطرقنا الى دوافع الانسان للتعلق بالرقى فانها عسيرة - من حيث كيفية عملها وتأثيرها - على علم النفس الحديث والطب النفسي .

صحيح أن المصائب البشرية والاعطال المحزنة والمرض العقلي والنفسي تدفع الانسان المتحضر في القرن العشرين أحيانا الى البحث عن الاحتراز والخلاص في تعويذة يستلمها من صانع الرقى ، الا أن علينا تفسير ذلك في ضوء علم النفس الحديث وكيف تنجح الرقى أحيانا في شفاء البعض وهل لذلك نصيب من أي علم معروف لدينا إلى الآن أو نكتفي بنظرية الصدفة ؟

١ - ان دور الايمان لا يمكن تجاهله في مفعول التعويد . فمعروف في الطبابة أن بعض الادوية تنجح « نفسيا » قبل أن تعمل بمفعولها الكيميائي في الجسم كما أن معاملة الطبيب الانسانية وكلامه الرقيق وعطفه يريح المريض قبل الدواء ، ويمكن أن نعزو الى حمل الرقى من قبل الانسان دورا ايمانيا مطمئنا يثبت فيه روح المقاومة والشجاعة والامبالاة تجاه مسببات القلق وعواقبه الاخرى .

٢ - ان الرقى والتعاويد وما يصاحب المزامن من اجراءات وطقوس تضع الانسان في موقف التوجس والترقب والتوتر الذي يؤدي الى نوع من عملية « التطهير » أو التنفيس ، أشبه بالتنفيس خلال الاعترافات الدينية أو خلال

العلاج النفسي أو حفلات الزار والرقص البدائي العنيف عند القبائل القديمة .
فالتعويدة تطلق العنان للانفعالات الخبيثة - وبذلك يتم الشفاء . .

٣ - وفي أعقاب الحرب العالمية الاولى بار الجدل بين علماء النفس (براون) من جهة و (مكدوجل ويونج) من جهة أخرى عن كيفية علاج الازدواجية . وكان الخلل الذي أصبح مدار النقاش هو (ما ملأ القلب سال من الفهم . .) واتفقوا أن الحادث المؤلم العنيف يؤدي الى الانشطار أحياناً وأنه يظهر في الحلم كحيوان شرس أو شبح غيف . واقترح مكدوجل أن يكون العلاج بالتسام الانشطار وجبره وإعادة المزوج الى الواحد . وتوصل (فرويد) الى هذا الرأي قبله وذلك بتنبه أسلوب التحليل النفسي في الكشف عن العقد المكبوتة والتطهير . ولعل في آلية التعويذة وأسلوبها من الجبر والالتحام حلاً لعقدة الكبت كما يبدو . . .

٤ - يمكن القول أن التعويذة تنجح فقط عندما تؤدي الى نوع من التفاهم والوثاق بين الشخص والآخرين الذين كان يشعر نحوهم بالعزلة نتيجة شعوره بامتلاك التعويذة ، أما أنها تطرد الروح الشريرة فهو ما لا يمكن التكهّن به والجزم بصحته . . .

نظرة نقدية للرقى :

وبعد ، فلا بد أن نتساءل عن موقف الفكر البشري من الرقى والتعاويد وخصوصاً في حقل علوم النفس والاجتماع والقيزياء . . . ؟
لقد جرت ندوة حول الموضوع في الاذاعة البريطانية عام ١٩٧٩ شارك فيها أطباء نفسيون وروحانيون وباحثون اجتماعيون ومرضى « مأخوذون » ، وما سأذكره هنا نتف مما جرى ونتف مما أرى وبراء غيري من المهتمين بالموضوع . ولنتناول الموضوع بالمنطق والحياد والعلمية المتبصرة لدينا حسب التدرج التالي :
أ - ان الظواهر الازدواجية والانشطارية في مجال الطب النفسي وذكر الشياطين والجن في الادبيات السماوية . . والازمات النفسية الحادة . . والوسوسة الشديدة . . لا يمكن أن تقع الانسان أو تمنعه عن التفكير باحتمال وجود أرواح شريرة وطيبة . . .

ب - ان ممارسي الرقى والتعاويذ من الرصينين الخبيرين يعتقدون فعلا بوجود الروح الشريرة ويفرقون بين ما هو «روحي» وما هو «نفسي» وماذا في جمعنا لدحض هذا الادعاء واثبات عدم وجوده ؟ حتى العلم يمجز عن تفسير كل ظواهر الكون المعروفة والمدركة من كهرباء ومغناطيس وسرعة وحركة . . . أفلا ينطبق ذلك اذن على شخصية الانسان ؟ . . .

ج - ان التعاويذ نقطة التقاء بين الطب وعلم النفس والدين وما وراء الطبيعة ، فهي تؤكد أولا وجود الله ، وثانيا وجود كيان غير مادي يدعى بالروح ، وثالثا أن للارواح حرية التنقل من مكان الى آخر . ولو شئنا معرفة أصناف تلك الارواح لجاز أن نقول إنها من صنفين :

- أرواح صرفة (نقية) كالملائكة والشياطين . . .

- أرواح (منسلخة) عن كيان مادي سابق (مخلوق) كاتسان أو حيوان . . .
واذا جاز لنا تفسير تنقلها وتواجدها في أماكن مختلفة (ممنوعة وغير ممنوعة) فهو على نوعين :

- تنقل في أماكن تعاودها وتزورها وعندئذ يطلق على ذلك المكان بأنه « مسكون » . . .

- تنقل وحلول في اتسان أو حيوان . . . وعندئذ يطلق على ذلك المخلوق بأنه « مأخوذ » . . .

د - وجاء ذكر الروح والانس والجن والشياطين في القرآن الكريم ولا يمكن أن نطبق المعايير الحسية والعلمية القاصرة المحدودة على قضايا المعرفة الالهية الواسعة العظيمة . كذلك فإن مسألة الحياة بعد الموت . . . والبحث . . . والآخرة وانسلاخ الروح عن الجسد هي أمور دينية وليست مجرد فلسفة ميتافيزيقية ، إذن لا يمكن نفيها أو دحضها

هـ - أما موقف الطب النفسي وعلم النفس فواضح تجاه الشعوذة والخرافة والسدجل ، وتعتبر العلوم الطبية مشغولة بمحاولة الكشف عن تغيرات كيميائية وعصبية مسببة للمرض العقلي ودور الوراثة والجينات فيها ، فلا نتوقع منها أن تستسلم بسهولة وتمزق المرض النفسي الى الارواح الشريرة ، ففي ذلك رجوع الى نظريات وعقائد قديمة ترعرعت في مراحل غير علمية . الا أن الشيء المنطقي الوحيد الذي يربط بين علم النفس الحديث وعالم الارواح وغير

المحسوسات هو فرع جديد دعي بعلم النفس الجسائي أو الخوارق (الباراسايكولوجي) لأنه يبحث في قضايا الاحساس والادراك والافعال غير الاعتيادية كقراءة الافكار (التخاطر) ورؤية الاشياء على أبعاد شاسعة والتنهؤ بالمستقبل وتحريك الجماد عن بعد . . الخ . .

و - لذلك يعلق بعض علماء النفس على قضايا الارواح ووجودها بأنها قد تكون ميدانا آخر يشابه الباراسايكولوجي ، وأنا لانعرف عنه ما فيه الكفاية ، ولا يمكننا فيه قطعا . فالحقيقة أكبر من حصرها في اطار معرفتنا الحالية ، والقوانين المتعارف عليها هي ليست كل القوانين ، ان البعد المادي والقياس الحسي ليس البعد الوحيد . واذا كانت الامراض النفسية والعقلية مسميات وعناوين لاعراض وظواهر ، فلماذا لانعترف بأننا نجهل حقيقة ما يجري داخل العقل ولماذا لا يجسوز الحلول السروحي في الشخصيات المسزوجة أو ذوي الوسوس ؟ . . .

كل هذه الملاحظات النقدية الهادئة يجب ألا تقلقنا من ناحية ولا تقعدنا عن مواصلة البحث العلمي أو التساهل في محاربة الدجل والخرافة من ناحية أخرى ، لأن المنهج العلمي لا يتنكر للظواهر الشاذة أو غير المألوفة فورا ، وانفعالا ، ولا يتجاهلها تفاهيا وعجزا . . . لكنه ككل تنظيم وتشريع حضاري معاصر يحارب استغلال الانسان للانسان بحجة احتمال « شيء » في خدعة الناس بالرقى والتعاوين . . . ولا يمكن أن نسترسل أكثر من هذا ، فما هو مجهول أكثر بكثير مما هو معروف في هذه المجالات .



في زمن الادماء على الضجيج

كشفت التنقيبات الأثرية في وادي الرافدين أن بعض الألواح الطينية قد كتب عليها بالخط المسماري وصف واضح للحياة التجارية الحافلة في مدن سومر وبابل .
ويشكو أحد الألواح بلغة تدل على الملل والسأم من تلك المدينة التي تعج بضوضاء الإنسان . . !!

(ول ديورانت)
تدل الدراسات الأثروبولوجية والطبية - البيولوجية أن الإنسان يتغير بمرور الزمن : حجمه ، ووزنه وشكل جمجمته ، وتقاطيعه ، وطوله ، وتوزيع القوى في عضلاته ، وثلثاته في عظامه ، كما تتغير فيه بعض التفاعلات الكيميائية والعلاقات الهرمونية الداخلية وبعض المواقيت والدورات لوظائف أعضائه وأنسجتها .

وليس أدل على ذلك من مقارنة جمجمة الإنسان القديم وشكله - إنسان الكهوف - في العصور الحجرية ، وإنسان القرن العشرين بنعومة بشرته ودقة سمته وقلة شعر جسمه ورأسه وحتى هشاشة أسنانه ، إضافة إلى استظالة قامته وخفة وزنه . وينطبق ذلك على الجنسين معا ، فاليلوع الجنسي يتقدم مرحليا

المربي العدد ٢٦٩ إبريل - نيسان ١٩٨١ م .

بالاشهر والسنوات ، وموعد بدء الحيض عند الانثى أصبح يكرر تدريجيا في شمال أوروبا وأمريكا ، وبات من المألوف في هذه الايام أن نجد الفتاة في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها فاضجة « بيولوجيا » للزواج والحمل رغم أنها ليست جاهزة نفسيا واجتماعيا .

هذه المقدمة لا بد منها للخوض في موضوع حديثي عن أشياء أخرى وظواهر تتعلق بالسلوك الانساني المكتسب ، أي بالأشياء والأفعال ذات العلاقة غير المباشرة والحيوية واللصيقة بتركيب الانسان وبنيتة الفطرية ، لكنه اكتسبها وتبناها بحكم المخلوق المتطور فانعكست وبرزت في حاجاته وعاداته وتصرفاته .

ونظرة متفحصة الى انسان العصر تؤكد دون جدل أن « الاساسيات » والاوليات القديمة أصبحت الآن ثانوية كمالية ، والكماليات منها أصبحت أولية أساسية ، أي أن ما تعارفنا عليه بالكماليات هو بحكم الواقع من الضروريات : كالتلابة والتلفاز والمذياع والسيارة وأدوات الزينة والماكياج وتغيير الأزياء ، فقد أصبحت بالحقيقة تحتل الاهتمام الاول والمرتبة الاعلى من آمال الشباب والفتاة ومطالبها وطموحاتها .

ضرورة الصوت :

هذه الظواهر « الانقلابية » المعكوسة بدأت تتطور وتمتد الى أبعد من ذلك فتسيطر على جوانب مهمة من حياتنا الاجتماعية . وقد اخترت ظاهرة الضجيج والصخب كمثال قريب وطريف على ذلك ، إذ سنرى أن الصوت كان وما يزال من الضروريات . . فلما توغل الانسان في المدنية وارتقى سلم الحضارة اذا به يتوقف ويتردد تجاه بعض الاصوات ثم يتنكر لها ويتحاشاها ، أي أن الضروري أصبح كماليا ومصدر إضرار وإزعاج . . !

لا بد من ذكر حقيقة علمية أولا قبل الخوض في الموضوع ، وهي أن الصوت ضرورة أساسية لثريية الانسان ونضجه وتطوير عقله وفكره . والطفل الذي يُخلق أصم لا يسمع ، لن يتمكن من النطق والكلام . وأغلب ما يكون الاطرش أخرس أيضا ، لان الاصوات التي يسمعها الطفل منذ الايام والاشهر

الأولى لولادته تدخل في جهازه العصبي ودماغه فتعلم بها تدريجياً ودون عمد ويستقبل الاصوات والحروف والجمل ويميزها ثم يتعلمها ويدركها . . ثم يفرزها ويصنفها ، وبذلك يميز صوت أمه عن أبيه وعن أخوته فرداً فرداً . . كما يدرّب نفسه وهو ينمو كل يوم على لفظ الحروف والكلمات ويتأرجع بين الخطأ والصواب ليستمر على النطق واللفظ الصحيح والتفكير ، وليربط الرمز بالمعنى . . وهكذا ، وبالاختصار فإن الإنسان يسمع الاصوات أولاً لتكون مادة معرفية يتعلم منها و « يصنع » الكلام والكتابة والتفكير . فالصوت أحد أركان اللغة ، وحجر زاويتها . ويجب أن يكون مسموعاً ليكون ذا فائدة ، وعندما يصاب طفل بعاهة في جهاز السمع - أي عندما كان يسمع ثم تعرض وهبط سمعه ثم توقف ، فإن علم الطب يحاول أن يعيد إليه سمعه الصحيح ليستعيد قابلية الكلام والتفاهم والا أصيب باللغة واللكنة .

فأمراض السمع تؤدي إلى أمراض الكلام واضطرابات التعبير وحتى التفكير .

الصوت قبل الكلام :

الصوت يأتي أذن قبل الكلام . . والاصغاء قبل التعلم ، وهذه قاعدة الخالق في خلقه . الصوت بلغة الطب (غذاء) أساسي للجهاز العصبي والعقل البشري مثلما تعتبر البروتينات والكربوهيدرات والشحوم والماء والهواء أغذية لجسمه . وبما أن الصوت غذاء فكري فهو حافز ومثير لنشاط الجهاز العصبي ، إذ بدون الاصوات يحس الإنسان بالعزلة كما يبدأ في تفقد كيانه ووجوده . وكأن الصوت هو مصدر حيوي لكمال شخصيته ولادراكه تلك الشخصية ، وما ينلقاه الإنسان من ضروب المعرفة وما يصادفه من الآلاف وملايين التجارب يتلقفها العقل البشري من متافذ الاحساس لديه وهي : السمع والبصر واللمس والشم والتذوق . . الخ فبالسمع أذن - والصوت لازمة له - مصدر أولي وأساسي للمعرفة ولنضج العقل البشري وتطوره .

وتقدم العلوم النفسية - الطبية أمثلة وبراهين على أهمية الصوت للحياة النفسية - من فكر ووجدان للإنسان : فقد نين أن الإنسان السوي الصحيح قد

تنتهي به دروب الحياة الى الوحدة وفقد الاحبة والمعارف فتضيق دائرة تواصله مع الدنيا والجماعة فاذا به يعاني من الضجر والكآبة والقتوط وتمنى الموت ، أما اذا تعرض الانسان - في أية مرحلة من عمره - الى عزلة قسرية اضطرارية بحيث لا تصله في صحوته الا أقل الاصوات واضعفها أي الهدوء والسكون الطويل الاجباري فانه يبدأ بالشعور بفقده جزءا من معالم شخصيته لان الصوت يحفز جهازه العصبي دون وعي منه ، وبانخفاض تلك المنبهات الصوتية أو فقدانها يشعر بالوحدة والملل والقلق . . ثم الكآبة . . ثم يدخل تدريجيا في جو من الاوهام والهلوسات . . يتسمع الى دقات قلبه وحركات أحشائه التي تتعالى درجتها في جهازه الفكري . . ثم يتصور نفسه في مواقع أخرى . . أو يتخيل سماع وقع خطوات انسان أو حيوان يقترب منه . . أو صوت نداء يخاطبه أو هدير آلة حوالي غرفته . . . وتختلط عليه الهمسات والصرخات والازيز والضجيج فينتقل الى عالم الجنون محاولا بعسر ألا يفقد عقله وهذا ما يحدث في السجون الانفرادية والزنايات المعزولة .

وفي علم الطب النفساني نعر على حالة مشابهة ، فقد تبين أن بعض الناس الذين تجاوزوا أواسط العمر وبدأوا في شيخوخة مصحوبة بثقل السمع أو الطرش ، تتناهم مشاعر المعجز والحساسية الشديدة لمعرفة الاصوات وما يقوله الآخرون ، ويعاني بعضهم من الوسواس والشكوك ويشعور بالاضطهاد والغبن والتفاهة . ثم يردون على ذلك بالعداء والكراهة لاقرب الناس اليهم ، وهي من صفات (ذهان زور الشيخوخة) أو (البارافرنيا) .

كل هذه الظواهر تؤكد كيف أن الاصوات هي روابط عضوية - نفسية بين المخلوق ومحيطه ومجتمعه ، وانها أسس معنوية لتمامك وجوده وذهنه ، بقي أن نذكر أن الاذن البشرية تتلقى الاصوات من كل حذب وصوب ، وقد تسمعها ولا تسمعها لان قابليتها محدودة بين ذبذبات صوتية معينة هي من ١٦ - الى ٢٠ ألف هيرتز (ذبذبة في الثانية) .

فالصوت الذي يقل عن (١٦) ألف ذبذبة أو يزيد على (٢٠) ألف ذبذبة قد يدخل في اذن الانسان ولكنه لا يحس به ولا يدركه كصوت . وهكذا هي الاذن البشرية ظلت في نطاق معين ولم تتغير الى الان - أو على الاقل حسبما يقوله العلم الحديث .

أصوات المدينة والحضارة :



وكان الانسان القديم البدائي يسمع أصواتاً لا تتعدى زجاجة الريح وصفير العواصف ودوي الرعد وزقزقة الطيور وخرير الماء وحفيف الاشجار وأصوات أسرته أو عشيرته ، وأصوات الحيوانات المختلفة فيشعر بوجوده وكيانه ، وتقول إحدى نظريات أصل اللغات إن الانسان بدأ يتكلم بأصوات ومقاطع تقليدا لما تسمعه أذنه من أصوات الموجودات الطبيعية حوله ، وهكذا استمر الانسان يسمع أصوات بني البشر مثله ويأدهم الإشارة والحديث ، ثم استمر في النقش والرسم ثم الكتابة ، وتفتح ذهنه فأبدع واخترع . وبالاختراع والتصنيع وتطور الزراعة وحجم القبيلة والقرية والبلدة . . امتدت الحضارة والمدنية واتسعت وبدأ الجنس البشري يسمع أصواتاً جديدة أخرى : من حركة المحراث والاجراس وطققة مطارق النحاسين والحدادين . . ودقات الطبول ورنين الاوتار . . أو السيوف . . ثم المنجنيقات فانفجارات البارود والطلقات والقنابل والالغام . . ثم ضخيج المكائن الطباعية والنسيجية ، فالقطارات والعمريات والسيارات . . ثم الطائرات والصواريخ . وإذا بأذنه تصبح فوهة بركان يدخلها (بدل أن يخرج منها) سيل عارم من أصوات المصانع الهائلة

الكبيرة للورق والسكر والاسمنت والنسيج والمعلبات والموانئ والبواخر والمطارق ، وحوصر الانسان في دور سكناه وطرق مواصلاته . . وانتبه الى أن ما اخترعه وأسنه وبناء بدأ يتفث سمومه وأضراره . . .

ان الحضارة البشرية تقدمت ، لكنها اصططحت معها الصخب والضجيج في كل مكان ، وأصبح الهدوء والصفاء والنقاء مقتصرًا على الريف فحسب - وان كان هدوءا نسبيا اذا ما قورن بهدوء القرون القليلة - لكن الريف بدأ ينحسر بسكاته ويتقلص بمساحاته ، واستمرت موجات دافقة متوالية من البشر بالهجرة من الريف الى المدينة ، فكثرت المدن واتسعت وتعددت أحجامها وانتشرت في كل مكان ، وفي المدينة وما حولها نجد مصادر للاصوات المختلفة وهي تتكاثر وتتعالى في المصانع والحافلات والقطارات والسيارات ومكبرات الصوت ، وأصوات المذيعين والمغنين والخطباء . . ثم صفيارات سيارات الاسعاف أو الامن الداخلي . . ثم الطائرات . .

فاذا ما هرب الانسان من كل ما تقدم ولجأ الى داخل البيت المنعزل والامن ، هاجته أصوات من نوع آخر لا تغلو منها أية دار عصرية . فشباب الجيل الناشئ قد تحكم وتوسع بمسجلاته (الستيريو) ومكبرات الصوت وعذب الاشرطة (الكاسيتات) التي تعج وتصرخ بموسيقى الخنافس (والروك أند رول) وفرق (سانتانا) و (الحيوانات) و (الوحوش) و (الروبنج ستون) و (بوني إم) وما الى ذلك من تسميات لفرق الشباب المنتشرة في ديار الغرب .

حضارتنا غدت الآن مجموعة أصوات مختلفة الانغام والشدة : بعضها منتظم وبعضها مزعج ومتضر ، لكن المحصلة الكلية خليط منكسر من صخب وضجيج يحيط بالانسان ويلاحقه حتى فراش نومه ان لم يكن حتى قبره . فماذا جرى للاذن البشرية وللدماغ المسكين ؟ وما هو تأثير الصوت على الجهاز العصبي والسلوك ؟



أضرار الضجيج والصخب :

ويتبادر سؤال ملح الآن : اذا كنا نعتبر الصوت غذاء ضروريا للعقل البشري والتجارب والمعرفة كما بينا ، فلماذا نتبعه بالحديث عن أضراره ؟ وهل له مضر حقيقية ؟ ولماذا انعكست الآية في القرن العشرين بحيث اضطر الانسان الى النفور والضجر منه ؟

ان الصوت بلغة علم الفيزياء ، هو ذلك الذي له صفة الانتظام وطابع الموسيقى أو التناسق . وارتفاع شدة الصوت يمكن أن يكون مصدر ازعاج وضرر . أما الضجيج والجلبة والصخب فهي مجموعة أصوات « نشاز » غير منتظمة أو منسقة ، وهي أيضا مزعجة وضارة للنفس البشرية ، واختلاط صوت بصخب يؤدي الى صخب أكثر وأفظع وأمر ، والذي يجري الآن في مدينتنا أن الانسان أصبح مغمورا بالجلبة والضوضاء ، وأن الصوت المظرب أو الناعم أو المنسق الجميل لا يجده الانسان الا اذا قصده قصدا ، وببحث عنه في أماكن ومواقف ومناسبات معينة ، وهو يشهد الهدوء والسكينة .

ان الانسان المعاصر انتبه وأدرك بطبعه الاصيل ويدون نصيحة طيبة أن الضجيج يثر أعصابه ويريك أعماله ويعكر عليه صفاء ذهنه وانسجام سلوكه ، ويبحث فيه القلق والضجر والشقاء . فما هو رأي الطب وعلم النفس والاجتماع في صحة هذا الخدس ؟ تشير الدلائل في مجتمع القرن العشرين الى ظاهرة عميقة ومتناقضة ، وهي أن الانسان في مراحل تطوره الحضاري تعود دون أن يدري - وبالتدريج - على تقبل المزيد من الاصوات والنغمات ذات الشدة العالية فاذا به وقد أصبح « مدمنا » على الضجيج . وهذه هي العادة المكتسبة من المدينة بحيث خيل للانسان أن الصوت المرتفع ضرورة ، واذا به يعود يتحدث بصوت مرتفع وأنه يتحدث الى ثقال السمع بينما هو يقارب ثقل السمع حقيقة ! وهكذا يملأ شباب اليوم الامكنة والبيوت والنواصي والمراقص والسيارات بأعلى أصوات الموسيقى المجنونة الراقصة وينغمسون فيها انغماس المدمن المنتعش بينما يلجأ الجيل السابق الى خفت صوت المذياع والنفاز كالتمتع ببقية من موسيقا خافتة هادئة وكلام هامس رقيق ، لكن الامر لم يقف عند حدود الصراع أو المجابهة بين جيلين أو ذوقين بل أصبح مشكلة عامة .

وقد كشفت الأبحاث الطبية والنفسية، أن الأصوات العالية وكل ما يدخل في تكوين الصخب والضجيج تؤدي إلى مجموعة من التأثيرات الضارة على أجهزة الجسم ونفسية الإنسان ، حتى أن الأصوات العالية استخدمت أحيانا في سحب الاعترافات ومضايقة السجناء والمعتقلين ، فالصوت الصاخب الناشئ بوجه اليهم لينتهيجه جهازهم العصبي ، ويتقطع النوم أو يختفي تماما ، وتتضاءل فترات الراحة ، وينحدر السجين إلى حالة الإعياء فالإنهيار ، ومنها يتسلل المحقق إلى مدخل الاستسلام أو حالة (غسل الدماغ) والاعتراف .

ويمكن تعداد مضر الأصوات الشديدة وتلخيصها كما هو مبين أدناه وحسب تسلسل درجة علو الصوت بمقياس وحدة علو الصوت (ديسيبل) ابتداء من الرقم (٣٠) وحتى ال (١٢٠) أو أكثر :

أ - استثارة القلق وعدم الارتياح الداخلي فالتوتر فارتباك في الانسجام والتوافق الصحي المريح .

ب - إذا كان الشخص من ذوي الاستثارة السريعة ، تحدث اضطرابات فكرية في قوى التركيز والتذكر ، وتوتر عضلي في الأجهزة الداخلية الحساسة وعلى الأخص أعضاء الجهاز الهضمي : المعدة والأمعاء ، وكذلك جهاز الدوران (القلب) والتنفس .

ج - أحداث أضرار وتلف بطني وتخريب في جهاز السمع ، وهي الخلايا الحساسة في نهايات أعصاب المخ المرتبطة بالأذن الداخلة التي تنقل الصوت إلى الدماغ ، وهكذا إلى حالة من تقل السمع البطيء السريان وإلى الطرش ، ولعل ثقل السمع الأول هو الذي يدفع بالمصاب إلى الاستزادة من علو الصوت لعدم إدراك الإنسان أن سبب ثقل سمعه هو علو الصوت ذاته ، وهذا يقصر ميله إلى التخاطب بصوت مرتفع كما يفعل ثقبلي السمع .

د - يعتقد باحثون آخرون أن التخريبات الحاصلة في الأذن الداخلية أشبه ما تكون بالقروح التي تحدث في أجهزة أخرى .

هـ - أن خلط القلق والتوتر والصداع والارق يضعف من مقاومة الإنسان الذهنية وتماسك شخصيته ، وهو السبب في حصول الاعترافات لدى السجناء

و - أن التوتر العام المستديم يؤدي منطقيا إلى مضاعفات أخرى مثل القرحة المعدية أو الذبحة الصدرية . . وهذه تؤدي بدورها إلى مضاعفات أخرى . . .

صراع وحيرة :

هذه هي أضرار الاصوات العالية الصاخبة . . . وتلك هي سلبيات الصمت والسكون الثقيل ، كما ذكرنا في أول المقال ، فأين يجد الانسان راحته ويعيش نعيم أحاسيسه ؟ . . .

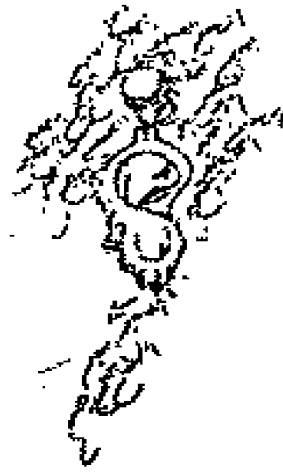
ان انسان اليوم - وهو الذي لا يستغني عن الصوت كغذاء حيائي وفكري - يعيش الآن بين نقيضين أو وجهتين : صخب وضجيج يقلق راحته ويخرب أعصابه ، أو هدوء وعزلة قاتلة ثقيلة في مراحل الشيخوخة وفقد المعارف والاحبة بعد التقاعد ، وفي كلتا الحالتين يتهدده شعور بالخطر الداهم على راحته النفسية وانسجام تفكيره وسعادته الدنيوية . انه الآن موزع بين (ضروريات) الصوت الطبيعي وبين (كماليات) الصخب الحضاري المؤذي . لكنه بدأ يتململ ويستتكر ويشور ويتظاهر مع الجماعات القاضية ضد المطارات الضخمة التي تنطلق منها وتحط عليها الطائرات الثقاة الضخمة في أمريكا وفي ألمانيا الغربية وفرنسا واليابان . . .

لقد انتبه الانسان أخيرا - دون تحريض الطب وعلم النفس - الى أن ما اخترعه وأسس وبنى بدأ ينفث سموحه وتخريباته ، وقد تجسد أمامه غول (تلوث البيئة) كحقيقة واقعة لا تريد الخوض في تفاصيلها ، ويبدو الآن أن الصخب والضجيج هما أيضا من المعضلات و (مخلفات) المدينة التي عهدت الصحة البشرية . ولعل من الطريف أن نستطلع حال الانسان قبل آلاف السنين . فمنذ خمسة آلاف سنة مضت ، وفي إحدى الحضارات البشرية العريقة في جنوب العراق (سومر وبابل) تتحدث الحفريات الأثرية عن ذلك الانسان الذي أزعجته المدينة بصخبها وضجيجها ، وكأن سليفته وغيبرته الصافية أرشدته الى الآثار السيئة للاصوات الناشزة والعالية . .

وفي ملحمة (اترا - حاسس) نعث على قصيدة بابلية مطولة تتناول بالتفصيل خلق الانسان وتسليط الالهة - وعلى رأسهم الاله (انليل) - كارثة الطوفان والقحط والامراض لاغناء البشر الذين (أقلقوا الالهة بضوضائهم وصخبهم) على خد تعبير الملحمة



ومع أن اصطلاح « الضوضاء والصخب » دليل على شسور الانسان ونزاعاته . . ، الا أن غضب الالهة واجراءاتهم بتقليل عند البشر يدل أيضا على أن كثرة السكان هي من عوامل الصخب والضجيج الذي يقلق راحة الالهة منذ بداية التاريخ المدون .
وبعد كل ما تقدم أليس من المنطقي أن نشاءل أو نؤكد على اعتبار الضجيج والصخب جزءا من عوامل تلوث البيئة رغم كونها مجرد دذبذبات صوتية ؟ ا .



الفصل الرابع

العلم وتطبيقاته الإنشائية :



غسل الدماغ !

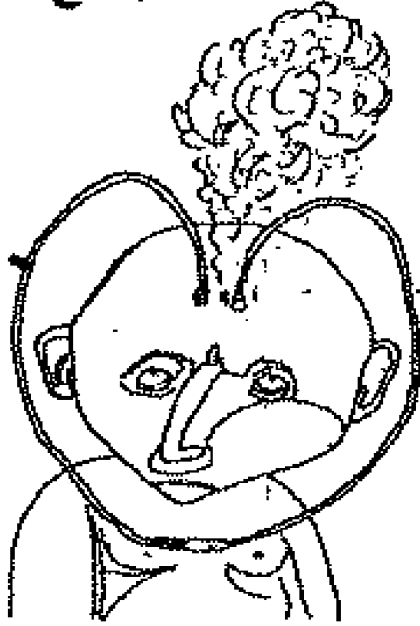
« غسل الدماغ » اصطلاح حديث يتردد استعماله كثيرا في السنوات الاخيرة ، وان كان يجري حدوثه منذ أقدم المجتمعات البشرية . وهو اصطلاح يوحي للرجل العادي بأنه عملية « غسل » أو « تنظيف » للدماغ البشري بطريقة ما . وربما يشتط به الخيال إلى تصور « مادة متظفة » لها القدرة على تخليص الدماغ من شوائبه أو أمراضه !! وهنا وجه الغموض وعدم الشمول في هذا الاصطلاح ، وكثير من المصطلحات الاخرى ترددت وشاعت على الرغم من نواقصها . . ربما لسهولة في لفظها ، أو لطرافة في معناها أو ليسر في فهمها ، أو لمجرد أنها ترددت فأصبحت مألوفة أكثر من غيرها . . وفي كل ذلك ما ينطبق على اصطلاحنا هذا .

ولكن لغسل الدماغ مرادفات علمية أخرى أدق تعبيراً وأوضح معنى ومنها « المذبة » أو « غرس العقائد » . . ومنها التحويل الفكري وسنأتي على شرح أهمية هذه الاصطلاحات فيما بعد . . وعملية غسل الدماغ وإن كانت قديمة ، فإن أسسها العلمية لم تصبح واضحة إلا في أوائل الثلاثينيات من القرن الحالي ، وكان ذلك على خطوات ودروس

العربي العدد ١٠٨ نوفمبر - تشرين الثاني ١٩٦٧ م .

متعاقبة وقبل أن نعرف ما هو « غسل الدماغ » و « الاقتناع الخفي » يجدر أن نعرف الأسس العلمية التي انبثقت عنها هذه العملية في الدماغ وعلى الدماغ . ولم نقل على الدماغ « البشري » .. لان الخطوة الاولى قد بدأت على دماغ حيواني ..

الدروس الاول .. من الحيوان ..



.. كان ذلك في عهد العالم الروسي الشهير (بافلوف) (١٨٤٩ - ١٩٣٦) الذي كان رائدا في ميدان الفسلجة والعصارات الحظمية والانعكاسات ، وحائزا جائزة نوبل (١٩٠٤) وكان يجري تجارب كثيرة على الكلاب والاغنام وغيرها .. ويلدرس الانعكاسات الغريزية فيها من جوع أو عطش بالنسبة لظروف اصطناعية يجاوبها بها .. ثم يبني على تلك الفرائز الاولى انعكاسات معقدة أخرى - أي يفرس فيها عادات جديدة لم تكن تعرفها تلك الحيوانات . وفي إحدى غرف مختبراته في (لينتجراد) كانت هنالك مجموعة من الكلاب ذوات العادات والانعكاسات المستحدثة التي تعلمتها بالتجربة .. وكانت الكلاب في أقفاصها عندما حدث فيضان (لينتجراد) الشهير سنة ١٩٢٤ . وانساب الماء من تحت أبواب المختبر وارتفع في أقفاص الكلاب السجينة حتى بلغ رقبائها .. فتملكها رعب واستبد بها الهيجان .. وكانت ان تموت غرقا لولا قدوم أحد مساعدي (بافلوف) في اللحظة الأخيرة فأخرجها ونقلها الى محل أمين ..

جاء (بافلوف) الى كلابه بعدئذ ليكمل تجاربه لوجود أن غالييتها قد نسيت أو فقدت العادات التي تعلمتها ، وأصبحت في حالة مشوشة ، وكان خلايا دماغها قد « غسلت » أو نظفت من كل التجارب التي كان قد أجراها عالم الفسلجة والأمراض النفسية ، حقيقة جديدة هي أن الحيوانات تتعرض للقلق والعصاب ، وهو ما دعي باسم « عصاب الحيوان » . وأصبحت تلك الواقعة النواة العلمية لعلم نفس تجريبي حول العصاب . . وأطلق على العصاب النتائج عن تجربة مصطنعة اصطلاح « العصاب التجريبي » .
وأصبح بالإمكان خلق ظروف واصطناع حوادث مهددة أو مثبطة (كفيضان ليتجراد) لآحداث حالة من التهيج العقلي أو العصاب أو بالاحرى « غسل دماغ » للحيوانات تحت التجربة من قتران أو أرانب أو قطط أو قرود . .

الدرس الثاني . . على الانسان :

واقضحت لدي علماء النفس ظواهر مشوقة جدا عن العقل البشري كانت الحجر الاساسي لنظرية في علم نفس الشخصية والتعلم . . وهي أن الانسان يمتلك انعكاسات وخواص بدائية « خلقية » . . ولكنه في كل لحظة من حياته يمر بتجارب ويتعلم دروسا هي بمثابة لبنات في بناء شخصيته وتفكيره أي أنه يبنى فوق انعكاساته البدائية انعكاسات جديدة أخرى وحادات حديثة يكون لها الأثر الكبير في أسلوب تفكيره وعقيدته واتجاهاته في الحياة . . .

ولكن هذه العادات والافكار المكتسبة ليست ثابتة وليست خالدة . . فهي عرضة للاهتزاز أو التفتت أو الاضمحلال ، ومضى يحدث ذلك ؟ . . في الحالات التي يتعرض فيها الانسان الى ظروف قاهرة صعبة تجعل جهازه العصبي في حالة من التوتر أو الحساسية الشديدة أو الشيط الحاد . . وفي هذه المرحلة المخرجة تصبح خلايا دماغه عاجزة عن الاحتفاظ بما اختزنه من عادات ، بل قد تصبح شبه مشلولة عن العمل والمقاومة . . بل إن مقاومتها للأذى والتهديد الواقع عليها قد يتقلب الى تقبل أشد واستسلام أسرع لعادات جديدة أخرى وانعكاسات غريبة قد يتصادف حدوثها في تلك الحالة .

اذن ، فالإنسان - كحيوان المختبر - يتعلم ببناء الانعكاسات واحدة فوق الأخرى ، وأنه يمكن أن تتداعي تلك الانعكاسات أو تضطرب وترتبك في حالات التوتر العصبي أو « العصاب الحاد » الذي ينتج عن عوامل مهددة أو حوافز مرهقة متكررة تهز جهازه العصبي وتجعله كريحشة في مهب الريح ، لا حول له ولا طول ، ، ، وعندئذ « يفسل دماغه » من أفكاره القديمة وانجمااته وميوله . . . ويصبح قابلا للاستجابة وفريسة لتعاليم جديدة . .

المرس الثالث . . من الحياة :

ورجع علماء النفس إلى المختبر الكبير بعد أن كانوا يعملون في المختبر الصغير . . . ورجعوا إلى الحياة وتاريخ البشرية ، فوجدوا أن « العصاب التجريبي » و « غسل الدماغ » الناتج عنه قد حدث ويحدث في مواقف عديدة من عمر البشرية . وكان أقرب مثال لهم الحريان العالميتان الأولى والثانية . فهناك . . . في ساحة المعركة أصيب جنود وضباط بـحالات تهيج عصبي وعصاب حاد أفقدهم توازنهم المعروف وشجاعتهم المسلم بها ، وأصبحوا في حالات من ذعر أو ذهول أو أعراض جسدية غريبة ، وكان تلك الظروف الحرجة أربكت حواسهم وجعلت من سلوكهم شاذج طفولية فجأة أو سخيفة . وتبين بأن لحظات معينة أو ساعات خاصة أثناء المعركة أوصلت جهازهم العصبي إلى تلك الدرجة من التحفز والتهيج فالانبيسار ، بحيث « غسلت دماغهم » من تلك العادات (والانعكاسات) و (المعاني) الحضارية المكتسبة التي تعلموها كالثبات والاتزان والحكمة والشجاعة . وقد أطلق على هذا النوع من العصاب اصطلاح (عصاب الحرب) ، أو (صدمة القنابل) أو (إعياء المعركة) .

ورجع الباحثون من قرنهم العشرين إلى مئات السنين الغابرة . . . ووجدوا بأن المعركة والمواقف الدقيقة قد فعلت نفس فعل الحروب الحديثة . ويذكر المؤرخون عن جيوش القيصر الروماني الذي كان يمتلك قصيلة من نخبة الشجعان المحاربين من حاملي الصقور . . . وكيف أن بعضا منهم بعد سنين طويلة من البلاء الحسن والشجاعة انهاروا فجأة . . . فترك أحدهم الصقر بيد

القيصر وهرب ، وفهم الآخر بضرب القيصر نفسه عندما اعترض طريقة . .
وفي أثناء الغارات الجوية الشهيرة على لندن في الحرب العالمية الثانية بلغ
الارهاق والتوتر العصبي لدى الناس مبلغه وان كانوا في متهي الصبر . . وكان
التهديد المتكرر المتواصل قد أوصل عقول بعض العامة الى « الحافة الحرجة » الى
موقف العصاب الحاد و« غسل الدماغ » فأصبحوا في وضع تقبل الايحاء ، وكان
الايحاء الخطير في ذلك الوقت هو « الاشاعات » التي تنتقل من فم الى فم أو
بالاخرى من عقل مغسول الى عقل مغسول آخر وكانت أهم الاشاعات التي
تنتقلت في ذلك الحين هي عين ما كان يذيعه راديو ألمانيا باسم « الفورد هو . .
هو . . » من دعايات مثبطة ومزيفة الطلت على العقول المغسولة .

تلك الامثلة وغيرها . . وغيرها . . أثبتت بأن العقل يمكن أن يغسل ، وأن
ما « يغسل » الدماغ هو امل كثيرة منفردة أو مجتمعة هي :

الصدمات النفسية المفاجئة . . التهديد المستمر . . المواقف الشديدة المرعبة
كالمعارك الدامية . . الارهاق العصبي المستمر كالمسهر المتواصل أو النوم
المتقطع ، أو الجوع والعطش أو الآلام الجسمية والنفسية التي لا هوادة لها . . ثم
مفعول بعض الادوية الخاصة . كل هذه العوامل تحفز أو ترهق أو تخدر الخلايا
الدماغية وتوصلها الى الحافة الحرجة بحيث يصعب عليها أن تحتفظ بما تعلمته ،
ويتم غسل الدماغ .

الى هنا فقط واصطلاح « غسل الدماغ » يفي بالمعنى ويشبع الغرض العلمي
بدقة اذ أنه يدل على عملية « تطهير أو طرد » لعادات وأفكار وميول اكتسبها عقل
الانسان في وقت مضى . . ولكن . . لكن العملية كما هي في واقعنا ليست مجرد
تطهير أو طرد عادات بل تتبعها عملية أخرى لا تقل خطورة وأهمية عن سابقتها
ألا وهي ادخال أو « غرس » عادات وأفكار أخرى جديدة في ذلك العقل
« المغسول » . وهي عملية شبه ايجابية تتسلط على العقل الذي أصبح نظيفاً
« ناصعاً » وحساساً - بل لقمة سائغة لحشوه بأية فكرة أو دعاية أو عقيدة ،
وهناك يتجلى عجز اصطلاح « غسل الدماغ » عن وصف ما يجري بالحقيقة . .
وهنا ندرك أيضاً بأن اصطلاحات « الاقتناع الخفي » أو « المذبة » أو « التحويل
الفكري » هي أشمل وأدق علمياً ، والاقتناع وغرس العقائد لا يمكن أن يتم
بدون غسل الدماغ أولاً . . كما أن غسله وحده لا يحقق المطلوب ما لم يتبعه

لتحويل فكري . .

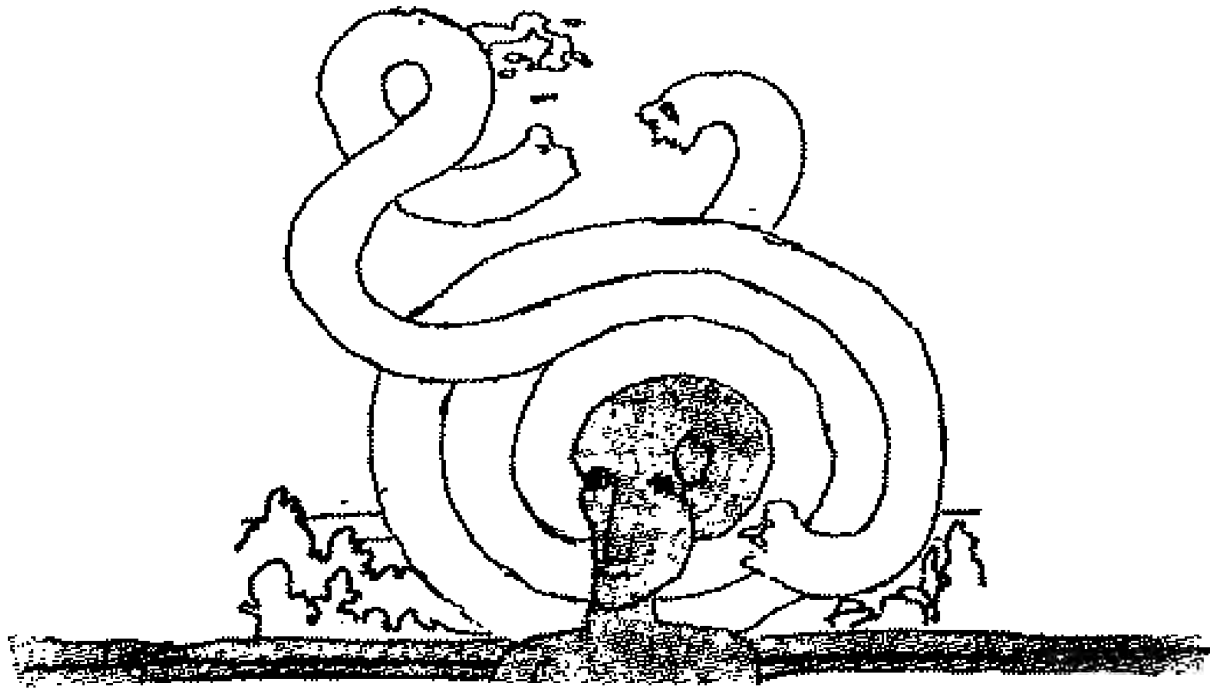
ومنذ أول المجتمعات البشرية اكتشف الانسان بأن عملية التحويل الفكري يمكن أن تتورط بطريقة ما . . وكانت الطريقة القديمة حديثة أو من طريق الصدفة ، وأصبحت الطريقة الحديثة . بعد أن دخل علم النفس في المرحلة التجريبية . مبنية على نظريات علمية ومخططة . .

والأقناع القديم . . .

هو « غسل الدماغ » وحرص أفكار جديدة فيه أو الاحتفاظ المستمر بما وصل اليه دون تخطيط أو أدراك لأسسه العلمية ، وقد قلنا بأن الانسان منذ أن وجد وسط « جماعة » كان يتعرض بين الحين والآخر الى عمليات « غسل وتحويل » دماغي ، فالرجل البدائي الذي يدخل حلبة الرقص وينشد الاناشيد ويصرخ ويرقص على دقات الطبول هو في الحقيقة في « أتون » التهييج العصبي الذي يوصله الى حالة « الغسل » حيث يكون أكثر تقبلاً واطاعة واستسلاماً لتعاليم قبيلته أو رئيسه الديني أو « الشامان » . . أو الوثن الذي يوحى له بقوة سحرية خارقة . .

والصورة الحديثة لما يجري في الثقافة البدائية هي حلقات « الزار » ومثيلاها التي نعرفها في بلادنا العربية . ففي قمة الاحتفال ، ينتهي التهييج العصبي بحالة « شبه الحمائية » تجعل من العقل البسيط شريطاً حساساً يلتقط الايماءات « بقوائد » ملموسة كشفاء من مرض بسيط أو من مرض هستيري سابق .

وتلجأ بعض الطوائف الدينية الى لم أعضائها وربطهم عن طريق الاحتفالات والطقوس المتكررة والتي تنغلغلها الاثارة الحسية أيضاً . ففي ولاية « كارولينا الشمالية » طائفة تستعمل « الافاعي » في احتفالاتها ، وتناول الأفعى باليد ثم وضعها على الجبهة والرقبة والأكتاف تثير في المتلقي الانفعالات التي « تغسل » دماغه ، ولجعله متهيئاً دوماً للتلمذ والتأديب والايثار . . والايغال فيه . فالجماعة . . والانشيد . . والرقص الجماعي . . والموسيقى . . والبخور . . وإيقاع الطبول . . والافاعي . . كلها امثلة على كيفية « غرس العقائد » بطريقة حديثة عضوية . .



ويجب أن نذكر بأن « غسل الدماغ » العفوي و « الاقناع » غير المتعمد يجري وقوعه الى يومنا هذا ، وأذكر على سبيل المثال ما يجري أحيانا في قاعات المحاكم حيث يصادف ان يتهم شخص ما بجريمة ما وتكون الأدلة ضده قوية ، وكل دليل يمكن ان يكون مثبتا للجريمة او ان يفند باحتمال ضعيف جدا . . . ويصادف أيضا ان يكون المتهم بسيطا او محدود الذكاء . . . وتكون فترة احتجازه واستجوابه وتكرار التحقيق واجراءات الامن والشرطة و رهبة المحكمة . . . عوامل متراكمة تؤدي الى « غسل دماغه » ثم الى تقبله الاتهام والاعتراف بحيث ينهار فجأة ويعترف بأشياء لم يقم بها حقيقة ولكنه « يعتقد » بصحتها او لا يتفحصها بعد ما تعرض له . دون قصد . من غسل دماغ واقناع . . . وذهب ضحية ذلك ابرياء شتقوا ولم يستحقوا الشق .

الاقناع والتحويل الخديث . . .

. . . لا يختلف عما سبقه الا بكونه أصبح علميا او مقصودا تستخدمه مختلف الهيئات . . . والفئات . . . والحكومات . . . والشعوب . . . لتحقيق غرض ما . . . وابتسط الأدلة على ذلك هي حرب الدعايات التي برزت في الحرب العالمية الثانية وبرع فيها (جويلز) في ألمانيا . . . فجعل من الأوهام حقائق انطلقت على عقول

الملايين في انحاء العالم واصبح غسل الدماغ شبه حرب فكرية دهائية ، واقتضى ان تبتكر وسائل مضادة للتحويل الفكري ولزيادة مناعة الافراد ضد دهائيات الأخرين ..

وفي مجرى حياتنا اليومية في هذا القرن العشرين امثلة اخرى عديدة « ومبسطة » لغسل الدماغ و « تحويل الافكار » .. منها ما تسلكه الشركات والمجلات التجارية من طريق الصحف او السينما او التلفزيون ، من وسائل الدعاية والاقتناع باهمية منتجاتها وفائدتها سواء اكان ذلك طعاما أو أدوات للزينة او للتنظيف او اغاني او افلاما او سيارات .. وتستخدم المؤسسات والشركات في عملية « التحويل » هذه حيل الالوان وتأثيرها والاخراج المسرحي في التلفاز والسينما .. والموسيقى التصويرية .. والاصوات والاساليب الكلامية المغرية .. وكل هذه الحوافز تؤثر في الجهاز العصبي للانسان وقد تتجمع في تحويل ميوله او تبديلها .

و « حيل الاقتناع » تلك كانت جارية على قدم وساق في المصور المظلمة والتي تلتها بصورة حديثة او « غريزية » ، فالدجالون من « الاطباء المتحولين » كانوا « يحولون » افكار البسطاء الى معتقدات بفوائد عقاقيرهم وعطوورهم ..! .. واذا كان ما ذكرناه هو « تحويل فكري » مذهب ومخطط .. فان حوادث اخرى من غسل الدماغ تقع بصورة « روتينية » ولو استعنا بالخيال قليلا .. لا يمكننا ان نصور رجل الغاب او الانسان البدائي قد انتقل الى احدى مدن الغرب .. وليس « البنطلون » الضيق .. ودخل احد المراقص المتناثرة هنا وهناك .. فان من الهين عليه جدا ان « ينسجم » مع الصخب والالوان الصارخة والاضواء الخلابية .. بل يسهل عليه ايضا ان يشارك في رقصة « الجاز » والروك اند رول « و « التويست » ، وما تلك الرقصات الا طيمة حديثة متقحة لنسخة قديمة ، فقرع الطبول ، وضرب « الصاج » ، وارتعاش الجسم وتلويح ، مع الخمرة والدخان .. هي اشبه « بغسل الدماغ » البدائي الذي يجعل عشرات الناس تحت تأثير محجري واحد يسيطر على تلك الحلبة .



في ميدان العلاج النفسي :

يجري « غسل الدماغ » مع المريض نفسياً بفرض « تحويل نفسي » مستمر ، ولكنه يرمي الى شفائه وليس الى « استئصال » عقله . وكان ذلك أيام الحروب عندما يصاب رجال المعركة بـ « صدمة القنبلة » ويصبحون في حالة من اضطراب عصبي مستيري حاد كالشلل الوقي أو فقدان الذاكرة أو العمى الخ . . . فيقوم الطبيب بعملية سريعة وناجحة للعلاج النفسي وهي « رد الفعل الماكس » أو التطهير السريع ، وذلك بحلقن المصاب بمادة معينة عتدي من التهيج واضطراب خلايا دماغه . . . وعندئذ حينئذ يكون المريض بين النوم واليقظة بعد على ذاكرته ما جرى له من حوادث في المعركة ذاتها . . . فيستعيد ذكرياتها و « يعيشها » مرة أخرى بمحاولتها ورعبها وتوترها ، ويكون سرور الحادثة المؤلمة بمثابة « غسل دماغ » من التجارب القاسية ، وينتج عنه شفاء سريع ومرض .

ويتهم الأطباء النفسانيون من الذين لا يؤمنون بمدارس التحليل النفسي واللاشعور ونظرياته بتهمون زملاء هم من المحللين النفسانيين بأن ما يقومون به من علاج نفسي إنما هو « غسل دماغ » و « تحويل افكار » يجري بين المحلل ومريضه . فالمرضى يضع ثقتهم في طبيبه . . . وطيبه يستدرجه الى حالة التطهير - أي سرود ذكرياته . . . وبين حين وآخر يؤكد الطبيب لمريضه نقاطاً خاصة في اعترافاته أو يدفعه في اتجاه معين هو اتجاه مدرسته التي ينتمي اليها المحلل . . . والنتيجة هي أن « يتحول » المريض الى ما يريد الطبيب ، وهو المطلوب في العلاج النفسي ! . والحقيقة أن هذا التفسير التهكمي لا يتقص شيئاً من قيمة التحليل النفسي وأهميته ، كما أن له حدوداً مقنعة ليس هنا مجال بحثها ، وإذا شئنا التعميم على هذا القياس لقلنا بأن كل شد وجذب بين عقليين بشريين يتضمن شيئاً من محاولة لغسل الدماغ وتحويله . . .



أضواء على العلاج النفسي

قال المفكر (تروود) إن العلاج النفسي يشفي المريض « أحيانا » ، ويخفف عنه « غالبا » ، ويرمجه « دوما » . وهو تعريف موجز وبلغ وشامل لحقيقة ما يجري في العلاج النفسي في عصرنا هذا .

وإذا كان علم النفس المرضي والأمراض العقلية علما حديثا قصير التاريخ ، فإن الطب النفسي ممارسة بشرية عريقة جدا ترمي إلى التخفيف عن الآلام ومعاناة الإنسان من جراء شتى الظروف القاسية والملايسات المؤلمة ، وكان الطبيب البارع في العصور الغابرة يمارس شتى فروع الاختصاصات الطبية المعاصرة من جراحة وطب باطني ومن بينها العلاج بالطرق النفسية أيضا .

والقصص الطريفة التي تروى عن ابن سينا والرازي وغيرهما ، وعن ألمانيتهم النفسية لشفاء بعض الأمراض النفسية ، ما تزال تصلح أمثلة مفيدة للطب النفسي الحديث ، وما نود أن نؤكد عليه هو أن محاولة الإنسان للتخفيف والترويح عن الأزمات النفسية لا تحجب الإنسان ، ما هي بالحقيقة إلا « معالجات نفسية » بالمفهوم الحديث . ونصائح الأصدقاء ومواساة الأقارب والايحاءات وتشجيعات رجال الدين وعقلاء الجماعة ، هي أمثلة قديمة وحديثة وبسيطة للعلاج النفسي .

ولم يصبح العلاج النفسي فنا خاصا مستقلا بذاته تمارسه جماعة من الاطباء والمتخصصين الا في أواخر القرن التاسع عشر ، وذلك عندما برز علم النفس وانسلخ عن أمه « الفلسفة » دون رضاها ليشق له طريقا آخر مستهديا بالعلوم الطبيعية الاخرى ومبتكرا لنفسه الابحاث والنظريات .

لا علاج يغير نظرية :

وطبيعي أن العلاج - أي علاج - يجب أن يستند على طبيعة الاسباب ، والعلاج النفسي القديم يختلف عن العلاج الحديث في نظراته الى مسببات الاضطراب النفسي والى كيفية الازالة أو تعطيل تلك المسببات ، لذلك نجد البون الشاسع بين العلاج النفسي الحديث والعلاج البدائي القديم ، كان الانسان البدائي يعتقد أن المرض النفسي ينتج عن « حلول » أرواح شريرة فيه ، أو عن اصابته بمفعول « لعنة » سلطها عليه أعداؤه أو أحد أفراد القبيلة المجاورة لقبيلته ، واقتضى « المنطق » حينذاك أن يكون العلاج « بطرد » الروح الشريرة وإبطال اللعنة السحرية ، ويتولى كاهن الجماعة أو السطبيب الساحر أو « الشامان » تلك المهمة ، ويلجأ الى استخدام الوسائل البدائية العديدة لشفاء المريض ، كتقديم القرابين والرقص الشعائري واحتساء العقاقير ومنقوع الاعشاب الطبية الغريبة ، وما تزال آثار تلك الوسائل الخرافية موجودة الى يومنا هذا في مجتمعات بدائية متفرقة من المسمورة ، وكذلك بين الطبقات البهاة من المجتمعات والدول النامية .

ويطول المقال لو تتبعنا كل وسيلة علاجية نفسية قديمة وأسسها الفلسفية والنظرية ، ولكننا نستتج بأن العلاج النفسي يستند ويرتكز على أرضية من نظرية أو فكرة تفسر الطبيعة والسبب للمرض النفسي . والنظرية الخرافية تتبع علاجا خرافيا ، والنظرية الروحية تتبع علاجا روحيا . . . وهكذا ، الى أن نكون قد وصلنا الى دور مدارس علم النفس المعاصرة .

ويحق للمفكر والمثقف أن يستغرب من اصطلاح « مدارس » علم النفس ، إذ سيدرك فورا أن وجود المدارس يعني بطبيعة الحال اختلافا في تفسير المرض النفسي وأسبابه ، وهذا ما يجب أن نعترف به شتأ أو أبينا . فالمرض النفسي لا

يزال معضلة فكرية وعلمية وفلسفية قيد البحث والتنقيب والجدل . الا أن شيئا واحدا يتفق عليه الجميع ، هو أن المرض النفسي يختلف كثيرا عن المرض العضوي ، وأنه يمتاز (بالقلق الدائم أو الاضطراب الفكري ، والشعور بعدم الاستقرار أو الامان ، وسلوك لا يرضي الذات أو لا يرضي غيرها ، وأنه نتيجة أزمات وعقبات داخلية أو تجارب وأساليب غير موفقة في مواجهة الحياة أو الاشخاص أو الجماعات) . ولا شك أن الطفولة التيمسة والتربية الخاطئة في الحياة العامة والتوجيه الجنسي والفكري والعاطفي والعادات السيئة الاولى تحتل الجانب الكبير في التمهيد للوقوع في المشاكل والأزمات وعواصف المستقبل النفسية .

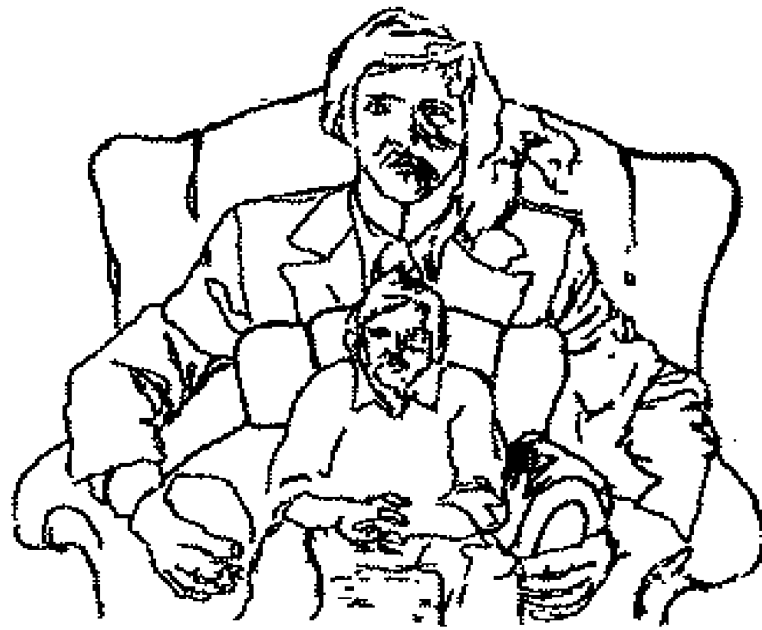
وتركز كل مدرسة نفسية على ناحية أو بضعة نواح من هذه المؤثرات وتعمل الاخرى ، أي أن لكل مدرسة نظرية خاصة في العقل والحياة والسلوك ، وعلاجها النفسي مستمد من تلك النظرة ، وستبين الفوارق والخصائص لتلك المدارس من خلال استعراضنا لخطط علاجها النفسية .

طبيعة العلاج النفسي الحديث :

بتطور العلوم الانسانية والحياتية ، انتبه الانسان الى أن المرض النفسي يجب أن يكون موضع البحث والنهج العلمي ، وأن تفقد مسيئاته في الفرد أو الجماعة أو المحيط - كما بينا - وأنه يجب أن يعالج أيضا بأسلوب علمي وأخلاقي وإنساني يخلو من الدجل والخرافة ويرفض العنف والقسوة ، وهذه هي مزايا العلاجات النفسية الحديثة .

والخاصة المهمة الاخرى للعلاج النفسي هي استخدامه الكلمات والافعال والاتصال الروحي أو العاطفي الانساني في تحقيق عملية الشفاء دون اللجوء الى الادوية والمقايير أو الى الادوات التكنولوجية والطبية الاخرى التي يعتمد عليها الطب الجسماني المعروف .

وقد كان مفهوم العلاج النفسي في الحضارات العريقة أنه : كبل وسيلة نفسانية لعلاج الامراض سواء كانت عضوية أم نفسية ، كما يتجلى ذلك في تعاليم أيوقرراط وفي علاجات مشاهير الاطباء العرب . ثم أصبح مفهوم العلاج



النفسي مقتصر على علاج الامراض النفسية بالوسائل النفسية فقط . وأخيرا ، ومنذ الخمسينيات من هذا القرن استرجع العلاج النفسي شيئا من مفهومه القديم - أي علاج شتى الامراض بالوسائل النفسية - ولا يعني هذا أنه يمكن معالجة السرطان أو التدرن الرثوي مثلا بتحليل النفسي لكنه يعني أن النظرة الحديثة لعلم النفس تعتبر الانسان وحدة كاملة من نفس وجسم ، وأن كل اضطراب نفسي ناشيء عن أسباب نفسية خالصة أو عضوية يمكن أن يعالج نفسيا . فالمصاب بالتدرن أو السرطان قد يعاني بالإضافة الى آتته العضوية من الغم والقلق أو الميل الى الانتحار نتيجة ادراكه لحالته الخطيرة ، وعندئذ يلعب العلاج النفسي دوره بالطبع بالإضافة الى العلاج العضوي الخاص .

الا ان النسبة العظمى من العلاجات النفسية الحديثة تقتصر على مكافحة الامراض النفسية ، كما أن العلاج النفسي يقوم بدور خطير أيضا في معالجة الامراض النفسائية الجسمانية (السايكوسوماتية) كالربو والقرحة المعدية والضعف الجنسي وبعض الامراض الجلدية ، الخ . ومن كل ما تقدم ، يمكننا تعريف العلاج النفسي بأنه : « كل مجهود فردي أو جماعي يرمي الى تخفيف الآلام والمعاناة واضطرابات النفس التي تنتاب الحالة العقلية والعاطفية للانسان وتؤثر في سلوكه ، بالوسائل النفسية فقط » . ومن التعريف هذا ندرك أن هناك نوعين من العلاجات النفسية : ١ - العلاج النفسي الفردي والذي يجري بين

المعالج الواحد والمريض الواحد .
٢ - العلاج الجماعي وهو الذي يجري بين مجموعة من المرضى ومعالج واحد أو أكثر .

التحليل النفسي والعلاج النفسي :

من الضروري ايضاح القموض ورفع الالتباس الدارج وهو اعتبار العلاج النفسي مرادفاً للتحليل النفسي ، وهذا غير صحيح . فمئذ أن حل الانشقاق الكبير بين فرويد وبوتج وأدلر الذين كانوا يعملون كضريق متميز عن بقية اتجاهات علم النفس ، تبعت ذلك مرحلة جديدة أخرى بظهور تلامذة علماء طوروا النظرية الفرويدية - بالتنقيب والتشذيب والاضافة - وهم الذين أطلق عليهم جماعة (الفرويديون الجدد) . كما دخلت العلوم الاجتماعية والانسانية الاخرى في ميدان علم النفس ، وظهر علم النفس الاجتماعي وعلم النفس الانثروبولوجي ، وتطورت السلوكية التقليدية لو اتسوت تطورا جذريا ، وأصبحت العلاجات النفسية بطبيعة الحال عديدة ومتباينة ، وبقيت الطريقة الوحيدة للتحليل النفسي الكلاسيكي أو الفرويدي كسما هي ودعيت بالعلاج النفسي للاعماق والتحليل النفسي فقط ، ودعيت الطرق الاخرى للتحليل النفسي التي لا تتناول أعماق الذات ولا تتوغل الى مدى بعيد من الماضي السحيق بالتحليل النفسي السطحي ، هذا بالاضافة الى عدة وسائل أخرى متعددها باختصار ووضوح ، وعليه فالتحليل النفسي اذن واحد من مجموعة كبيرة لوسائل العلاج .

أنواع العلاجات النفسية :

١ - التحليل النفسي (الفرويدي) ، وهي الطريقة الشاقة الطويلة التي ابتكرها فرويد ، والتي تستغرق أشهرا طويلة وتتجاوز السنة الى ثلاث السنوات ، المريض يستلقي على أريكة في غرفة العلاج ويترك العنان لأفكاره .. ويجول في ماضيه وحاضره .. ويحكى أحلامه الليلية ، أما المحلل

فيمهد له الطريق بتوجيه وتعليق مبطن وتفسير غير مباشر ، الى أن يكتشف المريض تدريجيا القوى الخفية المكبوتة في عقله الباطن ويطلع على أسرار غرائزه الجاهلة وميوله الغامضة وأسباب اتخاذ السلوك المعين ، ويعتقد فرويدون أن مجرد اطلاع المريض على ما يدور في لا شعوره من عقد ونوازع مكبوتة - وأغلبها جنسية الطابع - هي الخطوة الحاسمة نحو الشفاء ، التحليل النفسي من هذا النوع قليل الاستعمال ويقتصر على حالات خاصة منتخبة بما تتطلبه من جهد ووقت وتكاليف مادية .

٢ - التحليل النفسي اليونيجي (نسبة للعلامة يوتج) ، وتدعى "analytic al therapy" وهو يشابه التحليل النفسي للاعماق باعتماده على تداعي الكلمات والأفكار وتسلسلها الحر ويرمي الى الكشف عن عالم اللاشعور ، لكنه لا يعتبر أن الجنس هو مصدر الازمات والاضطرابات النفسية - كما يعتقد فرويد - بل كل ما في الحياة من مطالب روحية وحياتية ، وكذلك المطالب والغرائز السلبية للجنس البشري بآجمه وليس للفرد الواحد .

٣ - التحليل النفسي الأدلري (نسبة للعلامة أدلر) ، وهو لا يكثرث باللاشعور والعقل الباطن ويؤمن بأن القوى المحركة للسلوك البشري تكمن في نزوعه الى تأكيد الذات وسطوتها وبروزها . والعلاج النفسي الادلري يحاول أن يكشف للمريض ميوله واتجاهاته التي يريد بها - من طرف خفي - أن يعوض عن شعوره بالنقص ، وبذا يدرك المريض سر سلوكه الحالي واضطرابه النفسي . وتحمل هذه الطريقة أهمية في الولايات المتحدة الامريكية .

٤ - العلاج النفسي السطحي (أو الخفيف) ، وهو أي علاج نفسي لا يحاول نبش أعماق اللاشعور أو الاهتمام بكل دقائق النزعات الذاتية ، بل يتوخى الاستمرار العام والسريع لا يبرز الملامات والحوادث لحياة المريض العاطفية ومساعدته على استيعابها وحلها . وتشتمل العلاجات النفسية السطحية على وسائل مختلفة اقتطفها وانتخبها علماء النفس كاجتهاد خاص بهم أو بمدارسهم الفرعية ، وهي :

أ - العلاج النفسي الارشادي ، وهي الطريقة التقليدية بإسداء النصائح والارشادات التي يراها الطبيب النفسي (أو الصديق أو الحكيم في الماضي) مناسبة للمريض بعد دراسته . وهي وسيلة محدودة الفعالية في أغلب

الاحيان ، لانه لا يكفي أن تنصح المقامر مثلاً بترك المقامرة لمضارها المعروفة ، بل أن تشرح له سر العوامل التي أدت به الى هذا المصير وإلى كيفية التخلص منها .

ب - العلاج النفسي القسري ، وهي أشبه ما تكون بسابقتها ، إذ يلجأ المعالج الى الارشاد والتوعية « الحازمة » للمريض مثلاً ينصح الاب أهله أحياناً ، وللطريقة هذه مزاياها في حالات معينة فقط لدى الأشخاص الذين يجنون الخضوع والانقياد ، وفيما عدا ذلك فهي عقيمة كسابقتها .

ج - العلاج التوجيهي المرتكز على المريض وهي الطريقة التي ابتكرها النفسي الأمريكي روجر . وتتلخص في أن يقوم المريض بالجزء الأكبر من الحديث والتعبير عن أفكاره ، بينما يقوم المعالج بدور الموجه الثانوي والتفسير الضروري جداً غير المباشر ، إلى أن يتوصلا إلى لب المعضلة ويكون المريض قد اكتسب معرفة أوسع لنفسه وب نفسه .

د - العلاج النفسي الايضاحي ، وهنا يزداد تدخل المعالج في التوجيه الى حدود الشرح والايضاح والتوعية ، وذلك من خلال الاعترافات وتصريحات المريض .

هـ - العلاج النفسي الابدائي ، ويزداد الدور الابدائي للمعالج فيتدخل في توجيه المريض باتجاه الأفكار الصحيحة الى ذهنه .

و - العلاج النفسي الاسترخائي ، وهنا يهيئ للمريض جو من الهدوء التام والضيء الخافت والاسترخاء والانعزال عن العالم الخارجي بالإضافة الى الابداء والارشاد . وتستخدم بعض المراكز النفسية الحمامات والامواج الكهربائية المنومة لتحقيق استرخاء أكثر مما لا يعد علاجاً نفسياً صرفاً .

ز - العلاج بالموسيقى ، وهي ليست طريقة خاصة ومستقلة بذاتها ، بل إنها وسيلة اضافية لتحقيق الاسترخاء والهدوء عن العالم الخارجي وبذلك تكون الموسيقى مفتاحاً الى تقبل الابداء والتوصل الى الصفاء والهدوء .

ح - العلاج باللعب ، وهي الطريقة المفضلة لعلاج الاطفال ، فالتفاهم مع الاطفال عملية عسيرة ، وقد يعجز الكلام عن الايصال وايضاح الأفكار والانفعالات ، بل إن بعض الاطفال يحجمون عن الكلام أمام الطبيب النفسي . لذلك ابتكر بعض علماء النفس طريقة اللعب في غرف وقاعات



خاصة معدة لهذا الغرض ، ويترك الطفل ليلعب بشئى الادوات مع نفسه أو بالاشتراك مع غيره من الاطفال المرضى ، ومن خلال ألعابه وسلوكه مع مواد اللعب أو الاطفال ، ومن نوعية اجاباته عن بعض الأسئلة التي يلقيها المعالج « عرضا » ويتمدد ، يمكن تكوين فكرة تقريبية عن أسباب مرضه وكيفية علاجه .

٦ - العلاج النفسي التمثيلي (السايكودراما) ، وهي الطريقة التي ابتكرها النفساني الايطالي (موريانو) ، وأصبحت الوسيلة المتبعة في مراكز متعددة للعلاج النفسي في العالم . فبدلا من الحديث والتحليل النفسي بالكلام ، يطلب من المريض أن يقوم بتمثيل أدوار معينة في تمثيلات آنية أو مهياة سابقا بالاشتراك مع مرضى آخرين ، ومن خلال تقمصه الادوار « المريضة » والانفعالات والاحاديث المتبادلة تتجلى دقائق الافكار والمشاكل والاسباب الخفية . وقد يستند الدور المعاكس الى المريض لتحقيق هذه الغاية . فمثلا يقوم الزوج بدور الزوجة والعكس ، وعندئذ تصبح التمثيلية سجلا مثيرا لانفعالات غير متوقعة وتزيح الستار عن أسباب الخلاف الاسرى . . . الخ .

٧ - العلاج بالتنويم المغناطيسي ، اذ يستخدم التنويم المغناطيسي كوسيلة للحصول على الاعترافات وللكشف عن سرائر النفوس التي قد لا يجرؤ المريض على الافضاء بها وهو في كامل وعيه . كذلك يمكن ايجاء الافكار الصحيحة اليه وهو نائم .

٨ - الاستعانة بالعقاقير المهلوسة : يعجز المريض ويتوقف عقله عن التحرر من أسار الخجل والشردد أثناء التحليل النفسي ، وتنجح بعض العقاقير المصنوعة حديثا في فك عقدة لسانه والاسراع بالتصريح عن كوامن أفكاره - أي باثارة تداعي الافكار الحرة مما يصبح أشبه بالهلوسة . وأشهر عقار استخدم لهذا الغرض هو (ل . سي . دي) D . C . L وهذه هي البداية تاريخ ال ل . سي . دي ، الا أن تسريه الى السوق السوداء واستغلال المفسدين جعله في متناول الشباب المنحرفين والمجرمين وأصبح في عداد المخدرات الخطرة لما يحدثه في الجهاز العصبي من تحولات ضريبة .

٩ - العلاج النفسي السلوكي ، وهي الوسيلة التي تختلف تماما عما ذكرناه آنفا من وسائل علاجية . وهي تعتمد على نظرية السلوكيين القدامى والمحدثين

والقائلة إن المرض النفسي مجرد « عادة خاطئة » تعلمها الإنسان في ظروف حياته . فالعلاج السلوكي يحاول تبديل السلوك بإزالة العادة السيئة أو التعميض عنها بتشبيطها وإبطال مفعولها . ويستعين السلوكيون لتحقيق هذا التحويل بالإيحاء المتكرر والمصحوب بالأدوية أو الآلات الكهربائية لتنفيذ المريض من عاداته ونحويله عنها . ولذلك فإن العلاج السلوكي لا يمد علاجا نفسيا خالصا لعدم اعتماده على الكلمات والاتصال العاطفي بين المعالج والمريض . ولم يثبت نجاحه في كل الحالات المرضية ، لكنه ييثر بالنجاح في علاج أمراض الادمان على المخدرات والانحرافات الجنسية .

١٠ - العلاج الوجودي ، وهي طريقة حديثة مستمدة من الفلسفة الوجودية . وهنا يكون دور المعالج الوجودي أكثر فعالية من كل الطرق السابقة ، إذ لا تكتفي بالتعليق على « الهامش » أثناء الجلسات العلاجية ، بل إن من واجبه أن « يتقمص » موقف المريض ليفهمه ويشاركه أنفعالاته ويساعده على توسيع أفق رؤياه وتمديد أبعاد الانفعال الوجودي فيه . ولا غرابة في ذلك ، لأن علم النفس الوجودي يقول بأن المرض النفسي هو (موقف انفعالي) تجاه الوجود والعدم ، وهو بالآخرى ليس مرضا مستقلا بل تحولا وجوديا .

١١ - العلاج الديني ، الشفاء الروحي الديني قديم جدا ، وعنصره لا ريب فيه . فالاعتراف والنصح والتوجيه والمعطف والمحبة تدخل الأمن والطمأنينة على النفوس . ولذلك أدخلت بعض المستشفيات العقلية معابد أو مصليات داخل المستشفى لتيسير أداء الشعائر الدينية مصحوبة بالإيحاء والتشجيع .

١٢ - العلاج النفسي الجماعي : في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ولتجمع أعداد غفيرة من المرضى النفسيين من المحاربين أو المدنيين ، فكر بعض علماء النفس في جمع أكثر من مريض في محل واحد لتطبيق مهام العلاجات النفسية الانفة الذكر : من إيحاء واسترخاء وارشاد ورياضة . ثم أصبح العلاج الجماعي فنا خاصا وأسلوبا متميزا لعلاج أمراض نفسية متعددة . ويجتمع من ٧ الى ١٢ مريضا في قاعة ، ويشاركهم الجلسة الطيب المعالج وبعض مساعديه . ويفتح حديثا في موضوع ما ويطلب من المجتمعين إبداء آرائهم وتعليقاتهم . وتلتحم المناقشات . . ولا يبدى المعالج نشاطا مباشرا الا في إدارة دقة النقاش عند الضرورة للبحث على الاستمرار أو لا إبداء تعليقات مثيرة ومفيدة

وتطوعية ، المريض وسط تلك الجماعة يرتبط بعلاقات إنسانية جديدة ، ويدخل في رحلة استكشاف لذاته ولغيره بالاحتكاك الفكري والعاطفي عند تكرار الجلسات ، وبهذه الطريقة تبدلت المواقف والأفكار والسلوك لدى المدمنين والمجرمين والمقامرین والمنحرفين جنسياً ، واستعادوا ثقتهم بالذات أو بغيرهم أو بالمجتمع . . . وتحقق شعورهم بالانتماء والمسئولية .

الصفات المشتركة للعلاجات النفسية :

من كل ما استعرضنا من وسائل علاجية ، نستطيع أن نجتمع صفات مشتركة والمجاهات متجانسة بينها ، نعدّها فيما يلي :

- ١ - أن العلاج النفسي هو عملية إعادة تربية وتطوير عاطفي للمريض . . .
 - ٢ - أو إعادة تثقيف . . .
 - ٣ - أو إعادة توعية وتبصير بالحقائق الحياتية وكيفية مجابهتها بالأسلوب الصحيح . . .
 - ٤ - أو إعادة الثقة المفقودة بالنفس أو تقويتها واسترجاعها . . .
 - ٥ - رفع المعنويات وترويض المخاوف وتهدئة القلق .
 - ٦ - ادخال الشعور بالطمأنينة والأمن والراحة النفسية .
 - ٧ - جعل الإنسان عضواً مفيداً وعنصراً حيوياً في أسرته أو محل عمله أو مجتمعه ، بعد أن كان يشعر بالنشاز والغربة ، أو يتصرف بالانحراف ويسلك طريق الإجرام .
 - ٨ - أن الثقة المتبادلة ، وإيمان المريض بمعالجه وبسلامة الوسيلة العلاجية وعامل العاطفة يلعب دوره في انجاح العلاج ، أو على العكس ، في فشله إذا لم تتوافر تلك الشروط .
- إن العلاج النفسي محاولة جادة لا نقاذ الإنسان من آلامه ومشاكله ، وتيسير حياة مستساغة له ولغيره من الناس . . . وأن هذه الوسائل المختلفة تقتطف وتتقي من كل مدرسة نفسية ما تعتقده مفيداً لمرضاها ، وقد تتبدل وتتطور هذه الوسائل في المستقبل وقد تصبح نسياً منسياً إذا ما ظهرت وسائل أحدث وأنفذ مفعولاً . والإنسانية تتطلع دوماً إلى الأحسن والأففع .

الذاكرة وفن الحفظ

عرفوا الذاكرة بأنها « قابلية الانسان للاحتفاظ بالتجربة والمعرفة واستدعائها وتذكرها عند اللزوم » .
وقالوا انه : « لا يتصور تقدم حضاري ولا تعلم دون الذاكرة . . . »
وقد يبدو هذا الحكم مبالغاً فيه ، ولكنه الحقيقة بذاتها ، ولتبدأ منذ الساعة الاولى التي يدخل فيها الطفل مدرسته الابتدائية ليتعلم الالف والباء . .
والواحد والاثنين . . وكيفية كتابتها . . فانه دون قابلية الدماغ للتسجيل والخصزن والتذكر سيضطر ذلك المخلوق الى عساة تعلمها في اليوم الثاني والثالث . . وحتى آخر العمر . . دون أن يتقدم قيد أنملة في دروب المعرفة بسبب نسيان ما تعلمه . ويترب على ذلك أن كل خبرة عملية وكل حركة يكتسبها بالتجربة تغلت منه حال غيابها وعبورها في الزمن ، اذ بغير الذاكرة لن يتمكن من اعادةها وتذكرها والاستفادة منها في تجربة جديدة ، ونستطيع أن نتصور كيف أن الانسان بغير ذاكرته لن يتمكن من تصحيح أخلاطه السابقة في التعلم ، بل كيف تبهره كل تجربة أو معرفة جديدة ، وكيف تبدو له الاشياء غريبة جديدة مهما تكررت ظهورها وعودتها . وبما أن التعلم لا يبدأ في المدرسة بل منذ اللحظة الاولى التي يستقبل بها المرء حياته بعد ولادته من رحم أمه فانه بالاحرى لن

ـ العربي ـ العدد ١٨٥ ابريل ـ نيسان ١٩٧٤ م

يستطيع تمييز الاصوات والاشياء . . . ولن يحفظ أسارى وجوه أمه وأبيه وإخوته وتقاطيعها .

الذاكرة إذن هي السر وراء كل تقدم حضاري ، ولولاها لبقى الانسان مخلوقا يتنافس مع القرود في لغات الغابات وأحراش البسيطة ، ولظلت الحياة دون قراءة وكتابة ، وبغير علوم أو اختراعات أو اكتشافات .

ذاكرة البشر متفاوتة :

لا يوجد انسان يغير ذاكرة مهما كانت درجة ذكائه مشدنية ، ولكن القابليات العقلية متنوعة فهناك أناس يمتلكون قابلية ذهنية على حل المسائل الرياضية ، وآخرون على الكلام والحفظ ، وآخرون على الانجاز والمهارة العملية البدوية . . . وهكذا . والذاكرة كإحدى الملكات العقلية لا توجد بصورة متساوية لدى كل الافراد ، وقد يمتلك فرد ذاكرة قوية جدا ، ولكنه لا يمتلك قابلية رياضية أو مهارة عملية مناسبة بل قد يكون معدل ذكائه العام اعتياديا أو هابطا أو ممتازا . وفي علم النفس أمثلة على مجموعة من الافراد أطلق عليهم اصطلاح « الاغبياء - الموهوبون » ، وهم من ذوي الذكاء الهابط ولكنهم يمتازون بذاكرة قوية في إحدى القابليات الخمسة . فمثلا هناك طفل عمره ٩ سنوات كان يحفظ مواعيد سير القطارات بين مدينتي لندن ومدينة برايتون لمدة أربع سنوات متتالية . وهناك طفل عمره ٧ سنوات كان يحفظ أسماء جميع أزهار حديقةهم باللغة اللاتينية . . . وآخر عمره ١١ سنة كان يستطيع العزف على البيانو بعد سماعه أي لحن مباشرة .

عبارة الذاكرة :

ويملك بعض الافراد ذاكرة حادة تثير الدهشة والاستغراب أحيانا لأنها تفوق ما تعودنا عليه وما هو مألوف عن الذاكرة . « والحكاية » التي تروي عن أبي العلاء المعري خير مثال على حدة الذاكرة . فقد طرق باب شخص فارسي غريب لا يعرف العربية يسأله عن أحد سكان بلدته (معرة النعمان) إذ لم يجده في



داره ولما كان الرجل الغريب راحلا فقد هون عليه أبو العلاء مشكلته بأن طلب منه أن يقول له ما يريد قوله لذلك الغائب . وكانت رسالة الغريب بالفارسية وحفظها أبو العلاء لتوه ، ثم أعاد تلاوتها على الشخص الثاني بعد قدومه دون أن يفقه معناها، وكانت رسالة ذات أخبار سيئة . ! وإذا نحن بررنا قوة ذاكرة أبي العلاء بكونه أعمى ومرهف الحس ، فإن أشخاصا آخرين لم يكونوا عميانا مثله ، كما سنرى .

وفي العصور التي سبقت ظهور الطباعة والصحافة والتسجيلات على الاسطوانات والشرائط ، استغل ذوو الفطنة من أصحاب الذاكرة القوية قابليتهم في أغراض متعددة ، منها التاريخية ، ومنها العملية ، أو الفنية أو التجارية وظهرت أسماء لامعة لأصحاب الذاكرة المدهشة .

فالمدهو (وليم وودفول) (١٧٤٦ - ١٨٠٣ م) كان يستطيع إعادة ذكر كل ما سمعه من حديث بصورة دقيقة ومباشرة ، ولذلك عمل مخبرا صحفيا ينقل وقائع جلسات البرلمان البريطاني الى صحيفة (مورنينج كرونيكل) اللندنية دون تدوينها أو فقدان شيء منها !

أما (وليم بوتيل) (١٨٧٥ - ١٩٥٦ م) ، فقد كسب عيشه من ذاكرته الخلاصة اذ عمل في مسرح (بالاس) في لندن يوميا طيلة اثني عشر شهرا في احدي السنوات وكان يظهر على المسرح ليحيط عن الاسئلة المتعددة التي يطرحها عليه الجمهور حول حوادث وشخصيات شهيرة كان يحفظ تفاصيلها بدقة . وقد تحول في أرجاء الامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة الامريكية عدة سنوات ممارسا لتلك المهنة !

أما ابن الخائف الفقير (ريتشارد بوسن) (١٧٥٩ - ١٨٠٨ م) ، فقد برع في حفظ المقطوعات الادبية بنصها ، والمسائل الرياضية ، واللغة الاغريقية . وتدرج في الدراسة الجامعية - برعاية المحسنين الى أن تخرج من جامعة كامبردج ، وأصبح أستاذا للغة الاغريقية في جامعة كامبردج ذاتها ، ثم مديرا لمكتبة المعهد البريطاني .

كل هذه الامثلة الواقعية تدل على أن قوة الذاكرة - كما ذكرنا - توجد في أشخاص ذوي مستويات ذكاء متفاوتة دون اشتراط اصابتهم بعماءات حسية أخرى أو بالقضاء الموجود لدى « الاغبياء الموهوبين » الذين تطرقنا الى ذكرهم .

الشعور ، والاشعور ، والذاكرة :

عندما يفكر الانسان ويحادل ويمارس التجربة والدراسة أو الانفعال فان كل ما يدور أثناء ذلك من عمليات عقلية يتم بوعي منه ، أي أنه يشعر ويتنبه ويركز على الموضوع الدائر آنذا . والوعي الآن في لحظة ما قد يصبح بعد لحظات

أو دقائق في عداد النسيان ، لان الانسان ينتقل الى حالة شعور ووعي آخر ، أي أن دائرة الوعي تنتقل الى موضوع آخر . ولكن ما يتعلمه الانسان لا ينعدم بالحقيقة بل يحفظ في مكان ما من دماغه ليرجع ثانية الى مستوى الوعي والشعور عندما « يتذكر » الانسان ما تعلمه سابقا .

هذا « النسيان الوقي أو الحزن في مستويات خارج نطاق الوعي . . . بل هذه الذكريات القديمة التي تقفز فجأة أمام الشعور بعد أن تصورنا اختفاءها كلها هي التي دفعت (سيجموند فرويد) الى تقديم نظرية « اللاشعور » في البناء العقلي للانسان . وهي النظرية التي أصبحت حقيقة لا مكان لدحضها إذ أن كثيرا من ظاهرات الحياة العقلية للانسان يؤيدها . وبما أن دائرة الوعي والشعور محصورة بوقت زمني قصير ، وبما أن اللاشعور هو خزان كبير لكل ما يطرحه الوعي خارج حدوده ، فإن اللاشعور يجب أن يكون كبيرا ضخما تقبع فيه الذكريات المؤلمة أو العنيفة أو المرعبة أو التي لا حاجة لها ، كما تكمن فيه أيضا الاهواء والميول التي سيطر عليها العقل الواعي وطردها من الشعور لوقاحتها أو رذيلتها أو مخالفتها للعرف والتقاليد والمثل .

ومن دلائل وجود ذاكرة مخزونة تحت الشعور أننا كثيرا ما نريد تذكر كلمة أو حادثة ونشعر بحماس أنها قريبة منا وأنها على طرف اللسان ، ثم اذا بها تظهر فعلا وتدخل في نطاق الوعي . .

ان فرويد وعلماء الفلسفة العصبية الحديثة لم يستطيعوا الى الآن ان يحددوا أهمية اللاشعور وموقعه وآلياته . .

التفسير الفلسفي - العصبي للذاكرة :

منذ أن عرف الدماغ على أنه مركز العقل والشعور والسلوك ، حاول علم الفسلجة والجهاز العصبي معرفة المواقع والأسرار للعمليات الذهنية المختلفة للانسان ، وما توصل اليه كثير ولكنه لا يزال يعتبر نذرا يسيرا بالنسبة الى المجهول الذي لم يكتشف بعد .

ويستمد العلماء معرفتهم عن العقل البشري من مختلف الامراض التي تصيب الدماغ الانسان . . وأثناء العمليات الجراحية ، ومن الاختبارات

والتجارب الفلسفية التي يمكن إجراؤها دون أذى على الإنسان ، ويستند القسم الآخر من المعلومات التجريبية المطبقة على أدمغة الحيوانات (كالقثران والارانب والقطة والكلاب والفردة) على أساس أن التركيب الحياتي (البيولوجي) للكائنات الحية يشترك في أصول متشابهة نوعا ما .

وأسرار الذاكرة وما تتضمنه من تسجيل للحوادث والمعرفة وتخزينها وربطها ثم اعادةها بعد حقبة من زمن قد تستغرق عشرات السنين هي من جملة ما حاول علم فلسفة الجهاز العصبي دراسته . وكان اختراع الآلة الحاسبة والالكترونية (الكمبيوتر) نموذجا مبسطا أو « سادجا » لذاكرة العقل البشري ، وعن طريق الحاسبة حاول بعض العلماء تفسير ذاكرة الانسان بأنها عملية تسجيل تتم في أحد مواقع المخ وتنقل الى موقع آخر تخزن فيه ثم تسحب في كل مرة يأتيها ايعاز بذلك .

أما علم الفلسفة العصبية فقد توصل الى « مبادئ » أولية عن عملية الذاكرة نوجزها بما يلي : أن القصر الصدغي للمخ يستلم المعلومات الأولى عن طريق الحواس المعروفة ليبدأ عملية التسجيل والنقل . وقد وجد جراح الجملة العصبية الشهير (بنفيلد) أنه عندما قام بتحفيز جزء من ذلك القصر بالتيار الكهربائي على أحد مرضاه أثناء عملية جراحية ثم سأل المريض عن مشاعره في تلك اللحظة قال المريض انه « تذكر » حوادث قديمة جدا تعود الى الطفولة وبصورة خلاصة واضحة ، كذلك وجد نفس الجراح أنه عندما قام باستئصال جزء من القصر الصدغي الذي يحتوي على الجزء المسمى ب (قرن آمون) فقد ذلك المريض ذاكرته الحديثة بينما احتفظ بكل ذكرياته القديمة حتى ساعة العملية الجراحية ، وعندما انتقل المريض بعد العملية الى دار جديدة بدأ ينسى موقع داره والطريق المؤدي اليها والمعلومات والاسماء الجديدة التي ترد اليه . وهناك تجارب كثيرة أخرى تشير الى أن منطقة القصر الصدغي واتصالاته الأخرى مع بقية أجزاء المخ هي الجزء الأول المسؤول عن الذاكرة الحديثة وتسجيلها .

وتحوم شكوك أخرى حول عملية التسجيل وكيف أنها تتم داخل خلايا الدماغ وبواسطة جزئيات لمواد كيميائية حيوية هي حوامض نووية وبروتينية وأن تلك المعلومات والذكريات تنقل على تلك الجزئيات الى خلايا أخرى في موقع آخر من الدماغ ربما توجد في مناطق سفلية وعميقة منه تتعلق بالجهاز الشبكي وما

يعزز هذه النظرية أن مادة (السيورومايسين) والتي تخمد نشاط جزئية الخامض النووي تؤدي الى خفوت الذاكرة الحديثة وفقدانها كما أن الجزئيات الحاملة لمعلومات حديثة اذا ما أخذت وحقت بجسم حيوان آخر من نفس النوعية يكتسب المعلومات الجديدة مباشرة .

ان بساطة هذه الاكتشافات بالنسبة الى عظمة ماهو قائم فعلا وبجهول يوضح بجلالة الحكمة الالهية والاتقان الكيميائي والعصبي لعمل الدماغ .

والنسيان هو مرض الذاكرة ، وهو العملية المعاكسة للتذكر . ولكن كيف يتم النسيان ؟ . . يحاول علم النفس تفسير عملية النسيان بالعوامل التالية :

١ - النسيان النفسي : وهو تطبيق للمثل القائل « في النسيان الشفاء . . » أي أن الانسان ينسى أو يتناسى « مايؤلمه أو يزعجه أو يربك حياته وهو نسيان ذو هدف وباعث ، أي أنه وسيلة للهروب والتجاهل وهو مايؤكد عليه علم النفس في حوادث الكبت وفقد الذاكرة المستيري في الحروب والصدمات المفاجئة عندما ينسى المحارب اسمه أو رقمه وموطنه بصورة وقتية . ويتضح هنا دور التحليل والعلاج النفسي في استرجاع الذاكرة التي حاول الفرد دفنها الى الأبد . .

٢ - النسيان بالتشويش والتداخل فالداخل الخاصل من الورد والدخول لمعلومات جديدة أخرى محل الذكريات التي سبقتها أو تضعفها يؤدي الى النسيان ، وهكذا . ويتم التداخل بطريقتين :

أ - عندما تؤثر المعلومات الجديدة على سابقتها وتضعفها وهو مايسمى « بالكف المتأخر » .

ب - أو على العكس ، أي عندما تؤثر المعلومات القديمة الراسخة على الجديدة وتضعف من ثباتها ، وهو مايسمى بالكف المتقدم .

٣ - النسيان من قلة الاستعمال : أي أن كل معرفة تتأكل وتلوي على مر الزمن من قلة الاستعمال . وهي نظرية غير قوية لاننا كثيرا ما نذكر حوادث قديمة جداً بكل دقائقتها .

٤ - النسيان الناتج عن أمراض الدماغ العضوية ، فكل مرض يؤدي الى موت بعض خلايا الدماغ أو ضمور قشرته الاستجابية ينشأ عنه خلل أو اضطراب في الذاكرة ومن هذه الأمراض التهابات الدماغ المختلفة ، زهري الجهاز العصبي ، تصلب الشرايين الدماغية ، أورام الدماغ ، الصدمات والارتجاج الدماغى الشديد والشيخوخة المبكرة وخرف كورساكوف .

هل من فن للتذكر ؟

ان أهمية الذاكرة والتذكر دفعت علماء النفس ورجال الفكر والتربية والتعليم الى دراستها ومعرفة العوامل والمؤثرات في تقويتها واستغلالها الى أقصى إمكاناتها وكانت بعض تلك الدراسات تخمينية أو استنتاجية ، وظهرت في العصور الوسطى الكتب التي تصف الذاكرة ومناطقها في الدماغ وخرائطها ! . ولم تكن تلك الاراء عملية تجريبية . الا أن علم النفس بنهجه العلمي الحديث وبعد دخوله في مرحلة التجربة العلمية للظواهر العقلية ، خرج بنتائج ومبادئ أساسية عن الذاكرة وفن الحفظ والتذكر ، نعدد منها ما يهم القارئ الكريم في حياته الفكرية والعلمية :

١ - التصميم على الحفظ : فإذا فرضنا أنك تعرفت الى شخص اسمه (زيدون) فإن التصميم على حفظ اسمه يتم بأن تكرر اسمه خلال تصرفك عليه : « كيف حالك ياسيد (زيدون) ؟ .. وما رأيك ياسيد (زيدون) ؟ ... الخ . وبذلك تنفادى نسيان اسمه ، أو عدم الاكتراث به لافتراضك أنك لن تقابله مرة أخرى طيلة حياتك . وهذه النية على الحفظ تفيد في تذكرك لكثير من الاشياء والاسماء التي تسمعها أو تقرأها أو تلاحظها في حياتك اليومية .

٢ - تعزيز الذاكرة بالتصور والخيال : فاسم (زيدون) يرسخ أكثر فيما لو حاولت تصور تقاطيع وجهه وخصائصه البارزة .

٣ - الانتباه الى الالهم والاعم : ففي قاعة المحاضرات ، يستحسن أن يتتبع الطالب الى الموضوع الاساسي للمحاضرة ، وأن لا يتيه في تدوين التفاصيل بالتدوين بين حين وآخر أفضل من التدوين المستمر التفصيلي . ان الطلبة

الخاملين يدونون أحيانا أكثر التفاصيل في محاضراتهم ثم يتخبطون فيها .
٤ - ربط الحدث أو التجربة بما تتعلق به من صلات منطقية تساعد على حفظه كما يقول العلامة النضائي (ولیم جیمس) فالترابط يساعد على الحفظ والتذكر ولتذكر مثلا بسيطا . ان رقم التلفون ١٤٩١٦٢٥ صعب الحفظ لعدم تناسقه . ولكن أحدهم حفظه بسهولة بأن وجد لنفسه العلاقة الرياضية التالية : قال إن رقم التلفون هو بالحقيقة ١٢٣٤٥ إذا رفعنا كل رقم الى حاصل تربيعه . أي أن مربع ١ = ١ ومربع ٢ = ٤ ومربع ٣ = ٩ ومربع ٤ = ١٦ ومربع ٥ = ٢٥ . وهذا الترابط اصطناعي يتكرره الشخص لنفسه ، مثلما يتذكر البعض الآخر تسلسل أبيات قصيدة طويلة ، أو تسلسل خطاب يريد أن يلقيه فيجد لنفسه طريقة الى ذلك

٥ - ان الوزن أو اللحن أو السجع يساعد على الحفظ والتذكر ، كما هو مألوف في الجمل والكلمات وأغانى الاعلانات في المذياع والتلفاز ، وهذه الطريقة حدودها وقبورها .

٦ - توزيع عملية التعلم على مراحل ، وتجنب الحشو والكظ أو ما يدعى أحيانا (الدرخ) يعني أن قراءة الموضوع دفعة واحدة في يوم واحد قبل موعد الامتحان لاتضاهي القسوة والرسوخ ووضوح المادة فيما لوتعلمها الشخص بدفعات مرتبة متقطعة تسمح له بالاعادة والتفكير والربط مع الخبرات السابقة .
٧ - المذاكرة والاعادة : حاول كلما سنحت الفرصة أن تعيد الحفظ واعادة حفظ ما قرأته ، لان المذاكرة العقلية تساعد على الحزن والرسوخ .

٨ - الراحة بعد المذاكرة فالاستراحة بعد القراءات والدراسات المهمة (أو النوم مباشرة بعدها اذا حل مواعده) هي أفضل من الاستمرار والانتقال الى موضوع جديد آخر فالراحة بعد حفظ مادة تساعد على ابقاء حدة المعلومات الجديدة ووضوحها ، بينما يخف تسجيلها ويضعف رسوخها بتشويش المعلومات التي تعقبها مباشرة ، ويزيد التداخل والازاحة اذا كانت المعلومات أو الدراسات بحاجة الى تركيز وجهد ذهني متواصل وهكذا يجب أن يتم توزيع جدول الدروس اليومي في المدارس ، أي أنه لا ضير من وضع حصص التاريخ بعد ساعة الرياضيات ، ثم بعد مادة الاداب ثم الرياضة البدنية، أما أن تتراكم حصص الرياضيات فالفيزياء والكيمياء واحدة بعد الاخرى دون وجود فترات

راحة مناسبة فان ذلك يؤدي الى زعزعة قوة بعض تلك المواضيع ورسوخها .
٩ - يستحسن قبل قراءة فصل أو قطعة طويلة من كتاب أن نلقي نظرة
شمولية عامة عليها ، وإذا وجد لها ملخص فاقراء قبل الشروع في قراءة الفصل
بدقة .



الجشتلت ، هي أحدث وآخر مدرسة متكاملة في علم النفس الحديث ، ظهرت في عام ١٩١٢ . وتعد تعاليمها من أطرف ما جاء به علم النفس ، اذ امتدت الى ميادين فكرية لم تقترب منها المدارس الأخرى ، ولم تجرؤ على تفسيرها . ويعدها بعض النقاد مدرسة فريدة وأصيلة لنشوتها مستقلة عن أية تعاليم وفلسفات سابقة لها .

والجشتلت كلمة ألمانية حديثة ليس لها مرادف دقيق في اللغات الأخرى ، ولكنها تعطى معنى « الشكل » ، أو « الهيئة » ، أو « التنظيم » . وحيث أن محور النظرية قائم على فلسفة الشكل فقد دُعيت بالجشتلت .

والجشتلت علم النفس الحديث .

- العربي - العدد ١٦٥ اغسطي - آب ١٩٧٢ م

واضعوا الجشتلت

في جامعة برلين ، التقى ثلاثة شبان في قسم الأبحاث النفسية . ثم شاءت الصدفة أن يلتقوا مرة أخرى قرب مدينة فرانكفورت بعد أن تخرجوا وتوزعوا في مجالات عملهم ، وهناك امتزجت أفكارهم الأولية مع تجاربهم العملية فخرجوا بنظرية (الجشتلت) ، وكانوا :

ماكس فرت هيمر (١٨٨٠-١٩٤٣) .

وكرت كوفكا (١٨٨٦-١٩٤١) .

وفلف جنيج نكولر (١٨٨٧-) .

الذي شغل منصب استاذ علم النفس في جامعة سوارثمور في الولايات المتحدة الأمريكية لغاية عام ١٩٥٥ .

وكان أول ما جمعهم عدم قناعتهم وتشككهم في صحة ادعاء النظريات النفسية المعاصرة ، وأبرزها : النظرية السلوكية لواتسون ، والنظرية التركيبية لقند ، والنظرية الترابطية لبافلوف وثورندايك . وقد انتبه فرسان الجشتلت الثلاثة الى أن هذه النظريات لن تستطيع تفسير التفكير والادراك والأحاسيس بصورة دقيقة ، وأن ما تجمع لديهم من التجارب والحقائق منذ أيام دراستهم حتى ذلك الوقت يكفى للدلاء بأرائهم ، وسرعان ما لقيت تلك الآراء مؤيدين لها في أرجاء كثيرة من العالم الغربي ، بل سرعان ما أصبحت مدرسة رائدة ، وما لبث واضعوها أن انتقلوا من ألمانيا الى الولايات المتحدة الأمريكية تباعا ، ومنذ عام ١٩٣٠ .

وقد حفلت تلك العقود القصيرة بأبحاث متتالية وتجارب مستمرة على الانسان والحيوان .

ففي عام ١٩٣٣ ، كتب كوفكا عن الجشتلت في الولايات المتحدة . .

وفي عام ١٩٢٥ ، أصدر كولر كتابه القيم عن « عقلية القروء » .

وفي عام ١٩٢٩ ، ظهر كتاب « الجشتلت » بقلم كولر .

وفي عام ١٩٣٠ ، سافر كولر الى الولايات المتحدة ولقي هناك أتباعا كثيرين متحمسين .

وفي عام ١٩٣٥ ، أنجز كوفكا كتابه عن « أسس سيكولوجية

الجشملت .

وهكذا استقر البُحاث الثلاثة في أمريكا تحتلن مناصب علمية مرموقة

ما هو الجشملت ؟

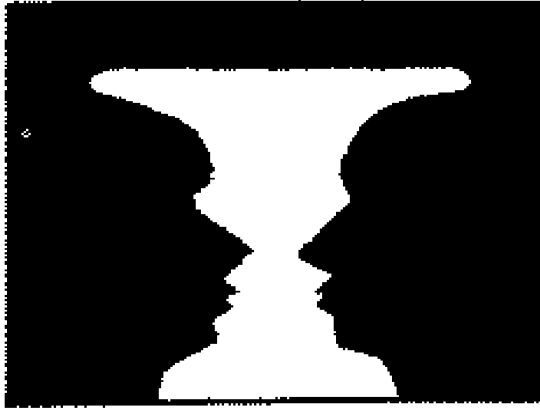
قال مؤسسو الجشملت ، ان ما يجير علماء اليوم هو انشغالهم بالجزئيات وتقيدهم بالسير من الأسفل الى الأعلى ، ان هنالك طرقا مختصرة وسريعة أمام الباحث اذا ما التفت الى الكل قبل الجزء ، واذا بدأ من القمة وانحدر تدريجيا الى القاعدة .

ولست بصدد ذكر تفاصيل نظرية الجشملت ولكن من الأيسر ان تتبع تلك الفكرة في عقول مؤسسيها لنصل الى جوهر النظرية . فلو نظرنا الى الرسم (١) وتأملناه . . . لرأينا شكلا مثلثا أ ، أو دائريا ب ، أو خطا مستقيما ج . فكان أول ما نلتقطه عقولنا من الأحاسيس هو النموذج أو « الشكل » الذي يتبع من مجموع الأجزاء . وأجزاء هذه الأشكال هي النقاط السود .

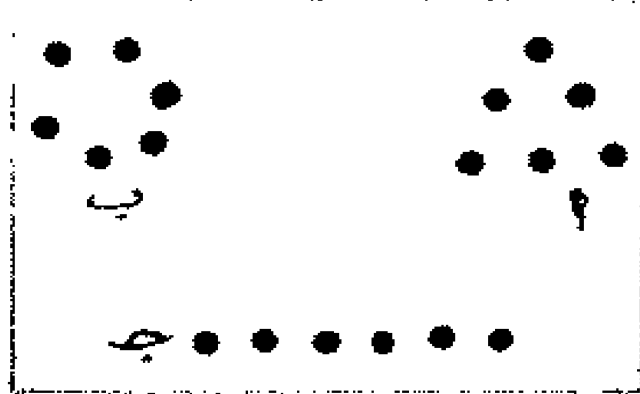
وبهذه النقاط يمكننا تركيب أشكال أخرى يدركها الانسان قبل الاكتفات الى أجزائها . أو بالأحرى ان الكل الذي ندركه لا يساوى مجموع الوحدات الحسية بالضبط ، بل يزيد عليها في الشكل والتنظيم - وهو ما يدعى بالجشملت .

وعندما تجتمع المحسوسات في شكل أو هيئة ، فانها تحتل المرتبة الأولى من ادراكنا الحسي وتبقى الأشياء والأحاسيس الأخرى في المؤخرة كخلفية .

الجشملت الذي ندركه . وفي الرسم (٢) نستطيع أن نرى صورة كأس بيضاء ذات خلفية سوداء ، ولكتنا لو تحكمتنا في ادراكنا للصورة وترينا هنيهة ، لاخفت الكأس فجأة وظهر وجهان أسودان متقابلان ذوا خلفية بيضاء . فالفكر اذن لا يتقبل المحسوسات كلها على السواء ، بل يتقبل جشملت أو شكلا واحدا ذا خلفية ثانوية ، ولا يمكن ادراك الشكلين معا (أى الكأس والوجهين) وفي آن واحد . ومعرفة الطفل الرضيع لأمه قبل كل شيء ناتجة عن ادراكه لوجه أمه الحنون القريب منه غالب الأحيان من بين خلفية كبيرة ومتنوعة حوالية (كالغرفة وأثاثها والناس الآخرين من أفراد العائلة) .



شكل (٢)



شكل (١)

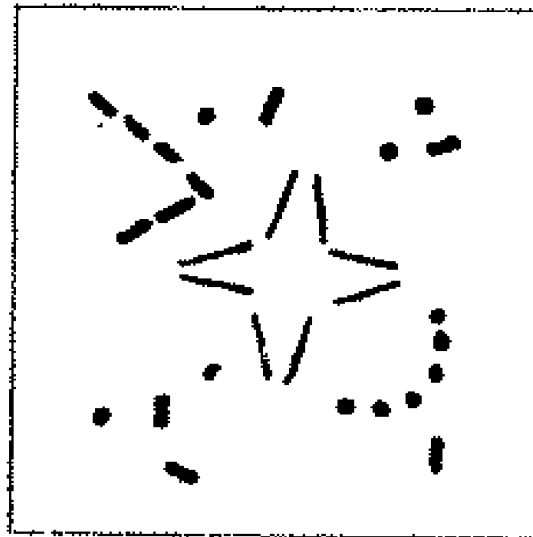
وأجزاء الأحاسيس هذه عندما تتجمع وتتلاحق زمنيا ، يمكن ان تنتج شعورا بالحركة . والفلم السينمائي الذي نراه كحركة مستديمة ، ما هو الا مجموعة من صور ثابتة ساكنة لا حركة فيها ابدا - الرسم (٣) . فمكنة العرض السينمائي تدير (الفلم) بسرعة معينة ، وعندئذ تظهر الصورة أعلى الشاشة (وهي في الحقيقة صورة ساكنة) . . ثم ، وبعد جزء من الثانية ، تتبعها الصورة ب ، وهي أيضا ساكنة . . ولكنها تختلف عن الأولى قليلا جدا . ثم تليها الصور ج و د . وهكذا تتلاحق مئات وآلاف من الصور الساكنة . الا أن قصر المسافة الزمنية جعلها تختلط بشكل جشتلت حركي . وقد استفاد العلماء من هذه الظاهرة في ابتكار الأعيب الأطفال ذات الصور المتحركة منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وكانت تدعى بظاهرة الصورة المتحركة ، وهي نواة (الأفلام) السينمائية الحالية وكثير من الظواهر الاعلانية الحركية في العصر الحاضر . أما فرت هيمر فقد دعاها بظاهرة الوهم الحركي . ورواد الجشتلت هم الذين فسروها علميا واثبتوا أن الصور الساكنة اجتمعت وانتجت كلا يزيد على مجموعها - وهو الحركة .

وقد قضى كولر أعواما وهو يراقب ويختبر تفكير أعلى مراتب القرود (الشمبانزي) وذلك بأن يجابهها بمعضلات فكرية ويدرس كيفية توصلها الى حلها والخروج منها . وخرج كولر باستنتاج يقول ان تفكير القردة العليا وإدراكها - وكذا الانسان - يعتمد على رؤية المعضلة ككل وكموقف عام - أي كجشتلت - وانه عندما ينجح في حل المسألة التي تتحدها ، فلنما يفعل ذلك

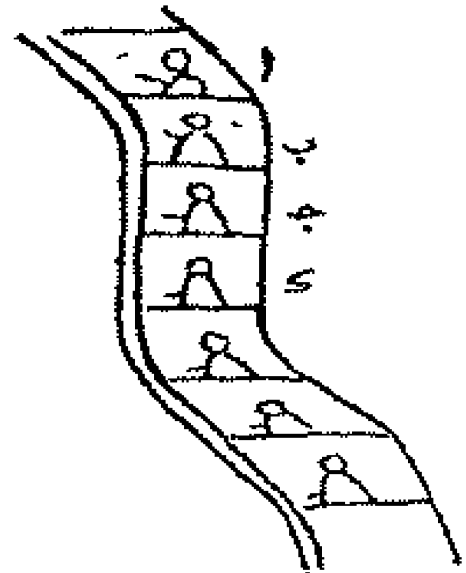
بالادراك أو « الاستبصار » Insight ، وليس بالتجربة والخطأ كما يقول ثورن ديك .

أما ثورت هير ، فقد ألف كتاباً عن « التفكير الخلاق » بعد ان قابل ودرس عباقرة المفكرين آنذا ، ومن بينهم اينشتاين على الخصوص ، وكيفية توصله الى النظرية النسبية . وبين كيف أن تفكيرهم كان خلافاً ومنتجاً باتباعهم الطريقة الشاملة (الجشتالية) في التفكير الذكى الذى يتوصل لفهم المسائل المعقدة .

وفي حياتنا العامة أمثلة متعددة على ان مفردات الحس تصل الى الدماغ وقد امتزجت ككل ، وكأنها تجمعت وتفاعلت وهي في طريقها الى جهازنا المعصبى المركزى . والجشتلت أو الشكل الذى نحس به الأشياء لا يتغير حتى لو تغيرت الأجزاء . فالفستان من الزى القلابى (أى الشكل) يمكن أن يصنع من الحرير أو القطن أو الصوف ، ولكنه يبدو للناظر كل مرة بالزى ذاته على المرأة ذاتها . كما أن اللحن الواحد تشخصه الاذن حتى لو كان يعزف بسلام موسيقية عالية أو واطئة ، لأن مجموع الأصوات وترتيبها يفوق الأجزاء الصوتية (النوتات) التى يتألف منها ، فتنتج لحناً ذا وقع خاص على الأذن البشرية . هذه القوى الجامعة الديناميكية في المحسوسات هي الجشتلت .



شكل (٤)



شكل (٣)

عوامل الجشتلت

ترى ما سر اجتماع الأجزاء وامتزاجها لتصل الى الادراك بشكل وهيئة وخلفية ؟ ، وما آلية إدراك شكل معين وطريق أو امسال أشكال اخرى من الشعور ؟ لقد وجد رواد الجشتلت بضعة عوامل تقرر إدراك الانسان للاحداث كجشتلت وذلك بعد سلسلة من التجارب ، وهذه العوامل هي :

١ - عامل القرب (أى قرب الأجزاء من بعضها) ، ٢ - التشابه ، ٣ - الاستمرارية ، ٤ - الميل الى الانغلاق والتكامل ، ٥ - اللفة ، ٦ - التهيو والاستعداد ، ٧ - التقوية والتعزيز .

والرسم المرفق (٤) يبين بوضوح تلك العوامل . فنحن ندرك النقاط الصغيرة والأشكال التي تكونها نظرا لتشابهها وتقاربها مجموعات ، وكذا بالنسبة للخطوط العريضة المتقطعة ، كما أننا ندرك نموذج النجمة على الرغم من انها بضعة خطوط غير متصلة ، ولكن قوة الجشتلت تغلقها وتكمل الفراغات فيها بينها ، أما اللفة فأبسط مثال عليها أنك اذا كنت وسط زحام من الناس في «صاله» مسرح أو حديقة أو موقف حافلة ، فإن الوجه المألوف لديك هو الذى يبرز ويقتحم إحساسك ، وبذلك تميز بسرعة وجوه الأصدقاء والأحباب من بين خلفية ضخمة من الوجوه الغريبة . وتأثير التهيو والاستعداد يتضح عندما نذهب الى السوق يا حثا عن قبة أو عن ربطة عنق ، فإن التهيو لالتقاط الرباط وشرائه يجعلك لا ترى في واجهات المحازن (الفترينات) الا الأربطة أو القبعات ، أما البضائع الأخرى فيهملها العقل وتغدو خلفية ثانوية . ونظرية الجشتلت لم تقتصر على تلك التجارب - وغيرها كثير - ، بل حاولت التطبيق وتعميم ذلك على ظواهر نفسية وحياتية اخرى .

تطبيقات « الجشتلت » العملية

سرعان ما انتشرت تعاليم الجشتلت الى ميادين علم النفس الأخرى ، وإلى التربية والفلسفة ، وأصبحت دليلا مشروعا لتفسير ظواهر حياتية غامضة :

١ - ففي ميدان التفكير والتعليم نجد أن كل ما نجريه ونراه ونحسه يتوقف على طبيعة الأجزاء ومحلها من المجموع الكلي للشكل والهيئة ، فالذاكرة والحفظ والنسيان تعتمد على الجشتلت الذي يحس به عقلنا تلك الأشياء ، أي أن الانسان يدرك الحياة والعالم والناس كظاهرة متكاملة .. كصورة .. كأشياء تبرز من خلفية أو تتراجع الى الخلفية .

٢ - وفي التربية والتعليم : بما أن « الجشتلت » هو أول ما يصل الادراك وهو الذي يطنى على الأجزاء ، فإن الطريقة المثلى والسريعة لتعليم الأطفال مبادئ القراءة الأولية واللغات هي ان نبدأ بالكل قبل الجزء . نعلمهم الكلمة والجملة كما هي ثم نرجع بعد زمن الى الأجزاء والتفاصيل (أي الحروف) . وهذه هي الطريقة الحديثة في تعليم اللغات وحتى المواضيع المعقدة من علوم النفس والاجتماع مثلا ، اذ يمكن البدء بالفصول الصعبة الكاملة ثم نعود الى المبادئ في الخطوات التي تليها - أي من القمة الى القاعدة .

٣ - في تفسير بعض الأمراض النفسية : وقد كشفت نظرية الجشتلت النقب عن نظرة الانسان الى المجتمع والحياة ككل ، كميدان تتجمع فيه شئى الأحاسيس والوحدات والتجارب ومن هذا الكل (الجشتلت) يستطيع العقل أن يدرك علاقة الأشياء بعضها ببعض ، وأن يجرد التجربة الواحدة من خلفيتها ، وأن يسلك تجاهها السلوك المطلوب ولا يحدث في أمراض الفلق والحصر أن تضطرب قابلية التجريد تلك ولكنها لا تبدل ، أما في مرض القصام العقلي (الشيزوفرينيا) ، فنجد ان قابلية التجريد تقف وتتجمد . ولذلك يتصف مريض القصام بجمود التفكير .

وبالانعزال . والانعزال هو وسيلة المريض العقلي لتفادي الاصطدام بالازمات والمعضلات و « الاشكال » الصعبة الواضلة الى عقله من العالم الخارجي (الناس والمجتمع) .

٤ - في ابتكار مقاييس الذكاء والتفكير المجرد : وبما ان الجشتلت يفسر قابلية الانسان للتجريد والاستنباط واكتشاف العلاقات بين الموجودات ، فإن بالامكان ابتكار معايير فكرية نختبر بها المشتبه بهم لتسجيل درجة فهمهم للتصرف والاستنباط وعلى الربط والتجريد . ومن الأمراض المؤثرة على التفكير المجرد القصام ، والآفات الدماغية التي تخرب جزءا من خلايا الدماغ وتسببه

فتحدد من قابلياته السابقة . وقد استفاد علماء النفس من هذه النظرة الجشتلتية فصمموا عدة اختبارات للذكاء . واول من بدأها قرت هيمر نفسه . ثم طورها بندر ، وكولدشتاين ، ويطلق عليها الآن اختبارات (بندر جشتلت) ، واختبارات كولدشتاين (وهي خمسة) .

٥ - في علم الاجتماع : واستفاد علماء النفس الاجتماعي من الجشتلت أيضا في تفسير بعض السلوك الاجتماعي للإنسان ، حتى ان كرت ليفن خرج بنظرية (المجال النفسي) والتي تقول ان الانسان والاشياء موجودات وسط ميدان أو « مجال » أشبه ما يكون بالمجال المغناطيسي المحيط بالمادة المغناطيسية ، وان المحيط والمجتمع يمثلان هذا المجال ، وان الفرد يتأثر بالمجال ويؤثر فيه أيضا ، وكأنهما القطبان المغناطيسيان . فسلوك الانسان يتكيف بالنسبة للمجال الاجتماعي الذي يعيش فيه ، ويؤثر فيه بدوره . كما ان المعالج النفسي اذا ما استطاع تحويل المجال ، فانه يكون قد توصل الى تحويل سلوك الفرد .

٦ - واستفاد العلماء الفلاسفة في الفن والجمال من الجشتلت أيضا لتفسير المعاني الجمالية في الابداع الفني والموجودات الطبيعية . فقد يحس الانسان ان الوجه الفلاني أو اللوحة المعينة جميلة جذابة دون ان يكون في تقاطيعها أو تفاصيلها ما يبرر جمالها . والحقيقة ان الشعور بالجمال هو شعور بالجشتلت . وبالأحرى ان المجموع الكلي لأجزاء اللوحة أو القطعة الموسيقية أو المنحوتة أو وجه المرأة قد بعث شعورا بالجمال ، ومن هنا يتأتى جمال الانتاج الفني .

لم تبرز مدرسة الجشتلت دون سوابق فلسفية وفكرية . وقد أفلح بعض النقاد في اكتشاف ملامح منها منذ عهد أرسطو ، الا أن الملامح الأقوى بدت في القرن التاسع عشر . فقد أشار النفساني ايرنفيلز الى أن العقل لا يدرك الأشياء وحدها بل مع صفاتها أيضا . فعندما نرى المربع المؤلف من أربعة أضلاع متساوية وأربع زوايا قائمة فانا ندرك أيضا صفة « التريبع » فيه ، وكذلك نحس « تكوير » الشيء في الكرة ، وخشونة القماش ، و « لزوجة » السائل المميز . . الخ . ودعا هذه الصفات الحسية بـ « صفة الجشتلت » .

وتذكرنا نظرية الجشتلت أيضا بفلسفة « الظاهراتية » التي بدأها الفيلسوف هوسرل ، والتي تركز على أن ما يدركه العقل هو عين الظاهرة التي يراها ، وأن الحقيقة هي حقيقة الظاهرة ولا غيرها . وبذلك أيدت الظاهراتية الجشتلت والتي تركز أيضا على فكرة الظاهرة الحسية وديناميتها .

ومن الطريف للقارىء العربي أن يعرف أن المؤرخ والفكر الاجتماعي ابن خلدون أدرك الجشتلت بصورة غير مباشرة قلل على الحس العلمى المرفه لديه ، إذ أشار الى أن الأصل في الإدراك هو المحسوسات ، وأن جميع الحيوانات من الناطق وغير الناطق مشتركة في هذا الإدراك الحسي ، ولكن الإنسان يتميز عنها بإدراك « الكليات » وهي مجردة من المحسوسات .

قلنا ان الجشتلت نظرية ظهرت كرفض وتحد للتعاليم النفسية في بعض المدارس السائدة في أوائل القرن العشرين . ومن المفيد أن نذكر محور كل منها لنتبين الفوارق الجوهرية بينها .

فالمدرسة التركيبية ، ورائدها الشهير وندت ، اعتبرت الشعور والإدراك مركبا من مجموعة الأجزاء والوحدات الحسية . أى أن المجموع يساوى الأجزاء بالضبط ولا يزيد عليها . وقالت ان الوعي والشعور يمكن دراسته بتحليله الى جزيئاته وذراته تلك . ولذلك دعت أيضا بالنظرية الذرية أو العنصرية لتركبها على العناصر والأجزاء . وقالت أيضا بأن وسيلتنا الأساسية للدراسة الشعور هو التفكير الباطنى . أى بالتأمل و « الاستبطان » .

أما النظرية السلوكية لوانسن ، فقد تنكرت لوسيلة الاستبطان كأداة للبحث ، وقالت ان ما نحسه وندرسه يجب أن يكون موضوعيا . والموضوعية هي الحقيقة وحدها ولا دور للفكر والعقل فيها . وما نحسه ونشعر نحن به لا قيمة له بقدر ما للسلوك الظاهرى الذى يجرى خارجنا ونحت سمعنا وأبصارنا .

أما المدرسة الترابطية فقد سادت الفكر الأوروبي لمدة قرنين (الثامن والتاسع عشر) وخاصة في إنجلترا موطنها الأولى . ومن روادها : هيوم ولوك وهوبز وبيركلي . وتعتمد الترابطية على فكرة ان الخبرة والتجربة وترابطها هي

محور التفكير والتعلم والمعرفة . ثم تطورت النظرية وأصبحت مدرسة نفسية خاصة على أيدي ثورندايكن وبافلوف وسكينز الذين أجروا تجارب على الحيوانات واستنتجوا بأن الإدراك والتعليم يتم عن طريق ربط تجربة أولية سابقة بأخرى جديدة ، وأن المحاولة والخطأ هي العامل الحيوي في « الترابط » هذا وليس البصيرة أو التفكير الذكي المجرد . وقالوا ان تسلسل الأفكار أو بالأحرى « تداعي المعاني » الحر هو المثال الواقعي على الترابط في الاحساس والتفكير والإدراك .

وقد رأينا مسبقا كيف خالفت الجشتالت تلك المدارس ولكنها لم تنف أهمية الاستبطان في الأبحاث النفسية بل أكدت عليه .

رأينا كيف أن الجشتالت أصبحت مدرسة راسخة متميزة عن غيرها من النظريات ، وأنها الثانية - بعد التركيبية - التي أنشئت لها مختبرات نفسية عملية لاثبات أبحاثها .

وقد توزعت تعاليم الجشتالت تدريجيا إلى ميادين شتى ، وتبنتها نظريات أخرى ، كما تبدلت النظرة إليها كمدرسة بعد منتصف القرن العشرين ، بل أنها لم تعد مدرسة مستقلة لها أتباع ومريدون ، وما تصادفه اليوم من أفكار للجشتالت فموزع بين مواضيع الاجتماع والفلسفة والفن والتربية وعلم النفس . وإليها يرجع الفضل في احراز التقدم في تلك الميادين الفكرية . ولا ريب ان مدرسة الجشتالت أضافت للفكر الانساني وعلم النفس شيئا جديداً وجديراً بالاهتمام ، على الرغم من أنها لم تفقد أو قدحض المدارس الأخرى التي تطورت وتجددت أيضاً وأصبحت ذات أسس راسخة وفخيرة علمية كبيرة .



الطبعة الأولى
الطبعة الثانية

الف هـ راس

السلوك الإنساني

الحقيقة والخيال ؟

السلوك الإنساني

الدخيلة فاو الدخيلة ؟

• تقديم • د. محمد الريميحي

• الفصل الأول •

- بين الخس والسلوك ■ ١١
- الخس العام وهم أم حقيقة ؟ ١٣
- زرقاء اليمامة وظاهرة الاحساس الخارق ا ١٩
- السلوك البشري بين اللغة والالم ا ٣١
- أحسن الكلام وخير الفعال ا ٣٩

• الفصل الثاني •

- أضواء على النفس البشرية ■ ٤٥
- بين العبقرية والامراض النفسية ٤٧
- المقامرة ... هل هي مرض نفسي ؟ ٥٤
- المعقول واللامعقول في الجنون ا ٦٤
- طقولة مهشمة ا ٧٣

● الفصل الثالث ●

٨١	■ اتجاهات نفسية واجتماعية ■
٨٣	- الرفض بين الايجاب والسلب
٩٠	- حكايات وأقنعة !
١٠٠	- ضرورة الانتماء
١١١	- الرقى والتعاويد
١٢٥	- في زمن الادمان على الضجيج
.....	

● الفصل الرابع ●

١٣٥	■ العلم وتطبيقاته الانسانية ■
١٣٧	- غسل الدماغ !
١٤٦	- أضواء على العلاج النفسي
١٥٧	- الذاكرة وفن الحفظ !
١٦٧	- الجشلت ماهو ؟

مصدر

١٩٨٤

- الكتاب الأول ●
الحرية د . أحمد زكي ● يناير ٨٤ ●
- الكتاب الثاني ●
العلم .. في حياة الانسان د . عبد الحليم متيمر ● ابريل ٨٤ ●
- الكتاب الثالث ●
المجالات الثقافية والتحديات المعاصرة .. د . عبد الله العمر
د . محمد جابر الانصاري
د . فؤاد زكريا
● يوليو ٨٤ ●
كامل زهير
- الكتاب الرابع ●
مراجعات حول: العروبة والاسلام وأوروبا د . محمود السمره ● اكتوبر ٨٤ ●
- الكتاب الخامس ●
العرب ومسيرة ربع قرن مع :
الحياة .. والناس .. والوحدة ، في دول
الخليج العربـيـه
(مجموعة كتاب) ● نوفمبر ٨٤ ●

- الكتاب السادس ●
- عليانغ التبشر . . دراسات نفسية واجتماعية د . فاعر عاقل ● يناير ٨٥ ●
- الكتاب السابع ●
- حوار . . لا مواجهة
- دراسات حول الاسلام والمعبر د . أحمد كمال أبوالمجد ● أبريل ٨٥ ●
- الكتاب الثامن ●
- آراء ودراسات في :الفكر القومي ساطع الحصري
- ه . أحمد زكي
- د . محمد أحمد خلف الله
- د . عبدالعزیز النوري
- د . عبدالله عبدالنظيم
- د . عبدالرحمن الميزاز
- (وآخرون) ● يوليو ٨٥ ●
- الكتاب التاسع ●
- أشواء على لغتنا السمحة محمد خليفة التولسي ● أكتوبر ٨٥ ●

● الكتاب العاشر ●

الكويت وربع قرن من الاستقلال د . أحمد أبو حاكم

د . عثمان خليل عثمان

عبدالمعز أحمد البهر

لولوة التهامي

الحسيني حسن العوضي

زكي طليمات (وآخرون) ● يناير ٨٦ ●

● الكتاب الحادي عشر ●

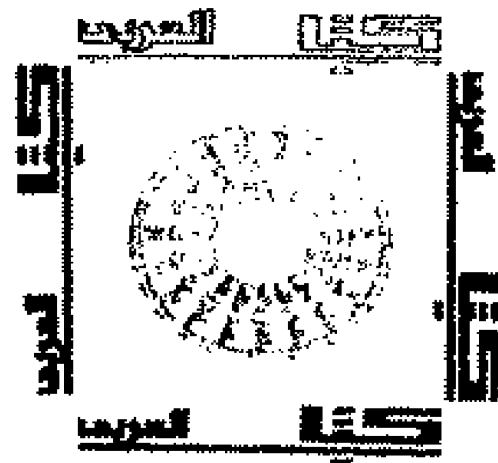
نظرات في الواقع الاقتصادي المعاصر

● الكتاب الثاني عشر ●

السلوك الانساني . . . الحقيقة والخيال

د . حازم البيلوي ● ابريل ٨٦ ●

د . فخري الدباغ ● يوليو ٨٦ ●



قديم الشعر وجديده

د. محمد مندور د. أنیس المهدی
د. زکی نجیب محمود د. ابراهيم أنیس
د. عبدالعزیز المفاح عبدالقادر الأتصاری
شوقی بغدادی طلال سالم الحریثی
وآخرون

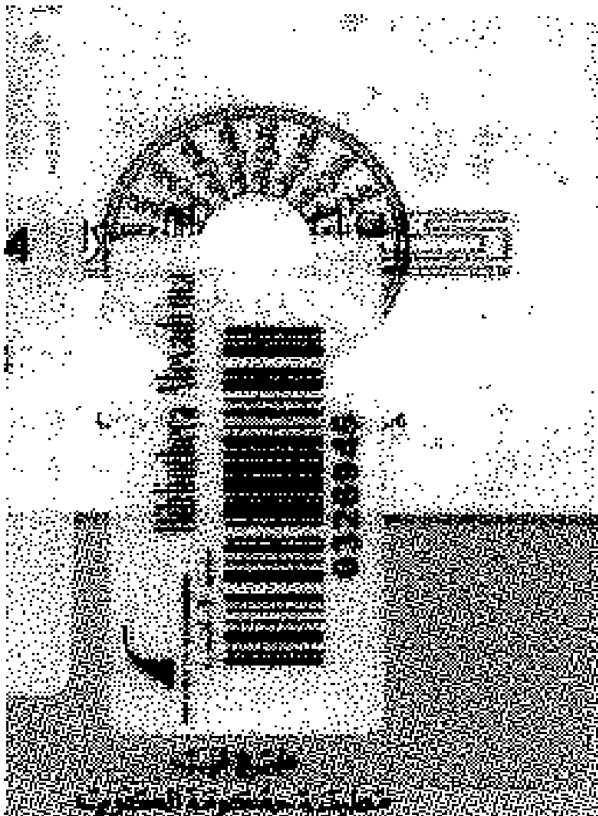
الكتاب الثالث عشر

١٥ اکتوبر ١٩٨٦

هذا الكتاب

النفوس البشرية ذلك المستندون المعلق السني
حاول العلماء سبر أغواره ، بعضهم أقترب من
الحقيقة والبعض الآخر ابتعد عنها ، أما تفسير
السلوك البشري فانه لا يشرح فقط من التركيب
البيولوجي للإنسان ولكنه أيضا خاضع للثقافة
والبيئة التي يحياها الإنسان . عن هذا الموضوع
الشيق - النفس والسلوك - يصدر كتاب العزبي
الجديد الذي كتبه أحد الاختصاصيين العرب في
مقالات قصيرة وممتعة في مجلة العربي ، وبها نرجو
تجميعه في هذا الكتاب قائدة للقارئ وممتعة

• الاستاذ خالد العزبي •



To: www.al-mostafa.com